obeikan.com

حكاية قبل الموت

شركة الدلتا اليوم للصحافة والنشر والتوزيع والدعاية
دار دلتا للنشر

رئيس مجلس الإدارة
المحاسب
أحمد التلاوي
الناشر
سليمان القلشي
مستشار النشر
أحمد سويلم
مدير النشر
محمد هشام عبيه

الطبعة الأولى
الكتاب:حكاية قبل الموت
المؤلف: محســن الغمري
تصنيف الكتاب: رواية
تنفيذ داخلى : محمود رمضان
تصميم الغلاف : إسلام الشماع
رقم الإيداع:٢٠١٧/١٥٢٠٥
الترقيم الدولي: ٥-٢٧-٦٦٠٥-٩٧٧-٩٧٨

العنوان : ١شارع ابن مروان - أمام مجلس الدولة الدقي
التليفون : 02/37483557
email : delta4books@gmail.com

obeikan.com

محســـن الغمري

حكاية قبل الموت

رواية

دلتا للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

إهداء:

إلى أرواح شهداء العمل والواجب من أبناء الطيران، أهدي إليهم روايتي هذه.

obeikan.com

obeikan.com

تنويه هام:

القصة التي بين أيديكم وإن تشابهت عليكم، هي من وحي الخيال، شخصياتها افتراضية، أحداثها مختلقة من عند المؤلف. لذا وجب التنويه بأن أي تشابه يتوهمه البعض فهو من باب المصادفة الفنية المحضة.

المؤلف

obeikan.com

obeikan.com

« 1 »

« اختفت إحدى طائرات الشركة المصرية للطيران، من على شاشات الرادار دونما سابق إنذار! يرجح مصدر الخبر سقوطها في المحيط، لسبب غير معلوم ».

خبر سقط على رأسي.. كحجر ثقيل ملفوف في صحيفة من أوراق سوداء ! فشق الرأس، وغشيني ظلام موحش، جزعت..ارتبكت.. زاغ البصر..اضطرب الفكر، تخشبت في مكاني لدقائق دون رد فعل يذكر ! في ذلك المساء سقطت على الفراش دَوِش العينين، ذهلاً لا أنطق، أغلقت التلفاز ومصباح، أقـرأ به أحيانا.. رقدت، مكثت مستيقظا قابعا بلا حراك في فراشٍ من أرق نزق، مع نوم عاص رافض الانصياع لإرادتي.

صبغت العتمة أركان المكان؛ ضاعت الرؤية من عينيِّ، جاهدت لاستعادة قدرة الإبصار في الظلام، فرأيت جدران الغرفة تحدق في بوُسى، وسقفها يكاد يحتضنني إشفاقا، وصورة تتكون أمام عيني مشوشة مرتبكة..غير واضحة المعالم، لكنها رويدا بدأت تتضح وإذ بها خيالات لجوقة من أشـباح، فوجئت بهم يتحركون يخرجون من السقف، وهم يتمايلون...يدورون حول أنفسهم، ثم يجلسون على الجدران، حتى امتلأ بهم فراغ المكان! كانوا ينظرون إلي تارة.. وإلى بعضهم تارة، يصدرون طنينا كطنين نحل هائج، لكن الطنين بعد وهلة راح يتحول إلى همهمات فصوت راحت تعلو نبرته، حتى صار جلبة تملأ المكان، بعرض الجدران وطولها؛ لكنها جلبة بلا صوت كصمت ثقيل ابتلع كل هواء الفراغ، راقدا على محيط الغرفة بأكملها.

دقائق مضت لا أعلم عددها، وأنا متخشبٌ في مكاني محملقٌ فيما أراه، عندئذ

بدأ سطح المرآة التي تفترش جدار غرفتي المقابل للفراش، يموج كسحابات دخان، تقول رائحته الغريبة التي ملأت المكان إنها لبخور له عطر خاص، برغم أني لم أشتم له رائحة... !

أخذت السحب تتجمع وتتكاثف، ثم تتشكل على هيئة شيخ وقور يخرج من خلالها، وراح يقترب حتى وجدته يقف متكئا على ظهر المقعد الوحيد في ركن غرفتي، ثم جلس في مواجهتي، استنتجت من حركة الرجل أنه ضرير، برغم أني لم أتبين له ملامح، اللهم لحيته الكثة، التي كانت بلون ليل يمحوه الضياء !

كان الشيخ حينذاك ينظر إلي - أو هكذا أحسست - برثاء وأسف، ثم قال بصوت كأنه صادر عن حنجرتي أنا:

ـ أراك حائرا يا ولدي.. فماذا تريد ؟

أربكتني المفاجأة، وانتابني الذعر.. قلت بلهجة من يستجدي الاطمئنان:

ـ من أنت.. ومن أين جئت ؟

رد الشيخ بصوت هادئ، مغلفٍ بسكينة تدعو للاطمئنان، قائلا:

ـ سأجيبك على سؤاليك رغم أنك لم تجبني.. إن عرفت من أنت ستعرف من أنا ؟ هذه واحدة أما من أين جئت ؟ أنا لم أجئ من أي هناك..أنا دائما هنا. لكنها ليست (هنا) التي تعِيها أنت ! بل هنا التي هي أي مكان، أنا شيخ هذه الجماعة (أشار بيده نحو هؤلاء الجلوس على الجدران) جماعة طريق المعرفة.

لم أعقب.. ربما لأني لم أفهم ما قاله، أو لارتباك حل بي، ثم نطقت:

ـ أريد الحقيقة ؟

ـ الحقيقة..! ومن ذا الذي يمتلكها ليمنحها لك ؟ اسمع يا ولدي منذ البدء والبشر يبحثون عن الحقيقة.. وبرغم أنها قد تكون بين أيديهم أو أقرب مما

يتخيلون، لكن أبدا لا يقبضون عليها ! نحن نسعى للمعرفة، لكن لا ندعيها، سأحاول في حدود المسموح لي أن أساعدك.

لم تساعدني كلمات الشيخ، التي بدت عاقلة، على الهدوء أو على تحسين حالتي المزاجية، عندئذ كانت صورته قد بدأت في تلاشٍ تدريجي، خلال سحابات بخور كانت تنسحب عائدة إلى جوف المرآة ! حينذاك ظننت بعقلي جنوناً، فتدنت معنوياتي، حاولت الهروب إلى النوم، وضعت الوسادة على وجهي الملتهب وجفوني المثقلة، حتى صرعني إرهاق يومي الطويل أرضا؛ فلم تمض دقائق حتى نفذ أمر السلطان.

كان الفراش طريا إلى حد الوجع؛ فوهبني نوما مضطربا، كمضجع بظهر موجة لا تهدأ..! تنازعني أضغاث أحلام، وشبح كابوس يصفعني فيوقظني. انتبهت لنفسي، وإذ بي أرقد بوضع غريب في الفراش، ثم شعرت بهواء بارد يلفحني، وبقايا ماء مالح في حلقي، ظننت أن ما أشعر به بسبب فتح نافذة، لكن المفاجأة؛ أني لم أجد أي نافذة، أما زلت نائما، أم أنها عتمة الغرفة التي تلفني؟

تحسست بقدمي موضع نعلي لكني فوجئت ببلل أصاب قدمي، اندهشت... لكني لم أتوقف، أكملت خطواتي لأغلق تلك النافذة اللعينة... لكن أين هي؟ أضللت مكان نافذة غرفتي الوحيدة ؟ الهواء مازال يأتيني شديدا باردا، له صوت غريب، أنصت مسترقا.. دوي تلاطم أمواج، وانكسارها على صخور شاطئها ! وأشتم رائحة البحر بهوائه ويوده، عجيبة...! صرخت منزعجا، لكن الصوت لم يخرج عني، قلت لنفسي: لا بد أنني نائم ! فما يحدث لا يمكن أن يكون سوى حلم ! أو ربما كابوس ثقيل حط على رأسي ! يجب أن أستيقظ تماما وأفيق، لا بد أن أنهض.. أقف، أغلق النافذة، لأتخلص من هذا الهواء السقيم !

تلمست الحائط عند حافة الفراش – بنفاد صبر – ضغطت مفتاح المصباح.. لكن لا ضوء ! أمر غريب.. ! تحسست الطريق، حتى أجد النافذة وأغلقها !

لا أصدق؛ فلا يمكن أن تنتقل النافذة من مكانها ؟ الغرفة هي غرفتي بعينها، فكيف أتوه فيها ؟ لكن فجأة جاءني ضوء شديد، غير متوقع، أفزعني، كان الضوء قويا مبهرا، فأصابني بعمى، وصرت لا أرى شيئا، حينئذ هبت ثانية ريح باردة شديدة اختل لها توازني؛ فسقطت أرضا مغشيا علي !

obeikan.com

« 2 »

لم أدري كم مر علي من وقت، وأنا ملقى على أرض الغرفة فاقدا للوعي..! ثم بدأت أحبو على طريق الإفاقة.. شيئا ما يؤرقني أو يدعوني لليقظة. مشـــاعر متناقضة متلاطمة، أصـــوات وروائح غريبة على المكان..! أوركسترا كونية تعزف سيمفونية أزلية؛ موجة تخرج من رحم البحر، تكبر وتكبر، تجري.. تتعاظم مندفعة لاهثة في رحلة طويلة، ثم تموت منتحرة على شاطئ صخري !

رفعت بصعوبة رأسي مستطلعا، طبيعة المنطقة مختلف تماما عما هو مألوف لي، وأحسب أن قدمي لم تطأه قبل ! كان الطقس يشي باقتراب الشتاء، والشمس في السماء تلوح معلنة أن هذه ساعتي الأخيرة !

مشهد مأسوي لمعركة ساخنة، تدور بين أشباح متنازعة ! الوقت.. ليل، والمكان شاطئ صخري مجهول، ضوء شاهق يأتي من حيث لا مكان، خاطف يشق جلباب السماء الحالك، فيكشف عن عراك سحب ركامية متلاحمة.

غفت مراكب أسطول الإنقاذ، خفت صوتها، ثم مع الفجر تمطى المحيط متجشئا.. خرجت من جوفه إشارات ضعيفة على استحياء، تقول.. إن الصندوق قابع في مكان ما، هناك بعيدا تحت جلده !

حدقت بضجر في مياه المحيط، متابعا حركة أمواج عدائية النزعة ..! تلك التي تتحرك برتابة وروتينية مغيظة، كموظف حكومي بليد، يؤدي عملا لا يحبه.. يؤديه مضطرا، على مضض..!

جلست بصخرة ناتئة بذلك الشاطئ الغريب، ملت إلى الأمام ساندا ذراعي على ركبتي، حاملا براحتي رأسا أثقلها التفكير، وانتبهت فجأة إلى شيء يطفو على سطح الأمواج، ثم يعود ليختفي في أحد الوديان الراقدة خلف تلال الموج!

بدا لي كأنه زعنفة ضخمة لسمكة قرش عملاقة ! خفق القلب خوفا في مكمنه، توقفت وتسمرت قدماي.. اتسعت عيناي، حتى كاد سوادها يقفز من محجره، متفحصًا نقطة غاصت فيها تلك الزعنفة التي رأيت. بصيص ضوء.. لا أدري من أين جاء ؟ سقط على ذلك الذي خلته زعنفة لسمكة، رويدا.. رويدا، عاود الظهور وإذ بها زعنفة ذيل طائرة ضخمة، يعتليها غراب أسود ناعق، كأنه يقف على أطلال لأرض خراب، لكنها سرعان ما اختفت ثانية !

الفكر كالثقوب الكونية السوداء، هوة تبتلع من يوغل فيها، لم ألحظ الوقت، وكم مضى وأنا على هذه الحالة ؟ انتبهت على الليل قد رقد وتمدد، حتى طغى على المكان، عندئذ شعرت بذبذبة عفية غليظة ارتجت لها الصخرة بشدة، لسعتني كالكهرباء، انتفضت... وقفت مكاني مشدوها أبحلق في فراغ من بحر.. ورمال..! ثم شعرت بخفوت الذبذبة، لكنها لم تختف! عاودت الجلوس متحيرا لا أفهم ما يدور حولي، وأمعنت النظر متأملا حركة الأمواج، وهي تأتي واحدة تلو الأخرى، بدت كسلسلة متتالية من طيور بطريق عملاقة، آتية تجاه الشاطئ لكنها تتقزم تدريجيا إلى أن تصل للعدم بحافته.

فجأة إذ بذات الزعنفة، طافية بهدوء على السطح. اختلط علي الأمر أهي مركبة فضائية هبطت من أعلى، أم أنها غواصة آتية من أسفل، أو علها قمة جبل جليدي مصبوغ بلون داكن طافية على سطح الماء، لكن وبعد وهلة تكشف الشيء أكثر، حتى تبين لي أنه صندوق له شكل مختلف، كبير الحجم واسع المساحة، استنتجت أنه هو مصدر الذبذبة التي جاءتني كاهتزاز طائرة حال هبوطها على الأرض، ما لبث الصندوق أن ثبت طافيا على سطح الماء ! تحيرت في الأمر، فالصندوق له هيئة عجيبة، تزيد مساحته عن غرفة استقبال واسعة، لكن أيمكن لغرفة كهذه أن تطفو على وجه الماء...؟ يبدو أن كل شـــيء في هذه الليلة العجيبة أصبح جائزا وممكنا ! لم يمر من الوقت إلا ثوان، ثم لاحظت أن ما يشبه الباب في مقدمة تلك الغرفة، قد انزلق لأعلى كاشفا عن مَخرج خال من كل شيء، لا يتسق وحجم المكان، لكن وبعد مضي دقيقة أو ربما أكثر، ظهر

من خلال فتحة الباب حشد لجماعة، تتأهب للنزول إلى الشاطئ، كانت عيونهم تنظر تجاهي، تعجبت كيف سيعبر هؤلاء إلى حيث أقف، فذلك الشيء الطافي ليس بقريب من الشاطئ !

لم أصدق عيني..! الذَبْذَبات غير المرئية التي استشعرتها، راحت تتحول إلى أمر مرئي، صِراَط ممدود فيما بين الصندوق ورمال الشاطئ، قنطرة من خيط رفيع جدا، حاد جدا يصل بينهما. تحرك الجمع خارج من الصندوق، يتقدمون تجاه الشاطئ، يأتون فرادى، شخص تلو الآخر، على شكل سلسلة بشرية طويلة، تأرجحت القنطرة لشدة الأمواج، لكنهم لم يبالوا.. أكملوا المسير.. عيونهم شاخصة إلى السماء، خطوات ثابتة متساوية تأخذهم إلى الشاطئ، في تجاهي أنا. كان كل منهم يحمل على راحتيه صندوقا صغيرا، ثم اكتشفت أن كلا يحمل قلبا نابضا، لكنه قلب يختلف في اللون والشكل، فهو برتقالي اللون، ذو فم ولسان، قلب ناطق إذن. جاؤوا جميعا إلى الشاطئ، رجالا ونساء، شيوخا ورضعا، شبابا وأطفالا، الجميع بلا استثناء كل يحمل قلبه، ويسير بقامة معتدلة منتصبة، شاخص البصر إلى الأمام، جميعهم – رغم وجود من يحتاج – يسير بلا مساندة أو توكؤٍ على أحد !

اصطفوا رافعين أذرعهم لأعلى، ثم مد كل منهم (صندوقه البرتقالي) قلبه ذا اللسان إلى الأمام، واضعا إياه فوق تلك الصخرة، كان من اللافت أنهم يرتدون زيا موحدا، عباءة بيضاء كما الكفن، تلفهم من الرأس للقدم، بينما أيديهم طليقة تحمل تلك الصناديق العجيبة، ثم راحوا بعد ذلك يجلسون على رمال الشاطئ حول الصخرة، بطريقة جاءت بشكل منظم، كما لو أنهم يحاكون طريقة جلوسهم بتلك الغرفة التي خرجوا منها، وعندئذ اندمجت تلك القلوب، حتى صارت قلبا واحدا كبيرا، ونظروا إلي، بطريقة موحية.. أن أنصت، ثم عادوا ينظرون وهم منصتون، إلى ذلك القلب، الذي بدا وكأنه على أهبة الكلام، نظرت حولي متلفتا لكن وعلى غير المتوقع، نطق القلب البرتقالي الكبير، فكان له صوت هادئ رزين ذو إيقاع منتظم، تحدث إلي كأنه يراني، قائلا:

– اسمع يا أيها المختار – تعجبت من هذا الاسم الذي نعتني به– نحن نعلم أنك تبحث عن الحقيقة، عن قصة من كانوا هناك، لذا قررنا إرسالك خلال أنبوب حكينا الممتد إلى هناك، ترى وتسمع، ستكون هناك في زمن المضارع، قبل نقطة الانقلاب إلى زمن الماضي.

بانت على وجهي علامات الدهشة، لهذا الخطاب العجيب، والخطيب الغريب! حتى أنه لاحظ ذلك، فقال مستأنفا كلامه إلي.

– دعني أيسر عليك الأمر، وأقول لك قبل أي شيء، من أكون؛ أنا خازن الحقيقة، أنا البرتقالي الذي يصمونه بالسواد، رغم أن قلبي بلون الصفحة قبل أن تنقشها الأحبار، بلون نقاء ما أملك من واقع كما وقع، دونما شوائب العنعنة، أختزن الحدث بصورته الأصيلة بلا محسنات أو تعديلات. ولقد قررنا أن نقص عليك حكاية جماعة من سلالة قابيل، حفدة القاتل الأول والأقدم. سأكون لك أيها المختار، كصندوق الدنيا...الحاوي...المالك للقصص والأسرار، على جدراني نقشت حكايات كل من كانوا هناك، وربما...من لم يكونوا..! لدي قصص كل المدن الطائرة، تفاصيلها المعلومة وغير المعلومة. جئنا جميعا نوكلك لتكون لسان حالنا، فبشكل حصري أنت الوحيد القادر على رؤيتنا وسماعنا... أعلم أنك المكلف و المختار. سننقل لك كل القصص التي ترقد في الصدور، أو قل ترقد في صناديقنا الخاصة، تلك التي معنا وستظل من حيث جئنا، وحيث أريد لنا أن نبقى، لقد سقط الحطام فقط إلى الماء، لكننا جميعا بقينا هناك نعيش في بطن تلك السحب العالية البيضاء.

« 3 »

عربة أتوبيس تابعة لشركة نقل سياحي، تقف أمام المدخل الجانبي المخصص لأطقم الطائرات من نزلاء الفندق القديم، الشاغل على ضخامته أحد أهم المربعات السكنية، في قلب حي مانهاتن بمدينة نيويورك. ملامح وجه السائق، وشعره الأسود الكثيف تقول أنه مكسيكي المولد والنشأة، يشير بيده إلى رئيس الطاقم الجوي موجها إليه ببعض الكلمات بلغته الأصلية، يفهم منها شومان الذي تخرج في الجامعة كمرشد سياحي ناطق باللغة الأسبانية، أن الرجل قد أنهى شحن حقائب الطاقم بأكملها، في مخزن العربة الموجود في مؤخرة الأتوبيس.

يضطر الرجل نظرا لارتفاع مخزن الأتوبيس عن مستوى سطح الشارع، لرفع كل حقيبة – يزيد وزن الحقيبة الواحدة، أثناء رحلة العودة إلى ما يربو على ثلاثين كيلوجرام– على حده، منوها للمجهود الكبير الذي بذله في حمل ووضع تلك الحقائب الثقيلة، التي تكون في غالب الظن محشوة بخليط غريب من بضائع يجمعها طاقم الطائرة ممارسا هوايته المفضلة الأولى، رياضة التسوق أيا كان المكان الذي تطأه قدمه. فهم شومان من كلام الرجل أنه يطالب برفع قيمة (البقشيش) الإكرامية التي يحصل عليه من أفراد الطاقم، فجاء رده على الرجل بكلمات قليلة وابتسامة عريضة، تطمئنه أنه سيراعى وزملائه ذلك، عندما يصل الأتوبيس بهم إلى نهاية مشواره معهم، عند مدخل صالة السفر بمطار JFK، المترامي الأطراف.

صعد شومان إلى الأتوبيس، وقف في أول الممر بقامته اللافتة – هو أكبر الموجودين حجما، باستثناء كابتن حسان الطيار الأول وقائد الطائرة – ووجه

الأبيض المستدير المشرب بحمرة تشكك عقل من يراه في أصوله الضاربة في أرض شمال الدلتا السمراء، يمسح عن رأسه الذي انحصر عنها الشعر إلا قليلا منه بلون رمادي هنا وهناك، أثر بعض رذاذ مطر أصابه ببلل، قبل صعوده إلى العربة، ثم مد بصره إلى المقعد الأخير في الحافلة، ذلك الذي تنفرد بالجلوس عليه كل من المضيفتين فجر وعلياء، حيث تجلسان متجاورتين متهامستين، وكأن تجاورهما في موقع العمل داخل كابينة الطائرة يلزمهما بذلك، لكن الحقيقة أنهما صديقتان متلاصقتان حتى في خارج العمل، ولهذا فهما يفضلان دائما تزاملهما خصوصا على الرحلات الممتدة، بل وتتشاركان غرفة نوم واحدة، برغم أن سياسة الشركة، توفر لكل فرد من أعضاء الطاقم غرفة خاصة به، فكل منهما تأنس وتطمئن في وجود الأخرى، حتى أن علياء اضطرت لاختصار أيام الراحة التي أوصى بها الطبيب لتتعافى من ألم آلم بها، لتلحق برحلتهما هذه، فقط من أجل خاطر فجر، وحتى لا تغضب، بعد أن ألحت عليها كثيرا حتى لا تتركها وحيدة، في تلك الرحلة الممتدة.

تابع شومان تفقده لأعضاء مجموعته، بالنظر إلى حيث يجلس عادل أصغر أفراد الطاقم سنا وأقلهم كلاما، كان يجلس منفردا كعادته في المقعد الذي يسبق زميلتيه، منشغلا على ما يبدو بحساب الزمن المتوقع للرحلة، محاولا تخمين ساعة الوصول إلى مطار القاهرة، ومن ثمة إلى بيته وأمه التي تركها على مضض، دون رغبة أرادة حقيقة منه ! يعلم شومان ويقدر مدى انشغال عادل بأمه وبحالتها الصحية غير المستقرة.

بعد ذلك انتقل بصر شومان ناحية المقعد الآخر الموازي لمقعد عادل، إلى مكان جلوس المضيفة شمس والتي كانت تجلس أيضا منفردة، تعبث بحقيبة يدها، ربما تبحث عن شيء ما، قد تكون نظارة القراءة المعلقة بصدرها، دون أن تنتبه إلى ذلك، غالبا تريد مراجعة – ربما للمرة العاشرة– قائمة الاحتياجات التي سجلتها قبل سفرها، لتطمئن أنها قد أحضرت كل ما سجل عليها، من الواضح أنها فقدت نسبة من قدرتها على التركيز خلال رحلتها هذه تحديدا،

فهذه هي المرة الأولى التي تبتعد فيها عن صغيرتها، لم تتخيل حجم المعانة التي عاشتها منذ أن غادرت، فقد اكتشفت أن بعدها عن طفلتها ليس بالأمر الهين عليها، فإحساس الوحشة، وافتقادها لطفلتها اللذان سيطرا عليها، جعلاها تعيش الوقت بمشاعر مضطربة تأخذها، بين سعادة شرائها لكل ما رغبت فيه لصغيرتها الوحيدة، وتعاسة بعدها عن حضنها.

هنا وفي تلك اللحظة وبرغم رمادية غيم يملأ السماء، إلا أن سماء الأتوبيس سطعت بضحكة مجلجلة منعشة كشمس الشتاء، لكنها جاءت على غير توقع من أحد، دارت معظم رؤوس الطاقم واستطالت الأعناق استطلاعا للأمر، التفتوا تجاه مصدر يعرفون جيدا أنه صاحب تلك الضحكة، إلا آدم على الذي ابتسم ابتسامة هادئة دونما يرفع وجهه، وإيزابيل التي أتت برد فعل مغاير عن الآخرين، فقد كانت الوحيدة التي أخفضت رأسها - ربما حياء- لتسببها في حدوث تلك الجلبة من دنيا، بعد أن همست في أذنها بأمر، علها تنسيها بعض من توتر آلم بها !

احتفى كل من في الأتوبيس بما فيهم السائق ابتساما بتلك الضحكة المبهجة، تعرف دنيا بضحكتها التي تشع دائما البهجة فيمن حولها، لكن ليس بالضرورة أن ينم ذلك عن سعادتها، فهي من هؤلاء الذين يضحكون وهم يبكون، ضحكتها كانت كالقرع على علبة صفيح، يعطي ضجيجا من فراغ، فقلب دنيا بعد تعلقها بآدم شق إلى نصفين، نصف حزين باك والآخر سعيد مبتهج !

تأكد شومان ، من وجود كل أفراد طاقمه، فجلس إلى مقعده، وهو يشير بإبهامه اليمنى بعلامة التمام للكابتن حسان القائد، الذي أومأ بدوره شاكرا شومان، ومعطيا الإذن للسائق بالتحرك. لكن شومان عاود الالتفات من جلسته، تجاه الطاقم مشيرا لهم إلى لافتة، علقت على ظهر مقعد السائق، وقال وهو يضحك، لو سمحتم أرجو أن يهتم كل منا بقراءة هذا العبارة جيدا، وهنا بدأ الجميع قراءة عبارة كتبت بلغة إنجليزية واضحة،

تقول«برجاء الانتباه من فضلك، أن كلمة شكرا – أيا كانت لغة نطقها – لا تحتسب ضمن بقشيش السائق » ، ضج الجميع بالضحك عند إدراكهم المعنى المراد، ثم عادوا لهدوئهم، حيث راح كل بطريقته، يحاول التخلص من بعض التوتر المصاحب عادة للبدايات، هم يعلمون بخبرتهم، المجهود الذي ينتظرهم، بناء على تأخر وصول طائرتهم من المحطة السابقة، مما سيتسبب في تأجيل موعد الإقلاع المجدول من مطار JFK إلى القاهرة، أغمض شومان عينيه راكنا رأسه إلى ظهر المقعد، في محاولة للاسترخاء، لكن عقله أبى أن يغمض عينيه، فراح يفكر فيما اشتراه للعروس ابنته، وما إذا كان اختياره، سيروقها أم لا ..!

onbeikan.com

« 4 »

الموانئ شاهد أصيل في الكثير من الحكايات، فهي مكان غالبا ما يشهد مولدا لحكاية أو ربما يكون شاهدا على نهايتها، الميناء أنموذج مصغر للحياة فيه ديمومة لا يؤثر فيها زمن، تجتمع فيه أضداد السعادة والحزن، تختلط فيه دموع الفراق، واللقاء ! كثيرا ما توجد فيه أحرف تشكل كلمات هي مفردات في قصص عجائبية، أو نقاط صغيرة إن تجمعت تخلق صور عبثية حاشدة.

في الميناء وجوه وحقائب صبغت بألوان متباينة، تصنع مشهدا، ساخنا صاخبا.. ساخرا غاضبا، مشهدا ضاحكا باكيا. أناس كثر من كل الأعراق والأجناس والأعمار. غابة قزحية.. كرنفال أزياء.. مهرجان حقائب، غير متناسق الأحجام والأوزان والألوان، حقائب محمولة، وأخرى مجرورة ! إن كُومَتْ صارت هرما رابعا، وإن وزنت فهي أطنان ونيف.

تلك هي الصورة البانورامية لأي نقطة سفر أو وصول، في أي ميناء عبر الزمان، كذلك كانت صورة صالة السفر رقم واحد الكبرى، بمبنى المطار الدولي المسمى باسم الرئيس الأمريكي الراحل «جون إف كيندي»، الواقع على خليج «جمايكا « جنوب غرب مدينة نيويورك، الذي يعد ميناء عالميا، فهو البوابة الشرقية الكبرى للمسافرين جوا، من وإلى الولايات المتحدة الأمريكية.

جمع غفير.. بشر اجتمعوا للرحيل. جماعات غير متجانسة، برغم أن عددًا منهم غير قليل من أصول مصرية. بعضهم مغتربون، والبعض مهاجرون، قلة أمريكية، ثم فرادى من جنسيات مختلفة. جميعهم يتزاحمون، عند نقطة مراجعة الحجوزات والتذاكر، حول موظف شركة طيران مصرية.

صالة السفر في ذلك المطار الشهير، تعج بجلبة.. لغط زاعق يفوق طنين

جماعة نحل بري هائج ! لا يمكن أن تخرج بجملة مفيدة واحدة، من بين كومة من كلمات ملفوظة تسقط هنا وهناك ! على غير توقع من أحد، ارتفع صوت غليظ، تغشوه حشرجة إجهاد، سمع جليا وسط كل هذه الضوضاء ناطقا بكلمتين:

- « هدوء من فضلكم ».

عبارة نطقت بإنجليزية ركيكة، غلفتها لكنة مصرية، تشتهر بالخلط في نطق حرفي آل B،P ! تلاها صمت متعمد، انتظر الرجل هدوء جلبة حاجبة للصوت.

لمعت العيون، التوت الأعناق، وجهت الأذان ناحية مصدر الصوت. حاولت الغالبية من تلك الجمهرة الإنصات، لتلك الرسالة. استخدمت حركات وأشارت، توحي بأهمية استيعاب ما سيعلن. أردف الصوت بعد خفوت نسبي للطنين الحادث، قائلا:

- أمران يجب إخباركم بهما أولا: هناك تأخير يقارب ساعتين عن موعد وصول الطائرة، وهذا يعني تأجيلا لموعد المغادرة.

ثانيا: مقاعد الطائرة محجوزة بالكامل. من لم يؤكد الحجز، أو حضر واسمه على قائمة الانتظار، فليتنحى جانبا. فإن تخلف ركاب أو تم إلغاء سفر أحد الحاجزين، فسنقبل بعدد الأماكن المتاحة، وحسب أولوية الانتظار..

لم يتغير رد الفعل الصادر عن الحشد، لأفضل مما كان قبل الإعلان بل صار إلى الأسوأ ! حيث ترددت كلمات قاسية فجة ! تعبر عن الرفض ونفاد الصبر (oh, Shit !!) لم يتقاعس أي من هذا الجمع عن إعلان تذمره واحتجاجه، على سياسة الشركة المتهمة من عملائها بدوام التخبط والكذب.. عدم الإفصاح عن الحقيقة، وسوء انتظام مواعيد الرحلات حسب جداول زمنية معلنة سلفا !!

في نفس تلك اللحظة، كان الخبر قد قفز بعيدا إلى نقطة أخرى، مكان يبعد آلاف الكيلومترات من موقع الطائرة، هو غرفة عمليات الشركة الأم

بمطار القاهرة، صَفِرَ جهاز الفاكس معلنًا عن وصول رسالة جديدة. تحرك ضابط الترحيل المناوب بهدوء مستفز، استلم البرقية.. رفعها ببطء أمام عينيه متفحصا، لكنه انتفض فجأة كمن لدغه عقرب، تلون وجهه بغضب مكتوم، وضع صورة البرقية أمام مدير الغرفة، بطريقة تنم عن استياء بالغ، فهو يعلم جيدا نتائج هذا التأخير ! سيلقى على كاهله عملاً إضافيا ليس بقليل ! سيعيد ترتيب الكثير من الأمور، فزعق متأففا:

أف.. ! نيويورك متأخرة ساعتين على الأقل، والله أعلم !

تململ مدير غرفة العمليات ذو اللحية الشيباء في مقعده، نفخ دخان سيجارة لا تنطفئ بين أصابعه، ارتشف بقايا فنجان قهوة بارد أمامه ! ثم حك رأسه امتعاضا من مضمون البرقية، فالتأخير موقف غير مريح مثير للإزعاج ليس فقط للركاب، لكن أيضا للعاملين، فبرغم اعتيادهم مثل هذا الأمر السخيف المتكرر، إلا أنهم كثيرا ما يصابون بالارتباك ! الوصول المتأخر، يعني بالضرورة قياما متأخرا لرحلة أو أكثر تالية. جدول عمل الطائرة مشحون برحلات متعاقبة، بينهما فاصل لا يجاوز ساعتين، مساحة زمنية صغيرة تكفي بالكاد لتجهيز الطائرة لرحلة جديدة. ضبط المدير وضع نظارة القراءة المنزلقة على وجهه العابس، الذي قلما يضبط مبتسما، وكيف له أن يبتسم وهو مرغم على الوجود بالمكان، بعد أن فقد رخصة الطيران، بسبب ظروف صحية قاهرة، فبات يحمل لقب طيار سابق، وقال:

مازال الوقت مبكرا... دعنا نتحرك تبعا لبرقية المغادرة من نيويورك، لتحديد ساعة الوصول، عندها سنعرف بالضبط الرحلات المتأثرة..!

تنفس مخرجا زفيرا ساخنا من صدره، وهو يضغط على جانبي جبينه، بأصبعيه الإبهام والوسطى، ويحرك بالأخرى الفنجان الفارغ. ثم قال مستطردا:

– ربك ييسر الحال.

– لكن سيدي.. ألا يجب أن نعلن أمر ذلك التأخير؟

– قلت الوقت مازال مبكرا....

– لكن سيدي ..... !!

– أف.... !!

هذا ما اكتفى بقوله مدير العمليات الجوية – ردا على ضابط الترحيل – ثم عاود الهروب مستجيرا بصمته. حدث ذلك خلال الاقتراب النهائي للطائرة استعدادا للهبوط، بينما الصوت القادم من برج المراقبة الجوية بمطار JFK الدولي، كان جليا في مقصورة القيادة يعلن «Es999 clear to land runway 40left» تصريح بالهبوط. التقط مساعد الطيار الرسالة، وعاود إرسالها، كما تقتضي قواعد الطيران، لتأكيد المعلومة.

المراقبة الجوية هي الجهة المنوط بها تنظيم حركة الطائرات من وإلى المطار، حيث هي من تحدد للطائرة رقم واتجاه الممر، فتبدأ مرحلة الهبوط. كان الوصول الفعلي حينئذ، أصبح متأخرا بقرابة ساعتين عن ذلك المعلن بجدول مواعيد رحلات شركة الطيران. تغير موعد إقلاع الرحلة بطريقة تلقائيا على شاشات «مونتورز» تليفزيونية مضيئة منتشرة في كل قاعات المغادرة المختلفة بالمطار مقرونة بلفظ Delayed*.

دقائق قليلة.. ثم ظهرت في الأفق القريب للعين المجردة طائرة من طراز B.767 *ميزت زعنفتها الرئيسية بشعار صمم على شكل رأس طائر، له ألوان واضحة جلية بين أحمر قان وأصفر فاقع مع لون أزرق زهري. اتخذت الطائرة وهي ما زلت على بعد دقائق من المطار، وضعية الاقتراب النهائي، تأهبا لمصافحة إطاراتها الأرض. بدا منظر الطائرة، في اقترابها من الأرض مهيبا له

---

* وتعني التأخير، وتقرن باسم الطائرة المتأخر قيامها أو وصولها، على لوحات مواعيد االطائرات.

* وهو رمز عالمي لطراز الطائرة بوينج 767.

جلال يشوبه شيء من الرهبة. ظهرت كما لو أنها طائر أسطوري؛ ضخم الحجم عظيم الجناحين فر هاربا من إحدى صفحات كتاب ألف ليلة وليلة، تلاحقه قصص غريبة وحكايات قديمة.

عندما لامست عجلات الطائرة مدرج الهبوط، علا صوتها كانزلاق قوس غليظ على أوتار «كونتر باس» مضخمة مئات المرات، وذلك من جراء احتكاك إطاراتها المطاطية بالسطح الخرساني للمدرج. اندفعت الطائرة بسرعة شديدة تنهب أرض المدرج نهبًا، ثم ارتفع صوت مكابحها الهوائية زاعقة مولولة، وهي تُلجم الطائرة بشكل كبير ملحوظ. تَحَولت الطائرة منحرفة للخروج عن ممر الهبوط الرئيسي بخطه الأبيض العريض المتقطع. واصلت الطائرة تبخترها كتختروان ضخم، متدحرجة منزلقة الهوينى متحرية الالتزام بخط أصفر مرسوم فوق أرضية الممر الفرعي بأرض المطار.

كان الهبوط آنذاك في مطار Jfk، يعني انتهاء الجزء الأول، من رحلة عودة الطائرة القادمة من لوس أنجلس إلى القاهرة مرورا بنيويورك. تناقصت سرعة الطائرة في حركتها على مدرج المطار تدريجيا، حتى اقتربت من نقطة التوقف المحددة لها، بالقرب من بناية المطار، ومضت إشارة كهربائية حمراء في وجه قائدها آمرةً إياه بالتوقف.

سكنت الطائرة في مكانها، ثم جاء صوت الفني من أسفل الطائرة، يقول في كابينة القيادة: Shocks on * كابتن. يتم تحجير إطارات الطائرة بكتل مطاطية صلدة، إشارة لإيقاف المحركات عن الدوران. خفت الصوت، أخذ في التلاشي تدريجيا.. حتى توقفت حركة دوران المحرك، إلى أن دخلت في سبات عميق.

هرول جمع كبير من العاملين، تم حصار الطائرة من كل الاتجاهات.

* مصطلح فني والمقصود به، هو وضع كتل مطاطية، خلف عجلات الطائرة، لتثبيتها.

بعضهم جاء إلى أسفل باطنها العريض ساعيا على قدميه، أو على ظهر عربة، ومنهم من يسوق معدة، وبعض آخر ارتقى إلى داخلها. تضم الصورة مفارقة عجيبة، لحظة خمود حركة الطائرة، هي نفسها لحظة التهاب نشاط من حولها. مشهد قد يأخذك دقائق متأملا فيه...طائر كبير حط محتضنا الأرض في سلام لحظة الانتهاء، التي هي ذاتها لحظة البدء لزحف حثيث.. جحافل نمل وهوام، متباينة مختلفة الأشكال، الأحجام والألوان، كل يحمل في نفسه غرض يضمره.

obeikan.com

« 5 »

عربات كثيرة متعددة، كأنها قافلة سيرك جوال كبير، فيها: فنطاس.. كفيل أفريقي ذي بطن عظيم يتسع لأطنان، له خرطوم غليظ يدفع بالوقود إلى كرش الطائرة، تختزنه ثم تعود وتجتره في رحلتها المنتظرة. خزان الطائرة كبحيرة وقود مجنحة، تطفو في قلب ديناصور طائر. ثم تقف على الناحية الأخرى سلسلة من أفراس النهر، متشابكة متقاطرة.. كحاويات حقائب مسافرة، وأمامهم رافعة كبعير أسيوي ضخم ذي سنم من حقائب مستبدلة، يلقمها إلى فم بلا أسنان كبوابة « باب الفتوح « هو باطن الطائرة. وأيضا هناك عقرب متضخم أسود.. فنطاس ثان، يرفع ذنبه لاستبدال مياه الطائرة.

أما أسفل المقدمة، فيتعلق خفاش منتفخ الرأس صانعا صرخات هي أعمدة دخان، بأرجل متعددة يبث من خلالها تيار كهربائي يسري إلى بدن الطائر الضخم الراقد، كنبضات تبعث في أركانه الحياة. أما ناحية المؤخرة،فقد وقف ذكر زراف مهيب هائل الحجم، يرفع بتؤدة رأسه إلى أعلى، حاملا عليها صندوقا ضخما بحجم غرفة كبيرة استقر قبالة بابها الخلفي، وقد خط على جانبيه كلمة catering*. عربة الإمداد بالأغذية والمشروبات.

– كم وجبة لنا اليوم يا صديقي ؟

سؤال روتيني وجهه أحد أفراد الضيافة، مستطلعا عدد الركاب، الذي يشي به عدد وجبات الطعام التي تعد مسبقا.

* إمداد الطائرة، بما يلزم ركابها وطاقمها من مأكل ومشرب، أثناء الطيران.

كان السَائلُ هو عادل المضيف المنوط، بالعمل في المطبخ الرئيسي الذي يشغل مؤخرة كابينة الركاب. ضحك رجل زنجي أفطس، ضخم الجثة يرتدي رغم برودة الجو بنطالا قصيرا وقميصا مفتوح الصدر، طبع بألوان ساخنة صاخبة كأهل جزر هاواي، برقبته الغليظة سلسلة معدنية ذهبية اللون، حتى بانت أسنانه القوية البيضاء التي لا تتوقف عن دعك قطعة من علكة كعادة سكان تلك البلاد، يرد بصفته مسئول التموين على سؤاله قائلا:

– أووه .. أمامك كثير من العمل يا عزيزي على هذه الرحلة، فالأعداد التي جلبتها؛ تؤكد أن لا يوجد أي مقعد شاغر اليوم.

ابتسم عادل، رغم أن قلقا وانشغالا أطلا من عينيه:

– لا مشكلة أبدا في هذا..! المشكلة في امتداد التأخير، والرحلة التي لا نعرف لها موعدا للانتهاء ! وإن كان لابد لها أن تنتهي على أي وجه، حتى أعود للاطمئنان على أمي المريضة.

علق الرجل الزنجي، مبديا أسفا وتعاطفا إنسانيا، قائلا وهو ينسحب خارجا بعد أن أنهى مهمته:

– آووه.. أسف أنا لمعرفتي ذلك يا صديقي، أرجو أن تجدها في حال أفضل عند عودتك، فالأمهات قيمة كبيرة لا نقدرها إلا عند فقدها ! أتمنى لك رحلة آمنة... انتبه إلى نفسك.

– وأنت أيضا.

قالها وهو يضغط زرا كهربائيا ، بعد أن غادر الرجل إلى عربته، ماسحا عرقا يتساقط غزيرا من جبهته بفوطة وبرية يحتفظ بها في حزام بنطاله، اندفع الباب على إثره منزلقا لأسفل، أحكم عادل إغلاقه بسحب ذراع، مثبتة في إطار الباب.

ينتاب عادل مع كل سفرة له، قلق بالغ على أمه بعد موت والده ! لم يبق لسلوى أي من عائلتها.. انفضوا جميعا عنها قسرا بفعل الموت، أو اختياريا

بالهجرة ! لم يعد لها غير ابنها، هو رجلها الوحيد، وكل ما تملك هذه الأرملة المسنة من ثروة، تمنت لو أن قدرتها المالية كانت كافية بشكل يحقق حلمه بالتأهل للعمل طيارًا.

تخرج عادل في كلية الألسن قسم اللغة الروسية، في وقت انحسار المد الروسي، لم يجد فرصة عمل تتناسب مع مؤهله آنذاك. كان يحلم بتعلم الطيران لزيارة العالم. لكن سقوط والده المباغت في لجة المرض كان كافيا لتأجيل الفكرة، التي قضي عليها نهائيا عندما امتدت فترة المرض، وارتفعت مصاريف العلاج، بشكل أطاح بمدخرات العائلة ! إضافة لزيادة مصاريف دراسة الطيران، بشكل خرج عن نطاق المستطاع.

رفضت سلوى الزواج، رغم احتياجها الشديد في ذلك الوقت وتلك الظروف، التي أحاطت بها وجود من يدعمها معنويا، ويساعدها ماديا لاستكمال رحلة الحياة ورعاية وحيدها. ألغت مجرد مناقشة الفكرة، حتى لا تأتي لعادل، بزوج أم قد يكون غير رحيم بيتمه ووحدته. إعلان لشركة طيران، عن حاجتها لشباب من حملة المؤهلات العليا، يجيدون التحدث باللغة الإنجليزية، مع الأفضلية لوجود لغة أجنبية ثانية، لتأهيلهم للعمل مضيفين جويين، وجد عادل في الإعلان ما يحقق شيئا من حلمه القديم. قال لأمه وهو يضاحكها:

– لا بأس.. هذه المهنة منحتني نصف جناح، ونصف الحلم، بعد أن أبت الظروف أن أحقق حلمي بجناح كامل..!

صبرت.. عانت كثيرا حتى وقف وحيدها على قدميه وتولى عنها المسئولية. هو الآن يعمل جهده ليكون ابنا بارا، يحاول أن يعوضها قليلا عما عانته، لكن أشد ما يوجعه هي طبيعة عمل، يضطره في أغلب الأوقات لتركها وحيدة ! حين تكون في مسيس الحاجة لوجوده جوارها.

مع بداية الأسبوع، وعند اطلاعه على جدول عمله نصف الشهري، حزن لتكليفه بهذه الرحلة الطويلة ! حاول التخلص منها، واستبدالها مع أي من

الزملاء، بأخرى لا تضطره للبقاء بعيدا ! ليس له رغبة في القيام برحلة تستبقيه – قسرا – بعيدا عنها، وهي في حالة صحية غير مستقرة.

صراعا يعيشه.. بين وجوب بقائه قريبا، وحاجته لبدل نقدي يأتيه في مثل تلك الرحلات، لسداد مديونيته الخاصة ! شجعته سلوى على الذهاب، عله ينتهي من أقساط شقة يخطط للانتقال إليها. يسعى لإنفاذ فكرة الزواج التي تلح عليه بها أمه. أصبحت الشقة على طريق التحقق، مساحة واسعة، ثلاث غرف للنوم كافية لإقامة أمه الدائمة معه. شرط أساسي وربما الوحيد في العروس.. أن تقبل بوجود أمه، قبل أي شيء آخر، هو المسئول الأول والأخير عنها الآن.

obeikan.com

« 6 »

فى أثناء ذلك وفي صالة المغادرين المخصصة لأكثر من شركة طيران، كان الإعلان عن تأخير موعد أقلاع الطائرة المصرية سببا كافيا لإثارة غضب وضيق كل من ارتبط بشكل أو آخر بهذه الرحلة، فمن جاء رفيقا للمساعدة أو للوداع، وقع في حرج انتظار غير مرغوب ! أما من كان منهم على سفر، فلم يكن الضيق أو الغضب فقط هو كل ما آلم بهم، لكن ارتباكا شديدا في المواعيد، يؤدي للتعديل وربما إلغاء ما قد رتب له من قبل، وهذا أمر ليس بهين؛ مما أثار حفيظة البعض.. ! فوقعت جلبة.. اعتراض صاخب.. هرج ومرج رافض، لا يقل توترا وازدحاما عما يحدث على رصيف قطار الصعيد، حتى أن الاختلاف بين مشهدي رصيف القطار وصالة السفر بالمطار، انحصر فقط في شكل البناء وتفصيلاته الداخلية، أما من حيث اختلاف الأزياء فكان قليلا، لكن ما تحمله الأيدي، مع ما اشتهر به المصريون بكثرة ما يحملون، فقد قارب حد التطابق !.

«مدير محطة الشركة » يكون دائما هو المسئول الأول عن الطائرة، طالما كانت على الأرض، وأبوابها مازالت مفتوحة. ظهر رجل مصري الملامح، أمام « كونتر» الشركة المصرية في صالة سفر مطارJfk، يرتدي حلة بنية بلون بشرته ! تتدلى من رقبته ربطة عنق – مهملة الربط – بلون بذلته، تبدو على ملامحه بوضوح علامات ضغط عصبي كبير! نعم كان هذا هو ناظر المحطة، أو كما تقول لافتة علقت على باب مكتبه في بناية المطار مدير المحطة. تحلق حول الرجل جمع كبير فيما يشبه الدائرة.

كلمات متناثرة.. مفهومة ومبهمة، استفسارات كثيرة منها الذكي ومنها الساذج، يقذف بها الرجل من كل اتجاه..! عليه وحده أن يصد أو يرد ! أسئلة مستفزة.. ناقمة، أخرى غبية مكررة ! لكن مهارة وحنكة الرجل لم تخنه، أجاب

بما لا يخلو من هدوء، ظن البعض أنه قد غاب عنه، نتيجة لحالة توتر عصبي يعيشها الركاب، ولتأجيل موعد الإقلاع، دونما سبب معلن يفسر ما يحدث !

جاء رد الفعل المحبط في شكل نكات ساخرة، وتعليقات لاذعة: شركة مراجيح ! طائرات ورق ! أهناك طائرة بالفعل أم أنها أكذوبة ؟! متى – إن كانت – ستقلع !؟ أتصل للقاهرة، أم أن هذا خارج عن قدرتكم ؟ ماذا عن الركاب « ترانزيت » العابرين، أنلحق بطائرتنا التالية ؟ أهناك عطل بالطائرة ؟ هل تم الإصلاح ؟ أريد إلغاء سفري ! ظهر بين كل هذا صوت عالٍ غاضب، ركاب يقول:

– لا طمأنينة للسفر معكم ! لا فائدة أيضا من سفر، بعد كل هذا التأخير ! سأصل بعد افتتاح المؤتمر، ولن ألقي بكلمة أرهقت نفسي في إعدادها..!

وقف مدير المحطة في منتصف حلقة صنعها هؤلاء الغاضبون ورفاقهم، لا أحد يريد منحه فرصة الرد على ما وجه إليه من كلام أو أسئلة ! رفع يده مطالبا ببعض الهدوء، باذلا جهدا كبيرا ليصل صوته إلى كل أفراد هذا الحشد، خرج صوته مرهقا مشروخا متوترا:

– يا سادة.. لو سمحتم، أعطوني فرصة لأرد على استفساراتكم.. أرجوكم .. استمعوا لي، سأريحكم جميعا.. تأجيل موعد الإقلاع نتيجة وصول الطائرة متأخرة من المحطة السابقة، والتأخير هناك كان نتيجة عطل بسيط خارج عن الإرادة، قد تم إصلاحه، حمدًا لله، هذا هو أولا.

« 7 »

قبل عدة ساعات مما يحدث وقتئذ في مطار نيويورك، كانت الطائرة آنذاك تقف على أرض مطار Lax بالساحل الغربي للولايات المتحدة، وحدث أن اكتشف خلل بسيط، أصاب حاسوب الطائرة المصرية، ظهر العطل أثناء فترة التوقف والتجهيز لرحلة العودة من لوس إلى القاهرة، عن طريق نيويورك، عطل يصنف على أنه بسيط ، يسهل إصلاحه، على حد تعبير الفني المختص، لكن إدارة السلامة والجودة التابعة لهيئة FAA * الأمريكية، اتخذت من العطل ذريعة لأجراء عملية تفتيش مفاجئ على الطائرة.

تحير قائد الرحلة ومساعده آنذاك في فهم طبيعة ما يتعرضون له أثناء فترة توقفهم في مطار لوس أنجلس. فقد كان التقرير الوارد من مهندس الصيانة المسئول بالمطار، يصف العطل بأنه ثانوي، وأنه سوف يتم التعامل معه، وإنهائه على وجه السرعة، وخلال دقائق أعلن طاقم الصيانة، أن السبب وراء الخلل الذي أصاب الحاسب الآلي للطائرة، هو بفعل الأجواء المترية التي يتميز بها جو القاهرة، حيث أثر ذلك سلبا إحدى رقائق الحاسوب الحساسة، بعد أن شكلت الأتربة طبقة عازلة فاضطرب عمل والوحدة بأكملها ! وكان المطلوب – فقط – إزالة بعض ذرات أتربة علقت بتلك الشريحة الحساسة، ثم إعادة توصيلها ثانية، لتعود لأدائها الطبيعي.

كان الوقت المتوقع لإنجاز هذا، لا يتجاوز حدود جدول الرحلة الزمني، أي أن الإصلاح يبدأ وينتهي قبل نفاد الساعة المخصصة لتجهيز الطائرة، بل

* الهيئة القومي للطيران المدني الأمريكي.

والانتهاء في نفس الآن، من صعود الركاب الذي لم يكن عددهم كبيرا في هذا الجزء من الرحلة، لكن ما جرى على أرض الواقع كان مخالفاً لكل التوقعات، فتولد ذلك التأخير غير المتوقع !

التفتيش فنيا على الطائرة من الأمور المعتادة، والمتوقعة من آن لآخر، ويتوقع أن يحدث في أي مطار على أي طائرة، دون إنذار مسبق، وهذا أمر لا يسبب أي إزعاج، لكن الإزعاج هنا جاء من أسلوب فريق التفتيش، الذي قام بشكل تعسفي بمراجعة سجل الأعطال الفنية للطائرة.. شهادات صلاحية.. معدات الطوارئ الموزعة بين كابينتي القيادة والركاب، ومدى صلاحيتها للاستخدام. ثم الإصرار غير المبرر من كبيرهم، على منع تموين الطائرة بالوقود - عمل روتيني يحتاج لوقت غير قصير- أثناء تواجدهم، وهنا تكمن شبهة التباطؤ المتعمد الذي رسم علامات استفهام وتعجب على ما قاموا به من إجراءات !.

كان ضابط الحركة ممثل الشركة في مطار لوس أنجلوس، وهو أمريكي مصري الأصل، في حالة توتر وقلق سيطرا على لغته اللسانية والبدنية، متعجبا رافضا التأخير الحادث لأسباب غير منطقية - حسب رؤيته الخاصة - فقال معقبا، في حديثه مع طاقم القيادة:

- أفهم أن من حقهم التفتيش والتأكد من صلاحية كل شيء متعلق بالطائرة، لكن ما لا أفهمه أن يتعمدوا تأخير الرحلة بهذا الشكل المستفز الملغز..!!

رد كابتن الطائرة على كلامه بهدوء رجل فاهم مقدر ما له وما عليه:

- ما تقوله صحيح يا صديقي؛ لكننا لا نملك حق الاعتراض، فنحن على أرضهم وهذه هي قوانينهم ولا نملك إلا الامتثال لها.

قال الرجل وهو مازال مصرا على رفضه للأسلوب المتبع معهم:

- صحيح أني أمريكي، لكني متفتح أستطيع التمييز بين سلوك طبيعي، وبين سلوك عنصري النزعة، وأنا أشتم وراء عملية التفتيش هذه رائحة تعسف

وعنصرية، ولا أستبعد أن يكون رئيس اللجنة صهيونيا متشددا، وإن لم يكن يهوديا، فالعنصرية متجذرة في نفوس البعض هنا، حتى أنهم يكونون أحيانا، ملكيين أكثر من الملك..!!

– أنت بهذا تلمح بأن ما يحدث هو عمل عدائي مقصود به الإساءة، رغم أننا لا نملك دليلا !

قال قائد الطائرة، ردا على مقولة ضابط الحركة، التي بدت عليه علامات التذمر من التأخير الحادث، مستدركا:

– الإحساس بالحب و الكراهية نشعر به دونما الحاجة لبرهان ! الصهيونية والعنصرية وجهان لعملة واحدة،وهؤلاء لن يتراجعوا أبدا عن كراهية الآخر مهما أدعوا عكس ذلك !

obeikan.com

« 8 »

مطار « جون. إف. كيندي » وفي صالة السفر رقم واحد، وحيث يقع كونتر السفر للشركة المصرية، كان مدير المحطة يواصل حديثة إلى الركاب، في محاولة منه لشرح آخر تطورات الموقف، كنوع من التهدئة، قائلا:

– ثانيا.. هناك محاولة جادة نقوم بها الآن لتجهيز الطائرة بأسرع ما يمكن للتقليل من الوقت الضائع، وفور الانتهاء وتمام استعداد الكابينة لاستقبالكم، سنسمح لكم ببدء عملية الصعود. أخيرا: بالنسبة للسادة الركاب الترانزيت، فمن لن يتمكن من اللحاق برحلته التالية ! سوف يخير بين: تحويل سفره إلى أول رحلة متاحة، مع أي شركة أخرى، وإما الانتظار للرحلة التالية – أيهما أقرب– وطبعا شركتنا متكفلة بتكاليف الإقامة الكاملة، حتى موعد السفر الجديد (صمت هنيهة).. ثم أردف: فيه أي أسئلة أخرى؟

عَلت مجددا همهمة رافضة غاضبة من وسط الركاب، كان هناك صوت غير راض... غير مقتنع، بما قاله ممثل الشركة، فعلق على ما سمعه، بحدة ساخرا:

– هذا سلوك شركات المراجيح، لا شركات طيران محترمة ! هذا هو حالكم أبدا..! فهذه ليست الأولى..! دائما تتعللون بظروف خارجة عن إرادتكم ! لكن عن أي إرادة تتحدثون ؟ وهل كان لكم يوما إرادة أنتم حتى لا تملكون شجاعة أدبية لتعلنوا مسؤوليتكم وتتحملوا تبعاتها ! لكن هيهات ! فحالكم من حال بلادكم، نظاما وحكاما..!! نظاما كاذبا على رأسه ديكتاتور أكذب..!

كانت تلك هي الصورة التي انطبعت لدى العالم عن النظام الحاكم في مصر، الذي يرأسه حسني مبارك آنذاك، صورته التي علقت بأذهان الغرب منذ حادثة

اختطاف السفينة « أكيلي لاورو» كما نعته حينها الرئيس الأمريكي.. رونالد ريجان. علا طنين جدلي بين جماعة الركاب، بين مؤيد لما قاله الراكب الغاضب، وآخر معارض، لكن المشادة أنهاها الراكب الأمريكي، الذي يبدو أنه ينحدر من أصل عربي، وهو مازال يزعق بموقفه، مؤكدا بإصرار على كل مقال:

– أريد إلغاء سفري، ومن الآن وصاعدا فلا تعامل لي مع شركة لا يحكمها إلا الكذب..!

جاء رد فعل مدير المحطة متناسقا تماما مع خبرته الطويلة، ومناسبا جدا كرد على صلف هذا الرجل، وبشكل سريع حاسم. كأنه كان متوقعا لمثل هذا السيناريو، حيث أنه لم يعلق بأي كلمة أضافية، لكنه تناول بهدوء بطاقة صعود الراكب للطائرة، وأمر مساعده بإنزال حقائب الرجل، مع قبول أول اسم على قائمة الانتظار الطويلة.

مقعد خال.. نتج عن إلغاء سفر الراكب، تكالبت جماعة لتلقف هذا المقعد، لكن المدير حسم الأمر.. أحقية الحصول عليه تذهب لأول اسم على قائمة الانتظار، وإن لم يكن مناسبا فالذى يليه. المقعد إذن من نصيب تلك المرأة التي لم تتوقف عن النحيب منذ وصولها إلى نقطة تجمع الركاب أمام « كونتر» الشركة بصالة السفر، والذي كان خبر عدم وجود مقاعد شاغر على الطائرة، بمثابة صدمة موجعة وجهت إلى قلب « فيفيان» التي كانت تبكي كطفلة تائهة حائرة، تتوسل بدموع لا تتوقف لتلحق بهذه الرحلة، كانت تلح في طلب فرصة، تقول إنها قد تكون الأخيرة كي تتمكن من رؤية أمها. تتمنى فيفيان دقائق ولو قليلة تقضيها إلى جوار أمها قبل أن ترحل، تود لو استطاعت أن تفعل ما كانت تفعله أمها معها في طفولتها.

« 9 »

في نفس الأثناء، بالتزامن مع ما يدور هنا في صالة السفر، كان هناك مشهد آخر، تدور أحداثه داخل الطائرة، في مقصورة القيادة، تلك الغرفة الضيقة القابعة في أقصى مقدمة الطائرة. حيث كان قائدا المرحلة الثانية من الرحـــــلة – مقطع عبور المحيط – قد احتل كل مكانه المحدد بعد أن تسلما خطة الطيران. الكابتن..القائد المسئول الأول عن الطائرة وسلامتها، يجلس على يسار المقصورة، بينما يجلس على يمينه مساعده الأول، والطيار الثاني على الطائرة.

انهماك واضح على وجهي القائد ومساعده، انشغال وتركيز، انكفئا كلاهما على غابة من مفاتيح وعدادات وشاشات متباينة الأشكال والأحجام والألوان، كأنهما باحثان في معمل انكبا على أبحاثهما العلمية الجادة، يكاد لا يتلفت أحدهما للآخر. القائد يعمل على تغير وضع بعض المفاتيح، وتعديل بعض الأرقام. بينما المساعد يجمع معلومات من خطة الطيران ويسجلها ويخزنها على الذاكرة الصناعية لجهاز يبدو شكله كالحاسب الآلي، يقبع في منتصف المسافة الفاصلة بينهما.

رفع المساعد وجهه إلى الكابتن القائد قائلا:

– ألم تنتبه إلى شيء غير عادي في خط السير المقدم لنا ؟

لكن القائد لم يرفع وجهه بدوره عما ينشغل به، فقط نظر بطرف عينه نحو المساعد مستفسرا:

– وما هذا غير العادي في نظرك ؟

جاء رد المساعد بعد أن التفت ناحيته بشكل كامل وقال:

– خط السير المقترح منهم ..! هذا الممر الجوي.. غير ما نسلكه عادة ! الممر المقترح سيرسلنا بعيدا عن الخط الملاحي المعتاد، بحساب الزمن.. خمسة وأربعين دقيقة تقريبا، هذا تأخير إضافي لا حاجة لنا به !.

– ما الجديد؟

رد القائد بنبرة هادئة واثقة، بينما يداه وعيناه لم تتوقفا عن الحركة. ثم استطرد، مستكملا ما بدأ:

– هذا أمر منطقي ومتوقع.. ساعتان تأخير عن الموعد المجدول..! بديهي أن يحدث تعديل يؤدي إلى نوع من الاختلاف، حتى وإن تصادف أن يرسلنا بعيدا عن خطنا المعتاد.

لم يعلق المساعد العجوز على ما ساقه الكابتن من مبررات تقول بتوقع تعديل خط السير، فهو نتيجة منطقية لتأخر موعد عبور الطائرة لهذه المنطقة. هو يعلم ويعي جيدا ما قاله الكابتن، خبرته العملية تحصى بآلاف الساعات، وعبوره للأطلنطي يعد بالمئات، فجمال طيار قديم قطع كل خطوط طول الكرة الأرضية، بالقدر الكافي الذي يمكنه من التنبؤ بذلك، لكن لسبب ما، هو غير مرتاح لذلك ! شك يوسوس له ويساوره رغما عنه، جعله يشعر بالقلق تجاه الأمر برمته !

تساؤلات كثيرة تدور وتتقافز في عقل جمال الشكاك بطبعه: لماذا يرسلوننا بعيدا عن خط السير المعتاد.!؟ أهناك مناورات في المنطقة ؟ أهناك قواعد عسكرية يمنع التحليق فوقها في أوقات بعينها ؟ أتكون عوامل جوية غير مواتية متوقعة ؟ لكن تقرير الأرصاد الذي قدموه لنا ليس به أي توقعات تجبرنا على هذا الفعل ! ما السبب وراء كل ذلك إذن !؟.

مفارقة واضحة في الشكل والحجم تبدو للناظر من الوهلة الأولى كصور الكاريكاتير، القائد كابتن الطائرة ضخم الجثة طويل القامة، بالنسبة لقصر وقلة حجم مساعده، تبدو الصورة كما لو أنه أمر ضروري للعمل ! كان هذا رغم

التناقض العكسي في السن مقارنة بحجم الجسم ! عادة ما يكون المساعد أصغر سنا من قائده، إلا أنه اليوم هو الأكبر سنا، هذه هي رحلته الأخيرة في عالم الطيران، سيبلغ سن التقاعد يوم عودته، ووصوله لمطار القاهرة.

جسد صغير الحجم، له شكل لا يَشي بكبر السن، هو بذلك استثناء للقاعدة. جمال الطيار والإنسان له قصة مختلفة، فبعد أن خدم بالقوات الجوية لمدة زمنية محددة سرح بعدها، منتقلا في العمل، كطيار مدرب للمبتدئين، وذلك لسنوات طويلة، بمدرسة طيران مدني شهيرة آنذاك، ثم التحاقه بالعمل كمساعد طيار في شركة الطيران، التي رفضت، طلبا تقدم به لإضافة ساعات طيرانه العسكري، ليفي بالحد الأدنى لعدد ساعات طيران محددة، كشرط أساسي، لعملية الترقي من طيار مساعد لطيار قائد..!!

سكنت حلق جمال الإنسان غصة لا تبرح ! جاءت يوم وجعه الأكبر..! يوم أن حقق شرط ساعات الطيران اللازمة لترقيته إلى قائد..! فحالت اللوائح الإدارية بينه وبين حلمه، قواعد بيروقراطية عقيمة سدت عليه طريق تحقيق ذاته ! سنوات عمر جمال المتجاوزة آنذاك كانت العامل الفارق، فالقانون يشترط أن لا يتخطى عمر المترقي سن محددة:

– آه يا زمن جاحد..! حظ قليل.. عمر كبير.. لوائح متآمرة..!

قالها وهو ينعي حظه السيئ، عثرات كثيرة أعاقت انتقاله إلى المقعد الحلم له، المقعد الأيسر، الذي لا يشغله إلا الكابتن القائد، على الطائرة..!

إحساس بالظلم والاضطهاد رقد تحت جوانحه، شعور بالاغتراب يتلبسه، يعلم أنه أكبر من مقعده هذا، على يقين أنه يجلس في المقعد الخطأ، فوضعه الصحيح هناك إلى اليسار! كان إحساسه هذا يتعاظم في تلك الأيام، باطراد ملحوظ، حيث يقترب يوم مولده الذي يأتيه هذه المرة بمقعد التقاعد المتهالك !

كم يكره هذا الاسم.. متقاعد... «ما..عاش» (هكذا يحسها) مرحلة

عمرية حرجة، يقع البعض عندئذ فريسة لاضطراب المشاعر، إحساس بفقد القيمة، قد يدفعك اختياريا إلى طريق الاكتئاب، أو يدفعك إلى ردود أفعال حادة مغايرة للطبيعة الشخصية. شبح الانخفاض الشديد في الدخل، يصيب عامة المتقاعدين، لكنه يكون أعظم بالنسبة لهؤلاء الذين تتعاظم دخلوهم، من بدلات خاصة، لا تدخل ضمن راتب أساسي، يحسب عليه المعاش ! خوفا من اهتزاز مستوى معيشة اعتادوه ! الموقف أكثر تعقيدا، وأشد ارتباكا، لرجل لا يحب فكرة الادخار! عرف جمال بين أقرانه بالإسراف، وحب الاستمتاع بالحياة، تواق للمغامرة.. للحب.. للرومانسية !

مضى عام تقريبا منذ اندفع جمال في علاقته مع روزا «مدربة رياضية» التقاها في صالة الجمانزيوم الملحقة بالفندق، حيث يقيم طاقم الطائرة عند بقائه في المدينة.

روزا..عاقصة شعرها، ترتدي زي التدريب، تقفز في كل الاتجاهات، تجلس القرفصاء، ثم تقفز مفرودة كرمح يشق الفضاء، فرس بري يرمح بعافية، يصول نافثا الحيوية والنشاط فيمن حوله، إن لمحتها بعد انتهاء فصل التدريب في زيها العصري، وأسعدك الحظ فشممت أريج عطرها الفرنسي، وشاهدت مفردات شعرها الأسود يسترسل في جُمَلٍ من شعر بليغ، أبياته تفيض أنوثة ناعمة فاتنة، عندئذ تدرك أنك تقرأ قصيدة، من أبدع ما خط في السحر الأنثوي. شابة جميلة حلوة الملامح رشيقة القوام، وجه صبوح بشوش، مبتسمة الثغر بشكل لافت، دون أي مساحيق ملونة، تبدو دائما كوردة ندية غنية بألوان الطبيعة. يجمع رواد المكان على حب روزا فهي تتحدث إليهم بأسلوب رقيق لكنه حازم، هي قريبة من الجميع لكن أبدا ما تُسقط المسافات، خبيرة بفن التعامل الإنساني، متخصصة بالعلاقات العامة.

انتبه إلى نفسه.. إذا به اعتاد رؤيتها، يهتم لأمرها بشكل غير عادي، ينتظر بلهفة موعد فصلها التدريبي، يشتاقها.. يتباطأ عند المغادرة حتى يلتقيها..

يختلق أسئلة ليستوقفها، لم يكن صعب عليه أن يفتحَ حوارا أو ينشئ حديثا معها. ليس من العسير التحدث إلى روزا... مثلها من أصحاب الفكر المتنور، والشخصية المتفتحة، يكونون جاذبين لمن في دائرتهم، هي تجيد الحوار مع الأخر، وتعرف كيف توجه الحديث إلى الطرق الآمنة.

أحس بميل شديد لها، تطورت علاقتهما بسرعة، أحبها؛ اندهشت عندما عرض عليها أثناء عشائهما الأول، فكرة الزواج، قالت مبتسمة:

- كيف.. ؟ نحن لم نتعرف إلى بعض بقدر يسمح بمثل هذه الفكرة.

قاطعها قائلا بصورة مختزلة:

- إن خبرتي الحياتية، ودرايتي بالناس كافية لأعرف الخبيث من الطيب، كما أني أطمئن لأحاسيسي وأثق بحكم قلبي، ولا يمكنني التعرف إليك بشكل أفضل أو أكثر دون معاشرة، وهذا لن يتأتى لنا إلا بعقد زواج.

تعجبت روزا من سلوكه المختلف، لم تستطع أن تخفي إعجابها وتعلقها به كإنسان رقيق الحاشية، كريم الأخلاق، لم تر منه إلا كل ما يرضي المرأة. ترددت قليلا؛ طلبت منه أن يمنحها فرصة للتفكير لاتخاذ قرار. بعد وهلة اكتشفت حقيقة مشاعرها.. هي لم تقع بغرامه؛ لكنها سعيدة بعرضه. هو مختلف عن الآخرين.. تعامل معها بشكل لائق احترمها كإنسان، لم يفكر فيها على طريقة الذكر والأنثى، تأكدت أنه لا يسعى لإقامة علاقة سريعة قصيرة. روزا الآن تحمل اسمه في جواز سفرها، وتحمل طفلة في أحشائها، يكاد أن يتزامن خروجه إلى الدنيا، مع خروجه إلى التقاعد. دون إرادة منه يفكر مهموما في غد هذا الطفل المرتقب، ناموس الحياة وسنه الكبير يقولان إن الطفل ربما شب يتيما !

شعور متناقض يتخبطه.. فرحة بحمل روزا الذي جعله يسترد إحساسه بشباب ذهب وولى، وندم يوجعه وهو يتذكر، غضبا مكتوما، يراه بعيني أم أولاده ! التي قالت له يوما بالحرف:

- لم يعد عندي ما أعطيه لك !

لا يحب إغضابها، لكنه لا يرى في زواجه من روزا ما يغضبها، أو يقلل من قيمتها أو يزعزع مركزها كأساس للأسرة، فهو يقدر تماما دورها الهام التي قامت به كاملا في حياته، تحملته.. تغاضت كثيرا عن هفواته، ودائما ما كانت تبرر أفعاله، لتصبر حالها: إن حاله كحال كل الرجال..! لكنها في هذه المرة، غاضبة بشدة، لم تبح بشيء، لم تعقب عندما نُقل إليها خبر زواجه ! صمتها يزعجه، يتمنى لو أنها صاحت به تشاجرت معه، فعلت أي شيء غير الصمت ! فهي حتى اللحظة لم تستطع أن تنسى أو تغفر فعله ! برغم أنه يعتقد أنها لو فقط فكرت في الأمر بموضوعية، متخلية عن تفكيرها في الذات التي باتت تبخل بها عليه، لاكتشفت أن فعله أكبر دليل على صلاحه، فعندما عشق قلبه وهو أمر خرج عن يده، لم يترك نفسه لفعل الحرام، لكنه لجأ للسلوك القويم، الزواج الشـــرعي. وليقينه من كونها امرأة طيبة صالحة بينها وبين الخالق عمار- هكذا يذكرها دائما- ستغفر له.

فكر منشغل، مشاعر قلقة..هياج عاطفي، جيشان وجدان..! عُطل وعطلة، تأخير أصاب جدول توقيتات تحركاتهم بخلل، غير خط سير الرحلة..! عوامل وظروف كثيرة تجمعت في تلك اللحظة على نحو سخيف ضاغط فأصيب الرجل بحالة من الملل والانزعاج !

« 10 »

تذكرت طفولتها؛ استغرقتها حالة من شجن، وهي ترى أمها تجلس على حافة سريرها محتضنة بيد، كفها الصغير، وتمسح بالأخرى على شعرها. يتمزق داخلها يعتصر قلبها الأمل والندم - محاسبة الذات تكون أقسى أحيانا من محاسبة الآخر- تستنكر فيفيان على نفسها سلوك يتسم بالأنانية والسلبية، برود وعدم مبالاة، تجاه أمها..! تعنف نسفها، في حوار داخلي: كيف تحولت إلى شخصية متبلدة جاحدة، أهذا هو أنا ؟ أهكذا أصبحت..! بعد كل ما قدمته أمي الطيبة الحنون، لا أكون في النهاية إلا ابنة عاقة..! أستحق العقاب، بل أستأهل الموت. عندئذ لم تر نفسها إلا كمن جاء ذكره في آية إنجيلية « فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت» بينما كانت صورة أمها الذهنية هي تلك المرأة التي قال عنها الكتاب المقدس «امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلىء ».

ها هي أمها باتت على وشك الذهاب في سفر إجباري، ذهاب فقط بلا عودة ! هكذا جاءت الأخبار من مركز النخيلة محافظة أسيوط، حيث مسقط رأس دكتورة: فيفيان ألبرت، كلمات مقتضبة: الأم على فراش المرض؛ حالة صحية حرجة. لم تستسلم هذه المرة إلى الظروف، جاءت إلى المطار يراودها أمل أن يحالفها الحظ، فتجد مقعدا يسمح بسفرها على هذه الرحلة. لقد حصلت على تذكرة مؤكدة الحجز لولدها، كان المقعد الأخير المتاح على الطائرة، فجاءت تذكرتها على قائمة الانتظار، قالوا لا ضمان لمقعد لها، إلا إذا ألغى حجز أحد الركاب ! وهاهو المشهد الآن يؤكد مقولتهم ! زحام شديد وجمع غفير.. لا يعني ذلك إلا شيئا واحدا... حضور كل المسافرين، معضلة كبيرة ! إن لم يعتذر أحد، أولم يتخلف أحد عن السفر. غمغمت في صدرها:

– ساعديني يا أم النور.

جلست على حقيبتها، في جوار مكتب الشركة المصرية بصالة السفر، والدموع تغسل وجهها الأسمر، الذي اكتسى بمسحة من حزن ووجع، أثارت حالة من تعاطف ملأت صدور من حولها، لكن الموقف حرج ومحرج، فمن ذا الذي يملك حل مشكلتها، توفير مقعد على طائرة مكتملة العدد ! تتابع فيفيان بنصف عين مشادة كلامية اشتعلت على مرأى منها بين أحد المسافرين ومدير المحطة، ربما تحدث المفاجأة، عل المسافر يحتد ويلغي سفره، مقعد واحد فقط، دستة شمع يا مار جرجس !

اغرورقت عينيها بالدموع، خنقها البكاء، وهي تهمس لنفسها: لن أتمكن من الذهاب الليلة ! إنها الفرصة الأخيرة وها هي تضيع..! وقعت فيفيان تحت وطأة وسيطرة هذا الهاجس عليها، فقدت الأمل، انعدمت أمام عينيها فرصة اللحاق بالطائرة الوحيدة المباشرة الليلة ! أنستها كل الظروف المحيطة أولويتها على قائمة الانتظار، ووجود بطاقة في يدها بمقعد لصغيرها ! غامت الرؤية.. دار المكان..! سقطت مغشيا عليها. أسقط في يد الصغير الذي لا يكاد يفقه معنى كل ما يدور حوله، فبكى خوفا وارتباكا..!

مرت دقائق... بدأت فيفيان تستعيد وعيا زائغا، أفاقت.. انتبهت بعد أن رشت أحدهن وجهها، ببعض من ماء الكولونيا. احتضنت ابنها إلى صدرها.. مازالت تبكي، وهي تلوم نفسها والظروف: كيف لا أراها ؟

إن ماتت ! كيف لا أكون في وداعها الأخير؟ أمي التي باتت تحلم برؤية ابنة تبلدت أحاسيسها ! حفيد انتظرت بصبر أيوبي رؤيته، لتسعد بضمه إلى صدرها، وإن كان ذلك للحظات قليلة متبقية.

عودة فيفيان إلى الوطن، إلى أسيوط مقر جامعتها التي أوفدتها للحصول على درجة الدكتوراه في علوم الاقتصاد، حانت منذ سنوات مضت، بعد أنهت دراستها، وحصلت على الدرجة العلمية. لكن ظهور سمير في حياتها،

ووقوعها تحت تأثير شخصيته القوية، كان بداية لمسلسل تأجيل العودة. أقنعها باغتنام الفرصة الجيدة التي لاحت، عمل أكاديمي في نفس الجامعة التي منحتها درجة الدكتوراه. فرصة حسب تصور سمير؛ يحلم بها كثيرون من أبناء جيلها.

توالت مرات التأجيل مرات ومرات، تأجيل للارتباط بسمير ثم الزواج منه، في نهاية شهرها الأول وقعت المفاجأة ، حمل لم يكن في الحسبان، غير متوقع ولم يخطط له ! ترتب عليه تأجيل أخر لمنع سفرها جوا لمدة طويلة، قدرتها الجسمانية لا تسمح بذلك، إضافة لقلق من تعريض حملها لمخاطر الطيران، كل ذلك توافق مع قناعة سمير الشديدة بأن الطب في مصر صار تجارة لا أمانة ! وأنها يجب أن تبقى للمتابعة والإشراف الطبي حتى الولادة على أرض أمريكية لينعم وليدهما – حسب رؤيته – بالجنسية الأمريكية، وجواز سفرها الأزرق، الذي لا توقفه حدود، ولا تعطله تأشيرات ! يتمتع حامله بحصانُة خارج حدود بلاده. خضعت فيفيان لتعليمات الطبيب وحديث سمير المقنع لها دائما.

تعددت الأسباب، والنتيجة دائما واحدة. ذلك هو رد الأم خلال مكالمة باكية، أخبرتها فيها ابنتها بتأجيل زيارتها لها وللوطن. نبرة جديدة صبغت كلام فيفيان ! لم تعد تتحدث عن عودة إلى الوطن، صار الأمر مجرد زيارة محدودة. تبكي أم فيفيان قسوة الأيام والأبناء. ثم تبكي فرحة بأمل رؤية حفيدها، الذي لم تعرف ملامحه إلا من خلال كلمات أمه، وصورة وحيدة أرسلوها إليها ! لم تتبين فيها ملامح الجد، التي رسمتها الجينات الوراثية على وجه الطفل.

الأم تعرف جيدا طبيعة شخصية ابنتها الانقيادية، كلما قررت السفر أقنعها زوجها بسلاسة ويسر، بضرورة التأجيل، حتى وإن كانت أسبابه واهية. الدرجة العلمية الكبيرة التي حصلت عليها فيفيان بتفوق وقدرة عالية، لم تغير من تركيبتها الشخصية في شيء، فقط نقلت تابعيتها في اتخاذ القرار من الأم إلى الزوج، فالقرار أيا كان الأمر هو قرار سمير. كانت دائما تميل أن يأخذ لها القرار، فهي تجيد التنفيذ ! لكنها اليوم بعد الرسالة التي جاءت، هاهي لأول

مرة تقرر السفر. لا تأجيل ولا انتظار.. حتى وإن اعترض الجن الأزرق، هذه قد تكون فرصتي الأخيرة لرؤية أمي، ورؤيتها لحفيدها، بل ربما يكون الوداع. هكذا همست فيفيان لنفسها.

لم تنس أن أمها من اتخذت قرار السفر لها، حسمت الأمر، مسحت ترددها، قالت لها: روحي يا بنيتي، الرب يسوع يرعاك. منحة مجانية.. دكتوراه من أكبر جامعه في أمريكا، من يرفض فرصة كهذه ؟ قررت سفري، رغم يقينها من بقائها وحيدة، بعد أن غيب العمل والدي، فلم يعد من رحلته الأخيرة، انقطعت أخباره دونما سبب معلن، لم تتوفر لدينا أي معلومة عن مصيره الغامض.. أحي يرزق..؟ أم مات ودفن حيث لا نعلم..!؟ اختفاء الأب، حمل تراكم على كتفي أمي المنهكتين ! ثم كان غياب توأمها الذكور! هاجر الشقيقان الأكبر.. ركبا الطريق (سكة اللي يروح ما يرجعش) إلى وطن بديل..! قارة قابعة في قاع العالم، تتخطف كل من يسقط من حضن وطنه الأم..!

باتت أمي لا تحظى منهما إلا بالقليل: اللهم بعض كلمات.. بضع صور، ثم في القليل النادر حوالة بنكية !

كنت أعلم جيدا حجم صدمة أمي جراء اختفاء الزوج، ومعاناتها لغياب الأبناء. لكن ما أتعجب منه الآن: ألم يكن في كل ذلك مبررا كافيا، كي أصمد أمام إصرار سمير الكاره الرافض – في المطلق – لفكرة العودة..! كان يردد على سمعي دائما كلما فتح الموضوع كلمات بعينها:

– لم العودة !؟ أنعود للتضييق على أنفسنا وأولادنا، نعود لأرض الفساد والمحسوبية، للعصبية والتعصب ؟ نعود لمبارك ونظامه الفاسد الذي اقتلع كل ما هو طيب ولم يترك إلا كل قبيح ؟ إلى شلته التي لوثت هواء وتربة مصر! هؤلاء الذين تجاسروا بغباء وجهل على إفساد شريان حياة مصر ! تطاولوا على طهارة وقدسية النيل ينبوع ورمز النماء على أرضها ! وغرسوا السرطان.. الفشل الكلوي والتليف الكبدي في جسد أبنائها، نعود لهؤلاء الذين برعوا بل

وتفوقوا على إبليس مهارة في إفساد وتجريف ذمم وضمائر الناس !! نـعـــــود..!
(ينطقها باستنكار وسخرية وهو يضغط على كل حرف في الكلمة) لا أرى أي مبررا للعودة مطلقا، إلا إذا كنا نطوق للذل والمهانة وللحياة بلا كرامة، لن أفكر في عودة إلا إذا ثار شعبنا الطيب، ضد عصابة الأربعة الحاكمة، مبارك وزوجته وولديه ! أحلم بيوم أراهم وراء القضبان، ليقتص منهم الشعب، مقابل ما جلبوه من خراب على البلاد..!

كنت أسمعه يقول هذا الكلام، ويكرره في مناسبات مختلفة، حاولت دائما نسيان كلماته هذه، لكني لم أنس محاولته الكثيرة لإقناع أمي بمنطقه هذا، كي تأتي للعيش معنا هنا، في جنة الحرية والكرامة - حسب وصفه للحياة في أمريكا- وأيضا لم أنس إصرار أمي على الرفض، وكلماتها التي رددتها دوما:

« اللي ما لهوش خير في بلده، ما لهوش خير في حد، أنا أتولدت هنا وعشت هنا وح أموت هنا، عشان أدفن هنا في حضن أمي وأبوي، في الأرض المباركة اللي داست عليها العدرا مريم وعلى ذراعها الطفل يسوع ».

يضحك سمير ساخرا من كلام أمي، ويقول: « أمك دماغها صعيدي ». يا رب أرني وجه هذه الصعيدية الأصيلة، أمي التي افتخر بها على خير، يا رب أعفو عني أنا الابنة الجاحدة.. التي قصرت كثيرا في حق أمها..!! ابنة لم ترَ يوما غير نفسها ومصلحتها الشخصية ! نعم أتذكر أمي وبؤس وحدتها في بُعد الأبناء وغياب الزوج ! الغريب أني أبدا ما اتخذت قرارا للتخفيف عنها، ولو بزيارة خاطفة..! بئس الابنة أنا ! التي وضعت ذاتها فوق الجميع واكتفيت..! ترى أمثل تلك الأنانية هي علتي الشخصية أم علة جيلي بأكمله..؟

يا يسوع الطيب، احفظها... اجعلها لا تموت، إلا وقلبها راض عني، بارك يا يسوع في صحتها وعمرها، حتى أراها، واقبل يدها وأطلب منها السماح، أبانا الذي في السماء، يا من شفيت المريض، وأحييت الميت، أشفي أمي وبارك في عمرها، حتى أراها وتراني، وتشبع من حضن حفيدها.

« 11 »

اندفع مدير المحطة من باب الطائرة إلى مقصورة القيادة مباشرة، كان الانزعاج باديا على هيئته بدرجة لافتة، انتبه قائد الرحلة إلى حالته، التفت إليه مستفسرا:

– خير...؛ أهناك ما يسيء ؟

رد الرجل بصوت فيه بعض من سخرية عجنت بصبر شحيح:

– وهل هناك أسوأ مما نحن فيه..؟ الوضع يا كابتن لا يحتمل أي جديد... حالة لا نحسد عليها ! الركاب بالخارج ضاقوا مما أسوقه لهم من مبررات، وهم لا يرون غيري مسئولا عن هذا التأخير، أظنهم كادوا أن يفتكوا بي ! تعجيلا للمغادرة..! فهل يمكن السماح ببدء صعودهم إلى الطائرة، هذا سيساعد على التهدئة وامتصاص الغضب، أيضا يختزل بعضا من وقت يستغرقه هذا الإجراء، الذي يحتاج إلى وقت ليس قصيرا ؟

كان على حسان أن يقرر ذلك، لكنه يحتاج قبل الموافقة على بدء عملية صعود الركاب، التأكد من أمرين، الأول وقد توجه بسؤال مساعده عنه:

– إيه أخبار تموين الوقود ؟

التقط المساعد نظارة صغيرة معلقة بسلسة إلى صدره، وضعها بسرعة على عينيه، محملقا في عداد بعينه متابعا مؤشر قراءته، ثم التفت جهة قائده قائلا:

– تقريبا.. انتهينا.

أما ثانيا، فكان أن ضغط الكابتن زرار استدعاء الأقرب من طاقم الضيافة

الجوية، رنة ثلاثية (صوتية، ضوئية) تميز نداء مقصورة القيادة. ظهرت المضيفة على عتبة المكان، قبل خفوت الضوء، وهي تجاهد في رسم ابتسامة على وجهها، لتداري ما اعتمل في صدرها من تبرم، إزاء استدعاء مقصورة القيادة، التي ترى أنه في غير وقته أطلاقا، فقد أخذها مما تقوم من تجهيزات واجبة لملاقاة ركاب الأولى.

الاهتمام بنداءات غرفة القيادة، أمر اعتاد عليه أفراد الطاقم الجوي، حتى أنه ينتزعهم – أحيانا– من كوم الواجِبات الملقاة عليهم، كانت دنيا عندما جاء النداء، مغموسة بشكل تام، لانجاز أشياء رفيعة لكنها متعددة، موقوتة جميعها بزمن ما قبل قدوم الركاب، أو قدوم التتار كما يطلقون عليهم من باب الدعابة أحيانا ! واجبات لا تنتهي، تجعلها تخوض في الكثير من تفصيلات متشعبة، قبل لقاء الركاب. بادرت دنيا متسائلة في عجلة:

– أمرك كابتن ؟

ابتسم الرجل بود، تنطق به أفعاله، قبل كلماته، وتقديره الذي يحسه كل من يعمل تحت قيادته، مستفسرا:

– يبدو عليك الانشغال، ربما من الأفضل أن تجعلي أي من الزملاء يتولي الأمر عنك.

أدركت أن ابتسامتها المتكلفة لم تفلح، في مدارة غياب بشاشة عرفت بها، بعد أن غلبتها وحشة صغيرها:

– لا شيء... فقط انهماك ما قبل وصول الركاب، لكن بالطبع لكم الأولوية كابتن.

لم يعلق على كلامها، لكنه قابل ابتسامتها الباردة بأخرى أكثر دفئا، لدرايته بصعوبة أن يبتسم الإنسان بآلية متجردا من مشاعره الإنسانية، أو متناسيا ما يجيش بصدره...! أيضا هو لم ينس، ما تواجهه أطقم الضيافة، من انتهاكات

إدارية للوائح وأنظمة العمل، مما يمثل ضغطا نفسيا، يتأثر به أداؤهم سلبا ! فطلب منها بنبرة مطمئنة، أن تأتيه برد على مدى جاهزية الكابينة لبدء استقبال الركاب، فخرجت لمقابلة رئيس الطاقم، دون أن تنطق بكلمة.

دارت عينا جمال مشيعة لها، بنظرة مشحونة بأسف لا يخلو من تعاطف إنساني، ثم قال لحسان معقبا، بعد أن تأكد من خروجها:

– إن تجهم دنيا أمر غير عادي، ويبدو أن ضحكة الأتوبيس كانت من وراء القلب، فأنا أجزم أنها على عكس طبيعتها التي أعرف! فهي شخصية مبهجة، ناهيك عن كونها مضيفة ممتازة، فلا غبار عليها مـــــــهنيا، لكن –عندئذ تلون صوته بشيء من الأسى؛ وأكمل بطريقة توحي أنه يعلم أكثر مما يظهر– مع الأسف هي امرأة قليلة الحظ، فأمورها الشخصية تسير على غير ما تشتهي !

أثارت كلمات جمال غير المتوقعة، فضول حسان، فتقافزت على وجهه علامات تعجب، فقال مستحثا مساعده:

– ماذا تعني ؟

كان الحوار يدور بينهم، بينما أيديهم لا تتوقف عن العمل، كأن لا شيء يعوقهما عن استكمال أفعال وأمور اعتيادية، تجهيزات واستعدادات باتت بالنسبة لخبرتهم الطويلة، لا تزيد عن كونها أمورا روتينية، لا تحتاج أي مجهود خاص لتنفيذها على أكمل وجه. رد جمال:

– مسكينة..!! إنها تعيش قصة مأساوية طويلة كابتن..!

كان مدير المحطة مازال جالسا بمقعد خلفهما مباشرة، منتظرا موافقة قائد الرحلة على استقبال الركاب، التقطت أذناه تعليق جمال على شخص المضيفة، فلمعت عيناه بفضول غريب لسماع المزيد، لكن جمال انتبه لوجود الرجل فاستدرك قائلا:

– ربما أحكي لك في وقت آخر.

راجعت دنيا رئيس طاقم الطائرة السيد شومان، الذي أخرجها بأسلوبه الودود، من إطار همومها الشخصية؛ فعادت لطبيعتها المرحة، انفرجت أساريره، بشكل أقرب إلى طبيعتها، وهي تقول مبتسمة:

– نعم كابتن.. الكابينة جاهزة الآن لاستقبال الركاب.

التفت حسان بوجهه ناحية مدير المحطة، أشار برأسه موعزا له السماح ببدء عملية صعود الركاب. انسحب الرجل مسرعا إلى خارج الطائرة، دونما تعليق. تعمدت دنيا الانتظار.. انصرف مدير المحطة، شيعته بنظرة مترقبة، ثم ارتكنت بظهرها إلى باب المقصورة من الداخل، قائلة بنبرة لطيفة، وكأنها تود الاعتذار، عن تجهمها سابقا:

– أتسمح بضيافتك على كوب من قهوتي الخاصة كابتن؟

نطقت الكلمة بفرنسية حاذقة ناعمة، انعكست مباشرة على وجه حسان بحبور، الذي أشرق بابتسامة واسعة وهو يدور في مقعده متوجها للأمام، قائلا بنبرة متصالحة:

– أشكرك... لكن دون سكر، لو سمحتي.

وهنا تداخل جمال في الحديث، وقال في مشاغبة طفولية:

– وأنا أيضا.. لا مانع، لكن مع السكر يا سكر.

بحركة عفوية لطيفة، أشارت دنيا إلى عينيها، وهي تبتسم مغادرة للمقصورة، مغردة بضحكتها البهيجة. انشغل القائد ومساعده، في بعض التحضيرات الفنية لما قبل التحرك، فخيم على المقصورة صمت مسموع، حتى عادت دنيا مرة ثانية تحمل كوبين من القهوة، تتصاعد منها أبخرة ساخنة محببة ، تفتقد دائما في الأجواء الباردة، تفوح منهما رائحة بن قوية ذكية، فنطقا مصادفة في آن، كلمة واحدة لها نفس النغمة:

– سَلِمَتْ يداك.

ضحكا.. فتوردت وجنتاه، همست بفرنسية رقيقة معهودة منها:

. De Rien -

غادرت دنيا، إلى حيث موقع عملها في الدرجة الأولى، لاستقبال ركاب، أصبحوا على بعد خطوتين أو أدنى. ارتشف جمال قهوته محدثا صوتا قويا، يقول معبرا عن تلذذه:

- يا سلام.. قهوة عن حق..تختلف تماما عن فول سوداني يدعون أنه بن ! للأسف قلة الخبرة تجعل البعض يظن أن الصنف الرخيص - متناسيا الجودة - يخفض التكلفة، ويعظم الربح !

لاحظ حسان ما ألم بجمال من تبدل في الحال، واعتدال في المزاج فقد أصبح أكثر انشراحا عن ذي قبل، فأومأ برأسه مبتسما موافقا على رأيه فيما ذهب إليه بخصوص رداءة بعض المواد التموينية على الطائرة! وانتهز الفرصة ليرضي فضوله، فابتسم لجمال متسائلا:

- لكن... ألا تخبرني ما قصة صاحبتنا؟ وماذا تقصد بتلميحك لمأساتها تعيشها...؟

هنا علت ملامح وجه جمال شيء من كدر وهو يقول:

- سبحان الله، من يرى ضحكتها ووجهها الصبوح البشوش، لا يصدق أن وراء هذه الابتسامة، مأساة تعيشها؛ وأن قلبها ـ مسكينة - مشطور إلى نصفين !

- كيف ؟

يقول جمال: في إحدى رحلاتنا، كانت دنيا وصديقتها الأقرب إيزابيل، تعملان معا - كالمعتاد- وكان من المقروء على وجه دنيا أنها في حالة نفسية ليست بالجيدة، واعتذرت عن تجمع الطاقم على مائدة العشاء، لكنها جاءت وصديقتها بعد انصراف باقي المجموعة، وجلستا في ركن منعزل من قاعة الطعام، ولم تنتبها لوجودي خلفهما تماما، ولم أرغب في إزعاجهما، فالتزمت

مكاني والصمت مستمتعا بكتاب أقرأه، وعشاء هادئ. لكن وعن غير قصد منهما أو مني، اكتشفت أن الحديث الدائر بينهما، يكاد يكون موجها لي، فصوت دنيا بطبيعته ليس بخافت، إضافة لقربي من مجلسهما، كان من الواضح أنها تعيش حالة من المعاناة، وأنها تحتاج لمن تحكي إليه، وبالطبع فليس لها أقرب من إيزابيل، كما نعلم جميعا، في تلك الأمسية، راحت تحكي عن مأزقها، قائلة:

أعيش مع رجل ترفضه كل جوارحي، فقط من أجل طفل جئنا به للدنيا، دونما أي أرادة منه، بعد فطامه مباشرة، اضطررت للعودة للعمل، ولم أجد – بسبب سفري المتكرر– بدا عن تركه عندئذ في بيت جدته لأبيه، لعدم اطمئناني لتركه مع أبيه؛ فالرجل شخصية غير مسئولة، لا يستطيع تحمل مسؤولية أي شخص حتى ذاته ! بات حملاً علي، فأنا المسئولة عن البيت ومصاريف الابن (اتسعت عينا إيزابيل، وتقوس حاجباها لأعلى) أما دخله فلا يكفي سهراته للعب الورق وشرب الخمر، والأمر يزداد سوءا يوما بعد يوم، فأصبحت غير قادرة على ترك الصغير ليقضي ليلته فيما بيننا، حتى لا يطلع على الصورة المشوهة، لأب سكير إما أنه فاقد الوعي، أو أنه منفلت اللسان واليد، يتطاول علي دون مراعاة لظروف المكان أو من فيه ! (يا ستار يا رب) قالت إيزابيل وصمتت، فأكملت دنيا، الرجل ليس لديه أي أحساس بالمسؤولية، يأتي أفعالا منافية لأبسط قواعد التربية السليمة، التي أحاول جاهدة زرعها في طفلنا ! ومؤخرا فهمت أن الرجل الذي هو زوجي، يستثمر صبري وسكوتي، يستغل حبي للصغير ونقطة ضعفي التي يعلمها جيدا، كأداة للضغط علي؛ فإن أغضبته، منعني من رؤيته ! (أعوذ بالله..) تعلق إيزابيل ثم تلوذ بصمت استماعها، فتستطرد دنيا الحكي، في محاولة منها لإسقاط بعض من هموم تثقل قلبها، قائلة: آه ... لو تعلمين كم هو فظ أناني، يعيش لذاته وملذاته ! شخصية غير محبوبة في عمله سواء من رؤساء، أو ومرؤوسين، أو في سكن من جيران، وعامل جراج، وبواب ! وما يزيد الطين بله، طلباته التي لا تنتهي من أغلى أنواع التبغ والخمور، التي لا يمكن أن أغفلها، وإلا فالإهانة في انتظاري، حتى

وإن كان في وجود الصغير! خبطت إيزابيل كفا بكف، وهي تقول(نهار أسود على رجل كهذا)، خفضت دنيا رأسها، وقالت معتذرة لصديقتها: أثقلت عليك بهمومي، أنا لم أعتد التصريح بمشاكلي لأحد، لكني أعتبرك أختا لي، ربتت إيزابيل ظهرها بحنان، فعادت دنيا تفرغ ما في جعبتها من وجع: للرجل زوجي شلة على شاكلته، يجلسون جلسات طويلة للعب الورق والشراب، تمتد لساعات متأخرة بمنزل الزوجية، خصم من رصيد حريتي وراحتي، وليس لي حق الاعتراض، وإن أبديت شيئا من تبرم، سخر مني، قائلا: كيف وأنت مضيفة، لا تحسني استقبال ضيوفنا ؟ تخيلي أنه يطالبني بدم بارد، مجاراة ومجاملة أصدقائه. إلى أن فاض بي الكيل، نفد كل ما لدي من مخزون الصبر..! فالحال مائل لا يطاق، وقررت أن أعلن عن استيائي، وأرفض أسلوب حياته المنحرف، وعشرته السقيمة ! استنجدت.. استجرت من غلظته، فلم يكن منه عندما جاءه الخبر، إلا لَيْ ذراعي..! استخدم الورقة التي يعرفها جيدا، صرخ في وجهي: لن تري الطفل بعد الساعة، وأضاف في تحد سافر، واستخفاف: أطلبي ممن عضَّاك علي المساعدة.

استدرك جمال، وهو مسترسل في حكي قصة دنيا التي سمعها منها دون أن تلحظ، قائلا: تخيل يا كابتن حســـان، خسة الرجل ونذالته، فقد كانت وسيلته الفعالة المجدية، التي تأتي بثمار فورية، هو ضغطه على المرأة، بحرمانها من رؤية الصغير الذي يعيش في بيت جدة خاضعة تماما لسيطرة ابنها وشخصيته الفاسدة المدللة! وهذه الجدة بعيدة تماما عن أي تعاطف مع الأم ! فهي لا تسمح لزوجة ابنها برؤية الطفل، إلا بعد إذن مسبق؛ من ابنها، زوج دنيا...! لجأت لأقارب ولأصدقاء، عل أحدهم ينجح في إقناعه بالعدول عن سلوكه المنحرف، أن يمنح أسرته جزءًا ولو يسيرًا من الاهتمام، لكن هيهات. رجل ذاتي النزعة، لا يعرف إلا إرضاء نفسه، وشهواته! لا يقبل التنازل، أو المهادنة...! له قلب من بازلت، وعقل من صوان. لا شفاعة في قسوة، ولا حيلة في رأي ! مبرمج لا يحيد عما في رأسه، لا يحن لزوج، ولا يرق لولد ! الصغير بالنسبة له، أداة يضغط به

على زوجته ! فإما أن تنصاع له، وإما حرمان مطلق من رؤيته ! لكن الزوجة دنيا أعلنت ليلتها، وهي تحكي لصديقتها قصة الوجع الذي تعيشه، كما سمعتها.

أخيرا أعلنت العصيان والتمرد، استطعت الخروج على طاعة هذا الدكتاتور الفاشي، الزوج الذي أثبت قولا وفعلا.. تلميحا وتصريحا، أنه يعيش في مجرة ليس فيها إلا كوكب ذاته المتضخم، وما عداه مذنبات عابرة لفضائه الخرب، مآلها المحتوم هو الضياع والهلاك قبرا في لحد ثقبه الأسود ! لقد كفرت بقدسية الزوج، وارتدت عن طقوس عبادته ! ما أعيشه تجربة جعلتني أرى أن أي رجل ليس إلا هذا الزوج، الذي لا هَم له إلا انتظار عودتي بطلباته الخاصة..! سكتت هنيهة، ثم استأنفت بنبرة يائسة فقدت الثقة – يا صاحبتي – في جنس الرجال، صرت لا أراهم إلا كعَاقَول الصحراء، نبت طفيلي يمتص من التربة خيرها فقط ، لكنه أبدا لا يعطي ظلا ولا ثمرا ! وكيف لا وأنا لم يسبق لي أن رأيت صورة رجل يصفون عطاءه بالأشجار، فهو ذو ظل وارف، وثمار طيبة، ولم أظن أبدا أنى سأقابله يوما، حتى جاء هذا المختلف إلى طريقي، فسلب شطر قلبي الثاني.

كانت المفاجأة التي لم تتوقعها دنيا، لقاء خبأه لها القدر دونما أي توقع، أو ترتيب مسبق، فقط إرادة علوية تسير الأشياء. رجل كان دائما في موقع شديد القرب منها، لكنها أبدا لم تره.. لم تسمع به، لكنه ظهر لها فجأة.. كأنه ملك من السماء جاء، ليقف إلى جوارها في محنتها، يمد يده، ليخرجها من غرق محتوم في بركة مشاكلها ! ليكون الساعد الذي تعتمد عليها لتقف منتصبة القامة. كان الوحيد الذي توقف أمام إنسانيتها لا أنوثتها، لم تحرك فيه رغبة الاستعراض كذكر الطاووس..! بل حركت فيه النخوة والشهامة، تطوع بنية خالصة للوقوف إلى جوارها مساندا أمام مشاكل مزمنة، لا تعرف لها حلا أو مخرجا !

«12»

صفير حاد مزعج – يسبق أحيانا الإذاعة الداخلية – قطع استرسال جمال وثرثرته، الذي نجح لأول مرة في الاستحواذ على شغف حسان، وإثارة فضوله إلى حد أنه راح يستمع بنهم لقصة دنيا المثيرة للتعاطف، قصة لم يصدق أن تكون لامرأة تستحوذ على القلوب والعقول، يحبها ويحترمها الكبير والصغير، لما لها من تلقائية وضحكة حلوة آسره، تشيع بهجة وانشراح في فضائها أينما حلت.

علا صوت رئيس طاقم الضيافة يجلجل في أنحاء مقصورة الركاب، مقتحما جميع مناطق الطائرة، حتى الحمامات المغلقة، كلمات قالها باللغة الإنجليزية، نداء قصير محدد، هو إعلان عن بدء صعود الركاب للطائرة، وأمر في نفس الوقت لأفراد الطاقم، بالاستعداد لاستقبال القادمين. كلمات قليلة، لكنها عظيمة الأثر، فقد لوحظ رد فعل جماعة الضيافة من همهمة وحركة تنقل وانتشار نشط فيما بين كابينتي الأولى والسياحية.

الجميع يحرص على تنفيذ التعليمات، استقبال ضيوف الطائرة يجب أن يكون بحفاوة وترحيب، وبشكل لائق، مع ارتداء كامل الزي . يقف المضيف مرتديا بزة كُحْلية، أكمامها موشاة بشرائط مذهبة، أزرارها نحاسية صفراء، على الصدر دَبُّوس كنصف جناح، يظهر تحتها قميص أبيض، ورابطة عنق سوداء، أما الرؤوس فيغطيها كاب، حمل شعار الشركة. أما المضيفات فهن كزهرات زاهيات، بعضهن بزي زهري أطر بشريط برتقالي، وأخريات زيهن برتقالي محلى بشريط زهري، أما كاب الرأس فهو بلون الزي.

كابينة الركاب استعادت رونقا ونظاما، عادة ما تفقدهما بعد استعمال طال وقته أو قصر. أنهى فريق الخدمات الأرضية عملا ضروريا، تنظيف وترتيب

صالون الركاب، وتعطيره برائحة الزهور. رفعت درجة إضاءة الكابينة إلى الإشراق التام، فسطعت بضوء مريح غير مبهر، بقع ضوئية تنبعث فوق كل مقعد مخصصة للقراءة. أما النوافذ فمصابيحها ترسل ضوءا هادئا على نقوش فرعونية دقيقة الحجم على جدران الكابينة، ذات لون أصفر عاجي، يشع دافئا حميما، بخلفية من نغمات شرقية خافتة تسبح في أجواء المقصورة.

تدافع الركاب في هرجلة وتزاحم على الصعود إلى الطائرة، كأن قواعد السفر تقول: من سيجلس أولا سيصل أولا..! أو ربما تحت تأثير رغبة ملحة للتخلص من إحساس ممل بانتظار زاحمهم المكان طول الفترة السابقة.لم يقلل الاندفاع، إلا وقوف رجال أمن الشركة، أمام باب الطائرة الرئيسي، حيث يراجعون بطاقات الصعود، ويعمدون لتفتيش الأمتعة والحقائب المصاحبة.

عادت الهمهمة كطنين نحل هائج، تناثرت من أفواه الركاب كلمات غاضبة هنا وهناك، وتحركت أيديهم بحركات عصبية، رافضة لتفتيش لا يرون من ورائه طائل، إلا مزيدا من إزعاج ومنغصات هم في غنى عنه، بعد أن أخذوا قسطا وفيرا منه، فما حدث ومازال، من تأخير أرهقهم وأربك خططهم، بل أفسدها للبعض، كان يزيد عن طاقة الاحتمال لأي فرد عادي.

جاءوا كل يـــحمل في صدره وعلى أكتافه الكثير من الضجر والتوتر، إضافة إلى ما يحمله من - كراكيب كثيرة- حقائب وأكياس كبيرة ممتلئة عن آخرها في أيـــــديهم، صبيان وأطفال بين أرجلهم يزيدون من صخب اللحظة، وشد الأعصاب، أحمال وأفعال ترفع من حرارة الأجساد، وتضيق الصدر !.

« 13 »

ذات ظهيرة يوم راحة أسبوعية، تسلمت دنيا خطاب تكليف بالسفر، في صباح اليوم التالي. رحلة كانت غير تقليدية ضمن طاقم زائد، إلى ولاية واشنطن بشمال غرب للولايات الأمريكية، تحديدا إلى سياتل عاصمة الولاية، حيث مصانع شركة « بوينج « الأكبر والأشهر في صناعة الطائرات عالميا. الرحلة لاستلام ومرافقة طائرة هي الأحدث في أسطول الشركة، في أولى رحلاتها من مطار الشركة المصنعة، إلى مطار القاهرة الدولي. خطط للرحلة أن تستغرق خمسة أيام، وقد تمتد قليلا.

كان على رأس طاقم تلك الرحلة، رجل هادئ الطبع، حلو الطلعة، مليح الوجه، تدعو ملامحه لثقة وطمأنينة مطلقة، له نبرة صوت عريضة رزينة، حانية معتدلة، وضحكة متزنة. له مزاج راق كفنان عاشق للموسيقى وللشعر، محب للطبيعة والناس. يقول عن نفسه إن سئل.. الحب هو ديني الذي أعتنق، والسلام هو فلسفتي في الحياة، أسير رحلتي الأرضية متكئا على هذين المبدئين. فهما الأصلح والأفضل للتعامل مع الحياة، ولعلاج المشاكل المعقدة، التي تواجه البشرية، أينما وجدت، وأيا كانت أيدلوجيتها.

يمارس الرجل حياته من منطلق أن « الحب يخلق السلام، السلام يوجد الحب »يقول إنهما السبيل الأمثل لحياة الجنس البشري، لو كانوا يعلمون.

وصل الطاقم في وقت متأخر من المساء إلى مطار سياتل ـ تاكوما الدولي – وما أن وصلوا إلى غرفهم بالفندق، حتى سقط الجميع كل في فراشه شبه مغشيا عليه وكان طول ساعات الطيران التي استغرقتها رحلتهم قدوما من القاهرة إلى نيويورك، ثم الطيران ثانية إلى سياتل، كافيا بإنزال التعب والإرهاق،

بأي شخص مهما كانت قدراته.

في الصباح التالي ليوم الوصول، كان الجميع يعلن عن معاناته بسبب فرق التوقيت الذي يصل قرابة السبع ساعات بين القاهرة وسياتل، وهذا يعني انقلاب النهار إلى ليل، والليل إلى نهار! محاولة مجهدة تلك التي تبذل، للتغلب على ال Jet lag.

التقى الطاقم على مائدة الإفطار، جلسوا جميعا على طاولة واحدة، كانت تلك المرة الأولى التي يلتقون فيها وجها لوجه. عرف آدم نفسه لهم، وطلب من كل منهم أن يعرف بنفسه، فهناك زملاء – كما قال – يلتقيهم للمرة الأولى، ابتسمت دنيا التي كانت تجلس قبالته، وهي تنطق اسمها. أطلعهم كابتن آدم بخبر تأجيل موعد الاستلام، وأن العودة بعد التعديل ستكون بعد عشرة أيام بدلا من خمسة، كما أخبرهم أن غرفة عمليات الشركة بالقاهرة، ستهتم بإبلاغ أسر الطاقم بتأجيل موعد العودة.

كان تأجيل العودة، برغم توقعه، أمر غير مريح وغير مرغوب فيه، فهو مربك لكل منهم على حده ! فما خطط له ورتب في حياة ما بعد العودة، فشل وانتهى فانتابهم جميعا شيء من القلق والتذمر! لكن الواقع يقول أن لا حيلة في الأمر، ومن الحصافة توظيف الوقت المتاح واستثماره بالشكل الأمثل.

اجتمعوا على فكرة وليدة الموقف: فلنستغل الوقت الزائد، في مشاهدة معالم المدينة التي تطل على المحيط الهادي، وتعتبر أكبر مدن شمال غرب أمريكا، قال أحد شباب المجموعة، في عملنا كثيرا ما ننقل الناس من بلد لآخر، من أجل السياحة، فلماذا لا نجرب اليوم أن نكون سائحين. أعلن آدم أنه يحمل رخصة قيادة دولية، وبذلك هم قادرون على المشاركة في استئجار سيارة، والطواف بها في أرجاء المدينة، قاموا بزيارة أشهر معالم المدينة السياحية، برج (إبرة الفضاء) ذي الشكل الفريد المميز، وتبضعوا في سوقه التجاري الشهير، الذي يشغل المساحة الموجودة في أسفل هذا البرج. جعلوا لأنفسهم برنامجا، راحوا

يستمتعون بجمال الطبيعة وفي تلك المدينة الرائعة – مدينة الزمرد – التي تمتاز بجبالها ووديانها الخضراء وبالأنهار والبحيرات الطبيعية.

جمعت بينهما موائد الطعام، وجلسات السمر داخل الفندق وخارجه، جولات استطلاعية ترفيهية للمدينة وشواطئها. هزت نسائم الانطلاق و البهجة شجيرات الحياة في داخلهما، فسقطت بذور الحب في أصص من حرمان واشتياق، ارتوت بندى صباحات فتية تغمرهما، فأنبتت لبلابة الود بين روحيهما، فروعا خضراء غير مرئية، امتدت.. تشابكت، تخلقت خميلة أثيرية مخملية، زينتها أزهار وورود مشاعر إنسانية طيبة اللون والرائحة، ظللتهما أحاسيس راقية هفهافة، نمت كمرح طفولي رقيق، نسج من دثار خيوط حانية لديباج السعادة، فتقاربا متهامسين، حتى تآلفا فتعانقت روحهما.

(تعَجَبا... ! كيف لم يلتقيا من قبل ؟ رغم طول تزاملهما في شركة واحدة، وفي عملين متكاملين لا يقوم أحدهما دون الآخر. تأملا في قدر له أفعال مبهمة عجيبة، حاولا استطلاع ما يخبئه الغيب لهما، أو أن يجدا إجابة على سؤال تطوف بعقلهما: ماذا يريد قدر أبى أن يجمعهما إلا في ظروف غير مواتية..؟) تكلما كثيرا.. صمتا طويلا.. تناقشا وتجادلا..اختلفا، ثم اتفقا. نَظرَا جيدًا فيما يدور حولهما، ويحدث لهما. ضحكا بصوت عال كأطفال تشاغب الحياة حتى دمعت عيناهما. توثقت أواصر الصداقة بين شخصيهما، تمكنت وشجت خيوط قلبيهما.

جولة نهارية طويلة مُشبعة، تلتها أمسية هادئة احتوتهما منفردين، بعد انفراط عقد جماعتهم وانسلال حباته، رجع الجميع إلى غرفهم طلبا للراحة. هدأت الحركة في بهو الاستقبال الكبير، بذاك الفندق الذي استضافهم بمدينة الزمرد. تخيرا أحد أركان البهو النعاسة، ضوء غير مباشر وَسْنانُ خافت، ينساب رقراقا، محملا بوشوشات وهمسات لحن لاتيني ذي إيقاع ناعم بطيء، ونغم شجي. انتبهت إلى نفسها، وقد فك عقال لسانها، يحكي على غير طبيعتها عن حياتها

الخاصة ! انتبهت أكثر عندما اكتشفت إنها لم تقاوم هذا الفعل ولم تتراجع ! تعجبت لحالها، لكنها استسلمت لإحساس خفي لم تعرف كنهه؛ جعلها تعيش لذة البوح، لذة أن تفرغ ما لديك دونما وجع أو معاناة.

شعرت كأنها تجلس إلى طبيب عقدت عليه آمال أن يخلصها من آلامها، قالت كل ما جال بخاطرها بلا مواربة، باحت بما لم تبح به لأحد من قبل، كشفت عن دقائق ما تعاني منه في عيشها. كانت كلما كشفت له تفصيلة من تفاصيل حياتها، شعرت كأنها قد أزاحت صخرة تسد طريقها. كشفت بكلمات بللتها الدموع تارة، وغلفتها السخرية تارة عن مأساة تعيشها تحت ما يسمى: حياة زوجية، أغلال تكبلها، تعيشها كأنها كابوس لا ينتهي ! تتمنى لو استيقظت يوما على طلقة منه بائنة !

حلم يطل من بين طيات ركام من كلمات مشحونة بوجع وعذاب تعيشه مع رجل بات غريبا عنها. زواج ما كان يجب أن يكون. لم تتردد في الكشف عن خوفها الشديد من زوج فظ ذي حيل إبليسية لا تنتهي، ذاك الذي أعلن مرارا وتكررا في مواجهاتها، إن لديه الكثير لها، لكن ليس ضمن هذا الكثير أي فكرة عن الطلاق. كان يضحك ساخرا بشيطنة، وهو يقول لها قاصدا غيظها: الطلاق أبغض الحلال..! لا.. طلاق، لا.. طلاق، مهما حدث، مهما كان.

«14»

مجموعة رجال قرابة الثلاثين ونيف من المسافرين، يقتربون من المدخل الرئيسي لكابينة الركاب، على محياهم مسحة مشتركة، سمة إن لم ترها العين، يلتقطها الإحساس بالضرورة، يستشعر وجودها، حتى يخال أنهم على هيئة واحدة، وإن لم يكونوا كذلك !

يتهامسون فيما بين بعضهم بلغة ودٍ ملتزم، مشافهة تتخللها كلمات من نوعية: تمام.. سيادتك.. أفندم.. الأوامر..! سمعت عبارة جاءت على لسان أمين أصغر المجموعة سنا، وأقلهم بالطبع رتبة، وهو يتساءل مستنكرا، لكن في شكل هامس بها إلى السيد شاكر، الذي يحاذيه في السير، ويبدو من الوهلة الأولى أنه أكبر سنا وأعلى رتبة:

– أوَليسَ من المفترض أن لا يجتمع منا مثل هذا العدد على طائرة واحدة.. سيادتك !؟

– نعم .. هذا أمر معيب.. ووضع غريب ! كيف يقعون في مثل هذا الخطأ التنظيمي البسيط ؟ التعليمات لديهم واضحة، لا لبس فيها ! تنص صراحة بالحرف على.. أنه حال الانتهاء من مهمتنا هنا، واستعدادا للعودة إلى أرض الوطن، تشكل مجموعات صغيرة، على أن تكون رحلة العودة لكل مجموعة على انفراد..!

– مع سيادتك كل الحق.. فهذه قاعدة معروفة وتعليمات مستديمة معمول بها..! واقع الأمر– سيادتك– أن لا أحد منايدري ماذا يحدث ؟ لكن هناك علامة استفهام كبيرة تبدو أمامي، لا أجد لها إجابة !

– نعم .. أمرٌ غير مفهوم يدعو للتساؤل ! ألا يخشون وقوع – لا سمح

الله – مكروه للطائرة وجماعتنا بالكامل على الطائرة ؟

رد الشاب أمين بأسلوب المستاء القلق، وقد بدت على وجهه لمحات من خوف ورهبة، قائلا:

– ستكون كارثة ! ثم استدرك ليخفي انفعاله، فقال وهو يضحك ليجعل الأمر يبدو كأنه نكتة:

– إلا إذا كان هذا هو المطلوب !

كست وجه السيد شاكر ابتسامة مريرة، واستنكار ممتعض، بانت عليه ملامح عدم الرضا، والرفض لما لاقوه من استخفاف المسئولين، و اللامبالاة بِقَدْرِهم، وقَدَرِهم، فقال بغضب:

– كارثة بالنسبة لمن؟ لذوينا فقط هذا مؤكد؛ لكن لأي شخص أو جهة أخرى فلا أظن ! للأسف.. هناك شعور عام، بعدم الرضا، الفساد يستشري، كما السرطان ينخر العظام !

رد أمين وهو الأقل سنا وخبرة، مندهشا:

– غير معقول..!؟ أبعد كل هذا المجهود، وبعد هذا النجاح الذي أدهشهم هنا؛ وهم من هم..!

جاء رد السيد شاكر، على نحو محبط غير متوقع:

ربما يكون سبب اندهاشهم هو تفوقنا، فقد فاق تميز البعض كل توقعاتهم، ربما هذا هو السبب الرئيسي لانزعاج تولد لديهم..! وربما لدى آخرين، نعلم أنهم من البدء كانوا رافضيين تماما لهذا المشروع التدريبي ! ويجب أن لا يخدعنا حرصهم على إخفاء رد فعلهم الحقيقي، فهو على عكس مما أبدوا وأظهروا !

في تلك اللحظة تلاقت أعينهما بأعين أفراد الطاقم القائمين بالباب للترحيب ولإرشاد المسافرين، فأمسكا عن الحوار الدائر بينهما. صمتا وهما يضعان أولى

خطواتهما إلى داخل كابينة الطائرة. حاول أمين التخفيف من جدية حديثهما السابق، وما علق بالحوار من توتر وشجن غير متفائل، فانتقل بالحديث إلى اتجاه مغاير وموضوع مختلف شكلا ومضمونا. فأبدى إعجابه بالترتيب الداخلي لكابينة الطائرة بما فيها من رسومات ونقوش وألوان متباينة، مشيرا إلى مقاعد المسافرين على اختلاف أحجامها، والستائر الفاصلة بينها وبين أماكن العمل، أيضا جدران الكابينة وما عليها من زخارف فرعونية دقيقة، قائلا بعد أن رسم على وجهه ابتسامة هادئة:

– لكم أحب الألوان الزاهية الصريحة، أحسها تعبر بقوة عن بيئتنا المصرية بشكل كبير، كسوة المقاعد، التنسيق الداخلي للكابينة، تلك الرسومات الدقيقة القديمة، التي تشير بجلاء لمصريتنا، وامتداد جذور حضارتنا الضاربة في عمق الزمن والتاريخ، أنا هنا الآن أكاد أشتم رائحة الوطن، آه.. لكم أوحشتني مصر !

جاء رد السيد شاكر، مُأمنًا على ما يقوله زميله الشاب، مع اجتهاد من في مجاراته في محاولة التخفف من ثقل حديث دار بينهم من قبل:

– نعم هذا صحيح فالنقوش على بساطتها، جميلة ذات دلالة ومعنى، هي ليست فقط على جدران الكابينة، بل هي أيضا ممتدة لأنسجة المقاعد والستائر، نقش زخرفي ناعم يؤكد على الطابع العام، لكن اللافت أكثر للنظر، هي تلك النسخة من المصحف الشريف، بلون غلافها الأخضر، ونقشه الإسلامي المذهب، الموضوعة بالمدخل، وما تبثه من إيحاء روحاني مريح وطمأنينة.. لا أظنها قد وضعت فقط للتبرك بها، لكنها أيضا إشارة واضحة لهويتنا الإسلامية.

رد أمين مندهشا، معلنا عن عدم انتباهه، لملاحظة رئيسة وما أشار إليه قائلا:

– مصحف.. قرآن.. أين هذا ؟ كيف لم ألحظه ؟

ضحك السيد شاكر لأول مرة منذ بداية حديثه مع أمين، مازحا، وهو يقول بصوت شبه هامس هاش:

– طبعا لم تره..! وكيف ومن المؤكد أن العيون الساحرة لمضيفتنا الجميلة، خطفت عينيك.. استحوذت على بالك، وسرقت منك النظر.

قهقه الرجلان بعد هذا التعليق اللطيف، الذي محا ما تبقى من عبوس على وجهيهما، ثم انشغلا بالنظر إلى أرقام صفوف المقاعد، ومراجعة بطاقات الصعود التي في أيديهم، لاستيضاح أرقام مقاعد، حجزت لهم، أماكن سيلتصقون بها خلال زمن ربما يطول..!.

كانت مقاعد المجموعة متفرقة، غير متجاورة، جاء جلوسهم على شكل مثنى أو ثلاث في صفوف مختلفة، متقاربة أحيانا ومتباعدة في أخرى، طريقة بدت كأنها متعمدة. أخذوا يتبادلون الحديث فيما بينهم عن الرحلة والسفر والتأخير والمواعيد والأهل والانتظار بأسلوب صريح واضح، لكن يتخلل ذلك – فجأة – حديث ثنائي أو ثلاثي فيما بينهم بأسلوب هامس لافت.

« 15 »

ارتاحت دنيا في الحكي والفضفضة لآدم، يحتاج الإنسان أحيانا لمن يحكي إليه، حتى وإن لم يغير ذلك من شيء على أرض الواقع، لكن مما لاشك فيه، أنه محاولة جيدة للتخفيف عن الذات. أخذت نفسا عميقا وأرسلته، فأحست كأن شيئا من همومها قد خرج بعيدا عنها، وأن راحة نسبية تسللت إلى أطرافها، شعرت أنها أزاحت كثيرا مما يضغط على صدرها وأعصابها؛ وأن آدم قد شاركها حمل جزء ثقيل من هموم تنوء بحملها؛ فأطرقت وصمتت لبرهة من الزمن، ثم عادت ونظرت إليه خجلة معتذرة قائلة:

– آسفة لتوريطك في صداع مشاكلي الخاصة !

رد بابتسامة لطيفة واثقة، مهدئة لخاطرها، ومطمئنة لبالها وهو يقول في ثقة:

– من الآن لم تعد مشاكلك خاصة بك وحدك، سنقتسم همومنا، كما اقتسمنا الأيام هنا. أظن أن هذه الرحلة بكل ظروفها غير العادية، والتي بدت مصرة على أن تجمعنا معا دون أي معرفة، إنما هي جُعلت من أجل لقائنا هذا، قُدرت كي نلتقي، لتكون بداية النهاية لمشاكلنا وهمومنا، قلبي يحدثني أننا لن نفترق بعد ذلك أبدا.

رفعت وجهها، نظرت إليه كمن صدق بنبي، واعتنق رسالته، التقت عيونهما في عناق لا نهائي، لا يعلم نهايته إلا من جمعهما دون سابق ميعاد. سلم بكل حرف قرأه في عينيها، ونطقته بلسانها، لم يستشعر حاجته إلى دليل على صدقها. دنيا تحكي بطريقة خاصة، أسلوب مغاير لا يشبهه آخر، لفظها للحروف، ونطقها للكلمات رائقة متفردة، توحي بإخلاص وصدق فطري، رغم وجود بعض المبالغات، وشيء من التزيد، لكنه بشكل مقبول لصدوره

عن شخصية سوية أليفة، خالصة من أي مشاكل نفسية، عادة ما تصيب النساء في المجتمعات الشرقية.

استشعر آدم الوجع الذي تعانيه من غربة تعيشها بين جدران بيتها، غربة تحسها في رابطة اختل ميزانها، منحازا لصالح طرف راسب إنسانيا، لا يعرف من معادلة الحياة الثنائية إلا الأخذ فقط ! أدرك آدم بحسه المرهف مقدار الظلم الواقع عليها، ومدى الغربة التي تعيشها !

لم يَتعجَبْ من شيء في قصتها، أكثر من التشابه الكبير الذي رآه بين ظروفهما الاجتماعية ! مشاكل مزمنة في حياته الزوجية، هي لا تدري عنها شيئا، فأسباب فشلها تكاد تكون متطابقة مع أسباب فشل يحاصره ! زوجته التي خلع دبلة زواجها من بنصره، كما خلع صورتها، وأي مشاعر كانت لها في قلبه ! تماثلت مع زوج دنيا، في مضمون خصاله وأفعاله، وإن اختلفا في قشور سطحية، زوج آدم شخصية متغطرسة مدمنة حب الظهور والتباهي، نرجسية عاشقة لذاتها ولصورتها في المرآة ! ابتسم بمرارة، قرأتها على وجهه، وهو يقول:

– تعبت كثيرا، في محاولة رأب الصدع الذي أصاب أسرتي الصغيرة. نقاشات كثيرة وجدل كبير، ومحاولات شتى واستعانة بالأهل، وأحيانا بصديقتها المقربة ! شكوت حالها معي، أعلنت رفضي لتصرفاتها المتناقضة تماما مع روح الحياة الزوجية، لكن للأسف، باءت كل محاولاتي بالفشل، لم أصل إلا لنتيجة وحيدة محددة وصريحة.. أنا لا أعني لها أكثر من كوني الملبي لقائمة مشتريات وطلبات الهانم ! ربما الصراف، أو أمين الخزنة، التي تغترف منها ما تشاء لتشبع نفسها من غريزة الاقتناء، والتباهي والظهور المريض ! أما قصة البيت والأسرة لها فهي ليست إلا من قبيل الوجاهة الاجتماعية ! فهي لا تحب، ولا تجيد لعب دور الزوجة !

قال آدم كلماته المقتضبة، بصوت خافت، مُوجزا حكاية يخجل من ذكرها ! ثم استطرد وكأنه قاض يصدر حكما نهائيا؛ أو فليسوف ينطق بالحكمة:

- لا يجوز استجداء الحب..! الحب إما أن يكون أو لا يكون !

اعتدل في جلسته، أطلق زفيرا من صدره ساخنا، والتفت إلى حيث لا شيء، وأضاف:

- أنا إنسان لا يملك إلا مشاعره وقلبه، لست قادرا على تسول حب أو عاطفة.

أعاد آدم نظره إلى عيني دنيا وكأنها الدنيا، جالسا يفضي إليها بأوجاعه.. متابعا:

- يقولون طالما أني أديت ما علي من واجبات بشكل مرضي، يكون لي هذا الحق عليها.. لكن كيف الوصول إلى حق هي في الأصل تنكره ؟ وإن لم تنكره فهي لا تحب أن تؤديه ! وقد يقال لي لم لا تطالب بحقك ؟ لكني أرى أن مثل هذا الحق تحديد لا يطلب.. بل يجب أن يمنح عن رغبة، وإرادة نابعة من القلب، وإلا فليذهب للجحيم هذا الحق وهذه العلاقة !

ألقى آدم عبارته الأخيرة وهو يلهث، كأنه يصعد في السماء، ثم ارتكن إلى جدار صمته، يلتقط أنفاسه. احترمت دنيا سكوته، بقيت في مكانها بلا حراك تهدهد بنظرات حانية قلبه المكلوم، إلى أن كسر هو صمته بتبديل وضع قدميه وجلسته.. تنهد آخذا نفسا عميقا، بعد أن أرسله وأضاف:

- طبعا النتيجة الحتمية، أني أسقطها من حياتي، نسيت وجودها تماما.. نسيت أن لي زوجة وبيتا يسمى مجازا عش الزوجية..! لكني مع هذا لم أنس البتة ما علي من وجبات مادية سواء كان لابنتنا أو للبيت أو لها ! والمضحك هنا.. أنها أيضا لم تنس ! لم تنس حقاً تدعيه في أن تأخذ لنفسها ما يزيد عن حاجتها ! لكن المثير حقا في الأمر هو سلوكها الفظ الخالي من أي حنان، فهي لا تعرف أبجديات تولد بها الأنثى كمكون أساسي في جيناتها الوراثية..! الأمومة.. حرمنا المصون تعتمد في تدبر حياة ابنتنا الوحيدة، منذ كانت برعما صغيرا؛ على فتاة نزحت من بلادها تحت وطأة حرب انفصالية وفقر شديد، فتاة أو امرأة

- لا ندري - تعرف كل شيء عن حياة الابنة ! وهي لا تدري عنها شيئا ! هي مع الأسف أما بيولوجيا فقط، أو لأن هكذا تقول الأوراق الرسمية، فاسمها ثلاثيا موجود على شهادة ميلاد الابنة. من الغريب أن يكون اليوم أربعا وعشرين ساعة، ولا تجد فيها ساعة واحدة، لتقوم بواجب متابعة ابنتها، التي صارت أكثر التصاقا بمربية وافدة على عاداتنا ومعتقداتنا !

اهتمامها الأعظم هو متابعة: مقدار ما تملك من مجوهرات وما تحوز من ملابس ومتعلقات ؟ متابعة عدد الأرقام التي يتألف منها حسابها السري، التي تظن أني لا أعلم عنه شيئا ! أما الشاغل الأول للسيدة - يشير بأصبعيه علامة مابين قوسين، وينطق ساخرا..«زوجتي» - هو اختلاق المناسبات والأفعال التي تساعدها على إثارة حفيظة وغيرة الأخريات من شلة نساء ناديها الاجتماعي، اللاتي لا تهتم إلا بسيرة سين أو صاد ! وعلى أن يكون ذلك سببا في أن يتردد اسمها دائما في جلسات النميمة ويجري على ألسنتهم ما اشترت وما ارتدت وما ارتادت !.

لك أن تتخيلي الشخصية وأسلوب معيشتها، وطريقة تفكيرها السطحي..! فهي - مثلا - تستعمل ميزة طيراننا المجاني، ليس لضرورة أو متعة التنزه، أبدا..! هي تفعل ما تفعل فقط من باب الخيلاء، والاستعراض بأنها قد زارت أو ترددت على بلاد ومدن أكثر من أي منهن !

عند هذا الحد وعن دون عمد، عقد مقارنة في نفسه بين شخص زوجته المستفزة، النافرة المستنفرة، الفاقدة لقدرة التواصل مع محيطها، وبين شخصية دنيا الرائعة التي انجذب لها بقدر وشكل لم يتوقعه رغم لقائهما الحديث القصير ! لم يتوقع أن ينجذب يوما لأي امرأة أخرى، بعد أن أفقدته تجربة زواجه البائسة، الرغبة في التواصل مع أي من بني جنسها ! خصوصا من هؤلاء اللائي تعملن معه، هو يتعمد النأي بنفسه عنهن، تحاشيا للغط قد يصيبه، فيسيء إلى شخصه المترفع عن الصغائر، أو إشاعات من تلك النوعية التي يسمع بها تلاحق بعض

زملاء العمل ! مبررا ذلك، بأن لا حاجة أن تلوك اسمه الأفواه، أو يقع تحت طائل ألسنة تقذف ولا ترحم !

منذ اللقاء الأول الآسر، بين آدم ودنيا، عُقد اتفاق غير معلن بينهما، نقش على جدران قلبيهما، حمل كل بين أضلعه أحساسا بالمسؤولية عن الآخر.

سعى آدم لدى صديق لاستشارته قانونيا، عسى أن يجد لها مخرجا من براثن عتل انسلخ عن رجولته، وتناسى غيرته على بيته وعرضه! ذلك الجبار الذي سخرها شغالة تسعى نهارا لجمع رحيق الأزهار، وتسهر الليل لتخرجه شهدا خالصا، لحساب ذكر الخلية الخامل، وظيفته الوحيدة هي استحلاب ما تدر وتجلب ! يعرف جيدا شهوة الأخذ والاستيلاء على جهد الغير، لكنه لا يعرف طعم العطاء ولا لذة المنح !!

obeikan.com

«16»

لم تمض سوى بضع دقائق قليلة منذ بدء دخول الركاب، حتى انقلب حال الكابينَة المرتبة إلى هرجلة فوضوية، حالة من الهرج والمرج. تبدل جوها الهادئ البارد المعطر، إلى جو ساخن خانق، عبق برائحة أتربة تنقلها الأحذية، مختلطة بشيء من دخان سجائر تحمله الأنفاس والملابس. أصبح جو الكابينة العام مشحونا بلغط عالٍ غير مفهوم ! غيمة من كلمات موتورة، وجمل ثائرة، وعبارات غاضبة. اعتراضات متناثرة متباينة صادرة عن الركاب ضد الشركة والطائرة وطاقمها، بل وأحيانا ضد مصر والمصريين!

لا أحد راض عن أحد، ولا عن شيء ! البعض بكظم غيظه والبعض لم يستطع، فتركه يخرج كبركان ثار وانفجر قاذفا كلمات من لهب ولظى، زاعقة لاطمة بعنف كل أذن تصادفها في طريقها. وبعض ثالث مارس شهوة جلد الذات، فصب جام غضبه ساخرا، من ناسه ونفسه كمصري ومن عاداتهم وطباعهم تارة، ومستهزئا أخرى، حتى تخطى نفر قليل الخطوط الحمراء، واشتبك مع أفراد طاقم الضيافة.

يشط البعض في تصوره، وفي طلباته الخاصة ! متصورا أنه عندما يضغط ذاك الزرار الأحمر الموجود فوق رأس كل مقعد، سيجد من فوره المضيفة كجني مصباح الأسطورة، تقف أمامه فاغرة فمها عن ضحكة رائعة، ضامة ذراعيها فوق صدر ناهد، ثم تنحني أمامه قائلة :

– شبيك.. لبيك..مضيفة.. ملك يديك !

البعض يحسب أن مضيفة الطائرة موجودة من أجل تلبية أحلامهم، يعتقدون أن جعبتها تمتلئ بحلول فورية جاهزة لتحقيق رغباتهم الخاصة التي قد تكون منطقية أحيانا، وغير منطقية في كثير من الأحيان:

- صوت مضطرب.....: أخاف الجلوس جوار النافذة ! أريد مقعدا على الممر.

- صوت قلق.....: أمي مسنة، يجب جلوسها قرب دورة المياه.

- صوت رافض.....: أعطيتموني مقعدا بالقرب من أماكن العمل، هذا أمر مزعج، غير مقبول!.

- صوت غاضب.....: لماذا أنا.. جوار هذا العملاق ضخم الجثة، مقعد غير مريح ! لن أقبل به !.

- صوت هامس.....: معذرة.. رائحة جارتي - عفوا- لا تطاق، لن أصمد دقائق، أحسبها تكون القاضية !

- صوت لامرأة منقبة متبجح.: لن أجلس جوار رجل غريب..! لن أتنازل عن مقعد تخلقه لي، مجاور لامرأة.

- صوت ممتعض.....: غريب أمر شركتكم ! طلبت مقعدا يسمح بوضع سرير طفلي، فأعطيتموني مكانا لا يفي بالغرض، والحجة..لا أماكن شاغرة ! بيد أن المقاعد المجهزة لذلك،والمخصصة لأطفال برفقة ذويهم، شغلت برجال فرادى ليسوا في حاجة إليها قط !!.

اقتربت امرأة، مالت على استحياء هامسة في أذن المضيفة، التي ابتسمت مصطحبة الراكبة إلى أقرب دورة مياه، فتحت درجا صغيرا في الداخل، أشارت نحو شيء ما، ثم انسحبت خارجة تاركة السيدة وشأنها..!

رائحة نتنة غير متوقعة تهب فجأة..! أصوات تأفف قادمة من ناحية مقعد بعينه؛ تهرول المضيفة تجاه مصدر الرائحة، تكتشف أن أم الرضيع تقوم بتغير حفاضته على أحد المقاعد وسط الكابينة ! المضيفة تخاطبها بأدب حازم قائلة، وهي تشير بأصبعها في اتجاه مؤخرة الكابينة: مدام.. الحمام الخلفي مجهز بطاولة مخصصة لهذا الأمر!

لكن المرأة وكأنها لم تسمع ما قالته؛ أكملت فعلها المستفز المستنكر، لم تبالِ باعتراض وتأفف المحيطين بها، ولا حتى زجر أو توجيه المضيفة لها، كأن قوة شريرة، قد ضربت أذنيها بصمم !

في تلك الأثناء سمع صوت من جهة الممر المقابل، مقيت كنعيق غراب، مصدره حنجرة أحد الركاب، رجل حاد النبرة مستفز خال من أي لياقة ! يقف في منتصف الممر، واضعا يديه في خاصرته متعمدا إعاقة حركة الركاب ! تنفيذا لغرض في رأسه لا يعلمه سواه؛ رفض الرجل التنحي جانبا، يصر على حضور رئيس الطاقم إليه فورا، ليرى ويسمع شكواه من إهمال وتقصير مجموعة عمله..! شخصية مشاغبة مثيرة للاضطرابات، تعرف في علم النفس باسم الغوغائي ! له طلب غريب كشخصه، وأسلوبه في التعامل ! طلب له وقع المفاجأة على الركاب المحيطين المتابعين لفعله، أكثر منه على المضيف نفسه. أعلن هذا المتعجرف عن رغبته في أن يرفع عنه المضيف حقيبته الثقيلة، إلى رف الحقائب العلوي، فهو يخاف على ظهره – كما ادعى – ويتساءل هازئا مستنكفا، قاذفا كلامه في وجه عادل الذي جاء على عجل مستطلعا ما يمنع مرور الركاب، عند تلك النقطة الواقعة في منتصف الكابينة تقريبا:

– أليس هذا هو عملك، وسبب وجودك هنا ؟!

جاء رد فعل المضيف هادئا مبتسما، قائلا:

– لا.. سيدي، ليس هذا سبب وجودنا هنا ! لكن بعيدا عن ذكر أسباب

وجودنا التي قد يصعب عليك تقديرها، دعنا نتعاون في رفع حقيبتكم التي من الواضح أنها تجاوزت حدود المسموح به..!

استنكر آخرون جهل الرجل بالقانون، وصلف سلوكه الشاذ المنافي لكل قواعد الذوق واللياقة ! وفي رد فعل مضاد غير متوقع انبرى أحد الركاب المراقبين للمشهد، منذ فصله الأول، حيث انتقد بشدة تصرف الركاب، واعترض على أسلوبه الفظ، البعيد عن حدود التعامل المتاح بين الناس بعضها البعض، حيث فزع من مقعده غاضبا رافضا، رافعا صوته موجها حديثه لهذا الراكب، وكأنه رجل قانون أو من رواد حركات حقوق الإنسان، قائلا:

– هذا تصرف غير متحضر مرفوض منك أيها السيد ! لو أنك على متن طائرة غير مصرية، ما استطعت أن تنطق أو تتفوه بمثل هذه الكلمات ولن يسمح لك باستخدام تلك النبرة المتعجرفة ! و إلا اتهمت بالعنصرية والهمجية، ومن الواضح أنك تجهل ما الذي يمكن أن يترتب على توجيه تهمة تعريض أمن وسلامة الطائرة للخطر إليك..! فمثل هذا الاتهام ! قد يؤدي بك إلى المحكمة، وإن تساهلوا معك، وهو أقل الاحتمالات ضررا في مثل هذا الحال ، فأرى أنك ستلقى منهم ما لا يجعلك سعيدا، وربما لم ولن تستطيع أن تنطق بكلمة طوال ما تبقى لك من رحلة ! لذا فأنا أنصحك أن تعتذر فورا لهذا المضيف المهذب الذي تحمل سخافتك، والتزم الهدوء، وَتَعلم كيف تحفظ لنفسك و للآخرين كرامة لا يجب أن تمس.

يبدو أن الرجل استوعب تماما الدرس وانتبه لخطورة ما ذهب إليه، أو ربما كان الدُشْ البارد الذي صبه على رأسه هذا الذي انتصر للحق، قد ذهب بحدة انفعاله، فهدأ ما انتابه من هياج، وانكسرت حدة التبجح التي أشعت من عينيه، ولونت صوته بفجاجة زاعقة..! فجلس من فوره مطأطأ الرأس، فاقدا لنطق كانت طريقته فيه هي أكثر ما في الموقف طرافة..! أسلوب تمثيلي مفتعل، كان من الواضح أنه يختلق المشاكل، مستخدما لغة هزلية، مصرية ركيكة غير سليمة

! كلام باهت الملامح، محشور فيه بتعمد واضح، مصطلحات إنجليزية، بلكنة أمريكية ! كانت المحصلة النهائية.. مسخرة مدعاة للضحك ! مثله مثل جاهل يظن أن اعوجاج النطق واللسان دليل على إجادة الإنجليزية ! أو ربما أراد أن يلوح قائلا: أنا أمريكي... وإن نَسِيَ بذلك مصريته ! فالبعض لنقص في الذات، يتباهى لحمله جواز سفر أزرق..!!

obeikan.com

« 17 »

لا أدري أكنت في حالة يقظة أم نوم، لكني رأيت نفس تلك الخيالات التي سبق أن زارتني، جوقة الأشباح يجلسون على جدران الغرفة، يصنعون نفس الجلبة الصامتة، وينطلق لهم ذلك البخور الذي أراه فقط على سطح المرآة، ثم ظهر شبح ذلك الشيخ الضرير، يتقدم من داخل المرآة تجاهي، حتى صار قريبا رغم أنه بعيد، مال تجاه مقعد غرفتي الوحيد، جلس معتدل القامة رغم انحناء ظهره البادي، أخرج بحرص من جيبه شيئا ما، نفخ فيه ومسح عليه ثم رمى به إلى حِجْري، حملقت في وجهه، ورغم ملامحه التي لا تبين أحسست به شفقة ما.

نظرت إلى ذلك الذي ألقاه إلي إذا به شيء لا أدري كنهه، جسم ذو شكل هندسي عجيب، لا يزيد عن حجم كف اليد يشف عما في باطنه، محكم الغلق من جوانبه، به سائل زئبقي الكثافة، أحمر اللون، يتموج بتؤدة مع الحركة، لا تميزه أي كتابات أو علامات ! نظرت إليه مستفسرا، ما هذا ؟ لكني لم أحصل على أي رد منه، فقد اختفى كما ظهر..! قلبت في يدي هذا الشيء الذي تركه، نفخت ومسحت عليه، لأزيح ترابا ظننته راقدا على سطحه ! ثم وبلا أي توقع مني أضاء ذلك السائل الزئبقي كعين عفريت في الظلام، فانتفضت في مكاني، وألقيته من يدي ! فاجئني صوته الوقور من قلب فضاء غرفتي، يأمرني قائلا:

– خذه ولا تخف..!

مددت يدا مترددة مرتعشة وقلبي في جوفي يرتجف. عند ذلك أطل وجه الشيخ من بؤبؤ عين العفريت، يخاطبني كأنه يراني:

– أنصت أيها الولد الطيب... أطالبك الانتباه جيدا، والتأمل فيما ستراه...

ها أنا أساعدك ببعض من المعرفة، أقول معرفة، ولا أقول حقيقة، فأنا لا أدعي ما لا أملك ! عل طريق المعرفة، يهبك بعضا منها، علك تصل إلى ما تسعى له، لكن أحذرك أن تقول أو تدعي ما لا تعلم، وتذكر أن الحقيقة قاطعة باترة، قد تشق قلب الليل لتخرج منه النهار، تذكر أنها لا تجامل ولا تناوئ، الحقيقة كالشمس، يجب أن تكون موجودة، لتكفينا شر الظلام، وتدفئنا من قسوة الكذب، حرارتها تطهر الآثام، وتقتل جراثيم الإفك ! الحقيقة كالوردة قد تبهجك وقد تدميك، فاحترس وانتبه لما تسمع وترى، لا تقول ما لا تعلم ! تذكر.. لا تقول ما لا تعلم.

كرر عبارته الأخيرة وهو يغوص منسحبا بعيدا، حتى تلاشى صوته، واختفت صورته. وجلت عيني فإذا بعين العفريت تنقلب لصورة مجسمة، مع صوت أجوف ذى رنين جاء عبر الفراغ، كتليفون يعرف بالخط الساخن ذلك الذي يربط على الدوام، بين نقطتين محددتين على سطح الأرض. طرفا الخط يصبان حصريا في نقطتين لا ثالث لهما.

كانت الصورة حينذاك لهاتف ذى شكل حديث أنيق، يقبع على مكتب فخم ضخم، هيئة الجالس إليه تقول إنه ذو حيثية عالية الدرجة والأهمية. غرفته لها طابع غربي ممتلئة بأجهزة ترسل وتستقبل عبر الأقمار الصناعية، تقع في بناية شكلها العام يزعق بالتميز، وخصوصية موقعها يشي بأنها خزانة الألغاز و معبد الأسرار !

دق جرس هاتف، ثم انطلق حوار عبر الأثير، يطير مخترقا الفضاء القريب، ثم يشق ذلك الآخر البعيد، على الطرف للكرة الأرضية. ملايين المحادثات والمكاتبات والإشارات اللاسلكية ورسائل الكترونية مشفرة وغير مشفرة، تنتقل خلال الفراغ من وإلى تلك النقاط المنتشرة على سطح الأرض بسرعة الضوء، كما لو أنها نجوم في السماء الدنيا. ومضات لاسلكية تخرج متجهة إلى أعلى حيث الأقمار الصناعية المعلقة على مختلف الأشكال والمهام. أقمار تدور في

أفلاك شبه ثابتة حول الكرة الأرضية، تلتقط الإشارات لتعيد إرسالها لتصل إلى نقاط بعينها على ظهر المعمورة قاطعة آلاف الكيلومترات. إشارات مقروءة وأخرى مطلسمة، إشارات جادة خطيرة وأخرى هزلية عابثة ! وومضات وموجات لا حصر لها تملأ فضاء غير محدود .

حوار طويل صريح مباشر أحيانا، وغامض و مراوغ أحيانا أخرى. تحول في لحظة حرجة لجدل يمكن وصفه أنه حامي الوطيس. كان طرفي الحوار، كل يضع تحت يده ملفا ورقيا يكاد يكون بنفس الاسم، لكن المضمون مختلف، فكل ملف يقول بوجهة نظر خاصة ! تتوقف المحصلة النهائية للقراءة، على كيفية تفسير وتحليل ما يتضمنه من بيانات وإحصاءات، معلومات وأرقام. كل ملف يعبر بشكل أدق عن وجهة نظر كل منهما، بل ويكشف عن الأسباب والدوافع الحقيقية وراء هذا الجدل القائم على أشده بين طرفي هذا الخط الساخن.

مناقشات مشحونة بمعان، ودلالات عَابرات للقارات، تكاد تكون كألغام موقوتة، أو قنابل حارقة! الحديث رغم كل ما يمكن سماعه في بدايته من كلمات دبلوماسية ناعمة، وألقاب مهذبة وعبارات ومجاملات معسولة، أقل ما يقال عن حقيقته: إنه حديث جامح عنيف، تنضح منه مشاعر الشك والريبة ! تأخذ المتحاورين أحيانا إلى شاطئ اللاعودة، فتعلو نغمة التهديد و الوعيد، ثم تعود وتهدأ قليلا ملتمسة العذر فيما يسكن قلباهما من صداقة – مدعاة – تقوم بينهما..!

واقع مستفز غريب ! طرفان يقطن كل منهما في قارة، بينه وبين الآخر مسافة تقاس بآلاف الكيلومترات، يدور بينهما نقاش عن ثالث غائب، يقطن قارة غير قارتيهما..! لم يكن نقاشهم أبدا عاديا.. كيف وهو لم يأت في سياق تقليدي أو روتيني ! كما أنهما ليسا كأي طرفين في هذا العالم الممتد الواسع..! شخصيات غير نمطية على المطلق.. كل منهما متفرد بمركز محوري في موقعه.

قضية واحدة لها قراءات مختلفة، تبعا لاختلاف المرجعية العقلية والعلمية،

أيضا الخلفية الاجتماعية والعقائدية، وربما عوامل أخرى مؤثرة في القراءة..! النتائج المستنبطة غير متطابقة، تباين ملحوظ في موقف كليهما ! نتيجة متوقعة مع فقدان مرونة الحوار.. جنوح إلى التشدد، والتعصب، ورفض الرأي الآخر. حوار جامح، أفلت عقاله، خرج عن نطاق المحادثة التليفونية، انقلب إلى مشادة كلامية ! اخترقت السحاب، وقهرت المسافات، علا صوتها، تحول للغط شديد ومجادلة أشد ! سِجَال حامي الوطيس بين طرفي الخط الملتهب، على عكس المفترض المزعوم في محادثتهم، من ود وتعاون معلوماتي متبادل من خلال ثقب السرية، وتحت غطاء من التعتيم والتكتم.

أظهرت «عين العفريت» التي أعطانيها الوقور الضرير. رجلين كل منهما في مكانين بعيدين منفصلين، أحدهما يجلس على حافة مقعدة بطريقة متحفزة، يتحدث لغة إنجليزية لها لكنة خاصة جدا، تقول إنها ليست لغته الأصيلة، يشوبها عصبية بالغة، و نبرة حادة مرتفعة ! تنم عن توتر وانفعال مسيطرين على جهازه العصبي، رفض مبالغ فيه لهدوء شريكه في الحوار على الطرف الآخر، خرج عن حدود اللياقة المتعارف عليها، راح يلعن ويتوعد، وهو يشفط القطرات الأخيرة من فنجان قهوة سوداء. أما الثاني وكان الأكثر هدوءًا، يجاهد للتهدئة والتقليل من حجم وقيمة المشكلة التي يثيرها الأول، ارتكن بظهره إلى ظهر مقعده، الذي يحركه يمنة ويسرى في حركة رتيبة، يصيخ لذلك الآخر، عل درجة انفعاله تقل قليلا، قال وهو ينفخ دخان سيجار كبير أسود، لا يبرح فمه:

– هكذا الأمور تسير يا عزيزي ياكوف، يجب أن نحافظ على صورتنا أمام المجتمع الدولي، يجب أن نبقى في عيون العالم دائما الشرطي العادل، الحامي للحريات، ولحقوق الأقليات من تغول الآخر..! لا تنس أننا منبر الديمقراطية في العالم، ويجب أن نَبقى هكذا في عيونهم. لذا الحفاظ على هذه الفكرة في العقل الجمعي، أمر لا محيص عنه، ويجب عليكم أنتم خصيصا، أن تساعدونا في الحفاظ على كفتي ميزان القوى في منطقتكم متساويا كما يراه الجميع، وهذا – مما لاشك فيه – يسهل مهمتنا في استمرار سيطرتنا على أنظمة المنطقة،

وبالتالي الحفاظ على أمنكم الذي دائما ما نعلن عن التزامنا به، ثم لا تنس أن هناك معاهدات موقعة واتفاقيات مبرمة بين ثلاثتنا .

رد الأعلى صوتا والأكثر انفعالا:

- لا.. يا سيدي ! بل ألف لا... يا سيد شارل ! هذا لا يبرر لنا منحتكم لهم ! وتضيفون إلى ذلك تدريبهم بما يؤهلهم لاستخدام الأمثل لهذه الأسلحة..! فعلتم ما فعلتموه ببساطة شديدة..! نسيتم أو تناسيتم تماما ماذا سيكون تأثير فعلكم هذا على سلامة أمننا القومي ؟ والكارثة في أولاد الأبالسة هؤلاء !! قوم من أبناء العالم الثالث؛ من بلد يعاني أهله من المرض والفقر والأمية، بلد نظامه فاسد، تقبضوا على عنق قواده ! ونحن نرى كم جرفت الحياة في مجتمعهم، حتى صار شعبه مفلسا محبطا ! ضاعت بينهم كل القيم والأخلاق الإيجابية التي كنا نعرفهم بها ! ورغم كل ذلك مازال أولاد الفراعنة...قادرين بقدرة شيطانية (لا أدري من أين جاءوا بها) على تحويل ما تزعمون أنه وسائل دفاعية..! إلى أخرى هجومية فعالة ،طريقة غابت عنكم أنتم أصـــحاب براءة الاختراع ! شلة جاؤوا ليتعلموا منكم، كتلاميذ صغار، وإذا بهم ينقلبون إلى أساتذة وعقول خلاقة مبدعة ! لقد جعلتنا تلك الحفنة من ضباطهم نتشكك في أنفسنا ! نتشكك في كل قادتنا وترسانة أســـلحتنا الحديثة المتطورة، لهذا يا عزيزي لا يجب أبدا أن نطمئن لجانبهم، ولا يجب أن ننـــسى أبدا الدرس القاســـي الذي لقنوه إيانا «يوم كيبور» ! إن كنتم قد نسيتم سيدي، فنحن أبدا لا ولن ننسى..!

« 18 »

علا صوت كابتن حسان من مكانه في مقصورة القيادة، مخاطبا مساعده العجوز:

هل انتهينا من التحميل ؟

نظر جمال الذي بدا للحظة غائبا عن محيطه، إلى لوحة العدادات الأمامية، تحديدا إلى زرار، يظهر حال باب مخزن الطائرة، فوجده يضيء بلون أحمر، فقال:

مازال بعد !

تعجب حسان لطول الوقت، وعلق على ذلك مستنكرا:

لِم كل هذا الوقت ؟ تأخرنا بشكل غير مقبول !

ضغط حسان زرارا في لوحة المفاتيح العلوية، فصدر عنه زَمير متصل حاد عالٍ كأنه الاستدعاء، في أسفل الطائرة، ثم نادى زاعقا:

*** Ground .**

من بقعة أسفل المقدمة، رد الفني المسئول عن تجهيز الطائرة للإقلاع:

- أمرك كابتن؟

رد القائد مستفسرا عن سبب التأخير:

- لماذا باب مخزن العفش مفتوح !؟

---

* وتعني الطاقم الفني الأرضي المسئول عن ترحيل الطائرة.

جاءه الرد الصيانة الأرضية:

- دقيقة كابتن، سأستفسر من ضابط التحميل المسئول.

آثناء ذلك دخل السيد شومان موجها حديثه إلى القائد حسان:

- كابتن.. مسئول التحميل، يبلغ أنه جاري إنزال حقائب راكب تم إلغاء سفره، وفي غضون دقائق، سوف يتم الانتهاء، وغلق المخزن.

استقبل حسان الخبر دون تعليق، ثم انتبه إلى أن مساعده لا يبدو على طبيعته التي يعرفها، فبادره متسائلا:

- ماذا بك جمال ؟ ألم تأخذ كفايتك من النوم ؟

رد جمال بصوت بدا كأنه عائد من بعد سحيق:

- لا.. أبدا ! كل ما في الأمر أني غير مرتاح لهذا التأخير الكبير، وتغيير خط السير! لا أدري لم..! لكني لست منشرح الصدر لما يحدث..!

رد حسان بهدوء وثقة المؤمن :

- يا رجل اتركها على الله... فلن يصيبنا إلا ما كتب علينا.

كان لكلام حسان مفعول ملطف مهدئ للحالة المزاجية لجمال، فجاء رده على عادة المُسَلِم لقضاء الله وقدره، الذي ينشد الراحة النفسية في التوكل على الخالق قائلا فيما يشبه الخشوع:

- وَنعم بالله...، صحيح.. لا راد لقضائه، « توكلت على الله ».

واصل حسان بحس صوفي، حديثا مشحونا وليد اللحظة، قائلا:

- صح كده، نحن لا نملك - يا جمال يا أخويا - شيئا من أقدارنا، ولله في خلقه شؤون، هو يصرفها كما يشاء، كما تقضي حكمته، سبحانه علام الغيوب،

له الأمر من قبل ومن بعد.

سكت حسان لوهلة ثم أردف ناصحا جمال الذي استغرق في حالة من شجن تملكته آنذاك:

– أظنك لو قمت لبعض الراحة، يكون ذلك أفضل، دع العمل للمساعد البديل (قواعد العمل للرحلات الممتدة، تحتم وجود هيئتين قيادة لتبادل فترات العمل) ليأخذ مكانك في العمل الآن، ولتحصل أنت على قسط من الراحة، حتى تستعيد نشاطك وتهدأ بالا، ثم تأتي لاحقا.

رفض العجوز جمال اقتراح القائد حسان، لم يبق له في العمل إلا أياما قليلة، بل ساعات معدودة...! فكيف يلقى عرض كهذا أي هوى في نفسه ! وأي راحة هذه الذي يتحدث عنها حسان ؟ لا أحد يشعر بها، لا أحد يحس وجعه وانشغاله ! راحتي هنا يا حسان راحتي هنا يا عالم على هذا المقعد وفي هذه المقصورة التي أمضيت فيها جل حياتي العملية. بات يحفظ عن ظهر قلب اسم ووظيفة كل مسمار من مساميرها! إن أكثر ما يقلق الرجل من قصة التقاعد التي تكاد تحاصره الآن، هي فكرة حبسه وراء جدران منزله، عزله عن عالمه الذي يحب؛ فكيف يستطيع الحياة بعيدا عن هذا المكان، عن هذه الغرفة الضيقة، بما لها في نفسه من خصوصية، ورائحة مميزة جدا لها ! كيف له أن يحيا بعيدا عن مدينته الطائرة هذه، بعيدا عن حياته كطائر حر يسبح فوق السحاب، أصبح هذا هو هاجسه الأعظم؛ إن روحه تنسحب متسربة من بين يديه، تتسامى... تتحول من واقع حقيقي يحسه، يمسكه ويعيشه، إلى بخار سراب، لا أثر له إلا بضع صور، وبعض حكايات ! ستتوقف به الدنيا، ستنتهي حياته..! ستموت روحه تماما، حتى وإن استمر جسده يمارس وظائفه البيولوجية، فإن مجرد إخراجه وإقصائه عن هذه البيئة السماوية، سيكون بالنسبة له كسمكة أخرجت من الماء..!

يحاول التخلص من فكرة سوداوية، تصيبه بحالة شجن حزين، يفكر كيف

يخرج من تلك الحالة، ظن أن قليلا من القهوة ستكون كافية لاستعادة حيويته، وضبط مزاجه، فنظر تجاه شومان الذي لم يكن قد غادر بعد، قائلا له:

- والنبي.. (يا شيف) تأمر لي بقهوة دون سكر أو لبن.

ابتسم رئيس الطاقم، وقال ضاحكا:

- تؤمرني يا كابتن.. قهوة (زيرو ، زيرو)

اندفع في تلك اللحظة مدير المحطة، إلى داخل المقصورة، قائلا في لهفة:

- أخيرا كابتن... الآن فقط أقول لكم، تصلون بالسلامة.

نظر المساعد إلى لوحة العدادات التي أمامه، لا حظ أن زرار باب مخزن العفش قد تحول إلى اللون الأخضر،مما يدل على تمام إغلاقه. تمتم جمال وهو يعدل من وضع مقعده، ساحبا طرفي حزام الأمان عاقدا إياهم من الأمام، قائلا:

- يااااااه...! أخيرا... توكلت على الله.

عندئذ التفت حسان القائد، تجاه مساعده جمال قائلا:

- ونعم بالله، أطلب لنا يا جيمي الإذن بالتحرك.

غمغم جمال وهو مازال يضبط من وضع ظهر مقعده:

- OK .

عندئذ وجه الكابتن حديثه إلى رئيس طاقم الضيافة، الذي جاء إلى باب المقصورة - متوقعا الأمر- عقب مغادرة مدير المحطة، مطالبا بإغلاق باب الطائرة.

بدأ الباب في الانزلاق نازلا لأسفل، بينما مدير المحطة يلوح من على طرف الكوبري، المنسحب متحركا بعيدا عن جسم الطائرة، حاول الرجل أن ينطق؛

أن يرفع صوته، أزدرد ريقا لم يجده ! فانتبه لحظتها أنه قد نسى عطشه، واحتياجه الشديد لكأس من الماء، قال بالكاد وهو يعاني من جفاف الحلق ملوحا بيده إلى رئيس الطاقم، الذي كان منشغلا بغلق باب الطائرة:

– لا إله إلا الله.

رد عليه شومان بابتسامة عريضة:

– محمد رسول الله.

وقد لاح على باله لحظتها طيف سريع، تذكر أنه و مدير المحطة تزاملا العمل يوم أن بدءا معا في بداية حياتهما العملية بشركة الطيران، كمضيفين أرضيين، قبل أن يقرر شومان تغيير طبيعة عمله بالشركة، وينضم للعمل ضمن فريق الضيافة الجوية، ليكون في موقعه الآني على الطائرة، وزميله وصديقة في موقع مقابل على الأرض !

بعد أن اطمأن شومان، على إحكام غلق الباب، أمسك بميكرفون الإذاعة الداخلية، ثم قال بلغة إنجليزية سليمة، لكنها بلكنة فلاحي الدلتا:

* Attention cabin crew shoots on please

كلمات آمَرةٌ، لكنها صيغت في صورة رجاء بالتنفيذ من أفراد طاقم الكابينة، جاءت على لسان رئيسهم من خلال إذاعة الطائرة. فتحرك على أثرها بعض الأفراد تجاه أبواب الطائرة، أتوا بأفعال، بدت مبهمة للبعض من الركاب المتابعون لتحركاتهم. عندئذ مالت امرأة مسنة ناحية جارتها الشابة، متسائلة: ماذا قال الرجل يا ابنتي؟

---

* أمر يصدر عن رئيس طاقم الكابينة، إلى أفراد الضيافة، عند تحرك الطائرة، لوضع منزلقات النجاة، المعلقة بكل أبواب الطائرة، إلى وضع الطيران.

ردت الشابة مبتسمة مطمئنة جارتها العجوز:

– أظن ما قاله أمر خاص بعملهم، لكن – عموما – يبدو مما فعلوا أنه مقدمة لتحرك وشيك.

ردت العجوز ساهمة من قلق:

– ربنا ييسر الحال علينا يا ابنتي.

obeikan.com

«19»

في القلـب من تلك اللحظة كان الخط الساخن مازال واصلا بين الطرفين، شارل وهو الطرف الأهدأ في ذلك الحوار، استمر كما هو محافظا على ثباته الانفعالي، مستخدما نفس طبقة ونبرة الصوت، قال ليحث الآخر على التريث:

– لا داعي للـقلق عزيزي ياكوف، فمع شديد تقديري لفزعــك أو قلـقك وهو أمر بالتأكيد مشــروع، أحب أن أؤكد لك أن الأمور دائما تبقى تحت السيطرة، أولا نحن الضامن الرئيسي للحفاظ على ميزان القوى في المنطقة، ليكون دائما في صالحكم، ثانيا النظام الحاكم والمسيطر هناك، لا يجرؤ الخروج على طاعتنا، أو التصرف بأي فعل دون الحصول على ضوء أخضر منا، لهذا نحن هنا مطمئنون، ولا نرى أي مبرر لانزعاجكم هذا ...!

لم يهدأ ياكوف، ورد وهو مازال على غضبه وانفعاله:

– لا... هذا أمر تخطى الخطوط الحمراء..! لقد جازفتم بأمننا.. عرضتم سلامة شعبنا وأرضنا للخطر! فقط من أجل الحفاظ على صورتكم لامعة أمام المجتمع الدولي !! راجعوا تقارير أجهزتنا التي أرسلناها لكم.! أقرأ – سيادتكم– ما سجله رجالنا، إنه يكاد يتطابق مع ما سجلته عيونكم، عن نفس الموضوع، جماعة أولاد الشياطين هؤلاء الذين جئتم بهم لتدربوهم على أسلحتكم، لهم أفكار إبليسية ! هؤلاء لا يشغلهم شاغل غير تدميرنا وإلقائنا في البحر.! أنتم فقط تقللون قيمة الذي تداولونه فيما بينهم ! لا تقدرون الخطر الكامن وراء تلك الأفكار حق قدرها ! ربما أنكم لا تقدرونهم حق قدرهم، أنهم فراعنة جبابرة، لقد قضينا عليهم، بعثرنا أوصالهم في صحراء سيناء ! لكن بعد ست سنوات فقط، إذا بالأرض تنشق عنهم، عائدين ثانية للحياة بقوة

أذهلتنا وأطاحت بنا في بضع ساعات ! إن المشكلة في كونكم تنظرون للأمر بعيونكم لا عيوننا ! فلا ترون ما نراه..!

أخذ نفسا طويلا سمعه الطرف الآخر، ثم واصل: هناك خطر محدق بنا سيدي، لقد زرعتم قنبلة موقوتة ستنفجر في وجهنا يوما ما ! المضحك أنكم لا تهتمون لذلك، وترجعون قلقنا لهواجس عقلية، تنشأ من حالة ذعر وخوف دائم نعيشها، تتهموننا دونما تصريح، أننا نعاني (عقدة الاضطهاد) مشكلة نفسية ! لذا مَهما كان تعاطفكم معنا، أو تحيزكم لنا، فلن تشعروا أبدا بما نشعر نحن به، نحن فقط من يعيش قابضًا على الجمر، ليس أنتم سيدي بأي حال..! من الأحوال ..!

صمت لحظة يبحث عن ريق قد غاض عنه، ليزدرده، ثم أردف قائلا: ألم تتساءلوا كيف وصل (أولاد الشياطين) لأفكارهم تلك الإبليسية المدمرة ؟ ألم تقلقكم قدرتهم الخبيثة المفزعة، على تحويل ما في أيديهم من أسلحة دفاعية – تمدونهم إياها مطمئني الخاطر– إلى أسلحة هجومية، تصوب لصدورنا ! فكيف يحدث هذا على أرضكم وفي ساحات تدريبكم، تأكدت عيونكم من أفكارهم، لكنكم لم تحركوا ساكنا.. لم يرمش لكم جفن ؟ ثم تطالبوننا بضبط النفس و الهدوء..! فالأمر حسب وجهة نظركم لا يستأهل كل هذا الغضب !

حافظ شارل على برود أعاصبه، بالرغم من سخونة المكالمة، فهو يملك هدوء الواثق المدرك لأبعاد تلك الأزمة المفتعلة، قائلا:

– أنا مازلت مُصرا على أن ما ناقشوه بينهم لا يخرج عنه كونه أفكارا، غير قابلة للتطبيق ! ربما أرادوا أن يبرهنوا على ذكائهم، أو ليثبتوا لأنفسهم قدرة استيعاب التكنولوجيا الحديثة، ومهارتهم التدريبية في إجادة التحكم والتعامل مع أسلحة متقدمة بالنسبة لأناس مثلهم قادمين من بلاد نامية، من العالم الثالث..! – كما تعلمون– وقد تكون هذا الأفكار الشفهية، التي تحدثوا عنها ليست إلا حديثا عابرا، ربما للاستعراض أمام قادتهم عند العودة، أو ليقولوا

أنهم بالفعل كانوا الأنسب من غيرهم بهذه المأمورية، أو ربما لاستجداء مكافئة مالية أو ترقية.

لكن ياكوف قاطعه متهكما:

– لماذا تصرون على كون الأمر شفاهيا مجردا ؟ أولم تجد عيونكم قصاصات لرسومات تلك الأفكار ؟ إذن ما تقوله سيدي لا يقنعني، ولم يقنع أيا من مستشاري جهازنا، فمعلوماتنا المؤكدة تقول غير ذلك ! لهذا مع احترامي لشخصكم، ما تقولون به غير مقبول، وغير مصدق !! وأود أن تعلموا شيئا، بل تعلمه الدنيا بأثرها.. نحن قوم علمتنا الأيام، أن لا نترك مصيرنا لغيرنا – مع كامل التقدير لدوركم – نحن من نقوم به ونسهر عليه.. فلو تهاونا اعتمادا على آخر، فلن نلوم إلا أنفسنا ! و بما أننا وإياكم سيدي.. نرفض مبدأ البكاء على « اللبن المسكوب » يجب علينا إذن العمل بحرص حاسم، واتخاذ التدابير اللازمة كي لا نبكي فيما بعد. لهذا ليكن معلوم مسبقا لديكم، أننا لن نتردد.. ولن ننتظر إذنا من شخص أو جهاز أو دولة في اتخاذ ما نراه ضروريا – قد يكون استباقيا – من تدابير وقائية، أو خطوات لازمة على أرض الواقع، لنصون ونحمي دولتنا.

وعندئذ تلون صوت شارل لأول مرة في خلال هذه المكالمة، بنبرة تبرم ورفض مكتوم، مع صبر أوشك أن ينفد:

– عموما يا عزيزي.. علكم لا تنسون أن أحد ثوابت سياستنا الخارجية.. عدم المساس بأمنكم، ولا السماح بوجود ما يهدد أو يعرض (من قريب أو بعيد) دولتكم لأدنى خطر ! ثم إن هؤلاء عندما تحدثوا فيما بينهم عن أفكارهم، فقط على سبيل الدردشة في نهاية يوم دراسي لهم. وبمجرد أن بُلغنا، عن طريق عملائنا، بما يفكر فيه هؤلاء، قمنا أولا بدراسة الأمر، ثم تحركنا سريعا، في الاتجاه المضاد، حيث شككنا في معقولية الفكرة، وانعدام فرصة التطبيق العملي لها، بل أكدنا على استحالة التنفيذ على أرض الواقع، حيث إنهم لا يملكون

المال ولا التكنولوجيا اللازمة ! كذلك أشعنا فيما بينهم أن مثل هذه الأفكار، تولد ميتة لكونها أبدا لا تخرج عن نطاق التفكير النظري! لهذا أؤكد لك أن كل ما تحدثتم به كان حاضرا في أذهاننا منذ الوهلة الأولى، ولم نغفل عنه. وإضافة لكل ما سبق، فقد أوقعنا في روعهم أن ما قالوه خطير بل خطير جدا، ولقد قلنا تلميحا لا تصريحا، وبلغة تهديد مستتر، أن الحديث أو إشاعة اللغط حول ذلك الموضوع ثانية، ربما أدى لإيقاف برنامج لمساعدات، وأثر سلبا على مسار مهمتهم التدريبية المحددة.. !

توترت أعصاب ياكوف طرف المكالمة الأول، صارت أطرافه باردة، برودة بقايا فنجان قهوة باق في يده ! قال لنفسه بعد أن أنهك جراء هذا الحديث الطويل، وشحن صدره بالكثير من الخوف، والقلق المتزايد، وضغطت أعصابه من تراخي رد فعل الحليف ! واختناقه بمسئولية اتخاذ قرار واجب في اللحظة:

– لا بد من قرار يجهض ما يفكر به أولاد الشياطين هؤلاء، الذين إن واتتهم فرصة إزاءنا لن يترددوا !.

كانت رأسه حينها تدور باحثة عن طريقة يجهض بها تلك الأفكار التي تتصاعد منها أبخرة الخطر على أمن بلاده ! فقال فجأة بلغة عسكرية صارمة، وكأنه ينهي الحديث:

– سيدي.. أشكر حرصكم علينا وعلى سلامتنا، وأنظر بعين الاعتبار لتحالفكم وصداقتكم لنا، لكن أرجو ألا تنسوا أننا أصبحنا غير قاصرين.. نحن قادرون على حماية أنفسنا. ودعني أقول لكم من خلال موقعي هذا ومسؤوليتي تجاه الوطن، أنني لن أتردد في اتخاذ كل ما أراه لازما، وضروريا لحماية أمن بلدنا وشعبنا، مهما كانت رؤيتكم، ورأيكم، فحماية النفس والأهل من أي خطر يهددهم لهو حق مشروع لأي فرد أو جماعة أو شعب على وجه البسيطة. وسنفعل سيدي ما نراه نحن صوابا ولازما، لحماية كياننا الذي نعلم وتعلمون أنهم يتربصون به، بغض النظر عن رؤية أو إرادة العالم أجمع.

رد شارل الطرف الثاني في هذا الجدل الطويل، وهو يجاهد نفسه ليبقى هادئا، وقد اكتفى بما قاله من نصح وما قدمه من أدلة على خطأ ظنهم، فأصبحت لديه رغبة شديدة بإنهاء الحوار، بغض النظر عن قناعة شريكه من عدمه، فقد درجوا على التهويل والمبالغة في أتفه الأمور ! أخذ نفسا قصيرا، ضاغطا طرف سيجاره الأسود في منفضة السجائر البلورية بعصبية، قائلا:

– عموما يا سيد ياكوف، أظن ليس لديكم شك في أننا نتفق معكم على طول الخط، فيما يتعلق بمصالحكم، وسنعمل قدر جهدنا على تحقيق ذلك.. فهذا هو التزامنا التاريخي تجاه وجودكم. لكن فقط أرجو منكم إن سمحتم لي، ضبط النفس والتعقل في قراركم، وأرجوك كصديق، أن تطلعني عليه، وأن تحاولوا جهدكم بألا تضعونا في موقف حرج مع المصريين، أو أمام العالم، فالأمور أصبحت أكثر تعقيدا الآن عن ذي قبل.

أذهلني الحوار الذي سمعته مرئيا، خلال ذلك الشيء العجيب، الذي قذف به الشيخ الضرير إلى حجري... أهذا ما أراده ؟ إطلاعي على هذا الحوار؟ ألم يكون معلوما من قبل؟ منذ الدقيقة الأولى لموافقة مؤسستهم العسكرية، على صفقة الأسلحة تلك، وما تضمنته من برنامج تدريبي لمجموعة ضباط. والجدل منذ ذلك الحين لم ينته ! لكن تصريحات ذلك المتعجرف كبير كهان الكيان الطفيلي، زادت في الآونة الأخيرة، منتقدا قرار بيع تلك الأسلحة إلى مصر، مما رفع سقف التبرم.. من نقد ورفض، من أنصار وسدنة ذلك الكيان في مجلس نوابهم، متناسين تلك المعاهدة المبتسرة..! التي ولدت على أرضهم.. وقعتها ربيبتهم.. وضمنها رئيسهم.

ساعتها خطر ببالي كم هو غريب أمر هؤلاء..؟ الذين يتبنون أيدلوجية واحدة، ويقفون على أرضية واحدة، ولهم أهداف مشتركة، وبينهم الكثير من معاهدات واتفاقيات مكتوبة وغير مكتوبة، معلنة وغير معلنة، أولئك الذين هم أشد التصاقا بعضهم بعضا على وجه البسيطة، عندما يظهرون من بين وقت

لآخر أمام شعوب العالم خلافات وهمية، ويخلقان فيما بينهما صراعات على غرار « دون كيخوته » يتعمدون تصديرها للإعلام، لينشرها على العالم كخلاف استراتيجي عميق بينهم ! وأنهما على طرفي نقيض يقفان، وأن كلا منهما منفصل تماما اقتصاديا وسياسيا عن الآخر، كما حال انفصالهما جغرافيا..! لكن حقيقة الأمر، على العكس تماما مما يطنطنون به للملأ، فالعالم على يقين من كونهما كيانا واحدا، منفصما إلى نقطتين – فقط – على الخريطة.

هالني ما عرفته من عين العفريت، عن شخص الطرف الأول في ذلك الحوار، صاحب الصوت العصبي الحاد، والنغمة المتوترة المدعو... ياكوف بنيامين، فهو مدير معهد استخبارات ومهمات خاصة، أسس على أرض سبية.. سليبة.. تعرف باسم « تل الربيع«. معهد مهمته جمع المعلومات، منع تطوير الأسلحة غير التقليدية، وإحباط التسلّح بها من قبل جيران ترفضه وسياسته. أيضا يقوم بتنفيذ كل العمليات القذرة السرية خارج حدود الكيان. جهاز هو صاحب أكبر تاريخ اغتيالات في العالم كله، وأقبح سيرة بين أمثاله من أجهزة القمع والمخابرات العالمية، واشتهر بمسئوليته عن ذبح علماء الذرة، وكل النابهين من أبناء منطقتنا.

أما شخص الطرف الثاني ذو الصوت الهادئ، والشخصية اللينة المطيعة في ذلك (الديالوج) المرهق والطويل، هو السيد شارل قزمان، رئيس وكالة مخابراتية مركزية، تقوم أيضا بجمع المعلومات عن الحكومات والأحداث الخارجية والأشخاص. ويقع مقرها في بلاد العالم الحديث. رجل له منصب، ودور كبير في صناعة سياسة بلاده، لكنه يقف دائما عاجزا أمام الطرف الأول كأنه تلميذ صغير، أمام ولي أمره، يتلقى منه اللوم والتوبيخ على سوء تقديره، وبلادة تصرفه..!

«20»

كان وضع منزلقات النجاة على وضع الطيران، فعلاً مبهماً قام به أفراد الطاقم، لم يفهم دلالته غالبية الركاب..! هدأ الجميع واستقر كل في مقعده المحدد. هدوء نسبي غَشَّى المقصورة بشكل عام. صمت هش نسجه الجميع دون اتفاق مسبق، مزقته ذبذبات صوت أجش، لكبير الطاقم الذي يغلب على لسانه لكنة أهل الدلتا، عاد موجها كلامه هذه المرة إلى الركاب.. بعد ترحيبه وزملائه بالركاب، وقدم اعتذار الشركة عن التأخير الخارج عن إرادتهم، قائلا: « السيدات والسادة: نيابة عن شركة الطيران، وأعضاء هيئة القيادة، والكابينة أرحب بكم معنا... ...»

استرسل الصوت شارحا مقدما بعض المعلومات والبيانات وأرقام يهتم بمعرفتها بعض الركاب: طراز الطائرة.. رقم الرحلة ووجهتها، إضافة إلى سرعتها وارتفاعها عن سطح البحر، أيضا الزمن المتوقع حتى الهبوط. وقبل أن ينهي طالب الركاب راجيا، في لهجة مشددة شبه آمَرة بتنفيذ الأتي:

ربط حزام المقعد، رفع ظهره إلى وضع قائم، اتباع إشارة عدم التدخين، وأضاف: سيتم تخفيض إضاءة الكابية أثناء عمليتي الإقلاع والهبوط! عندئذ انتشر أفراد جماعة العمل ثانية في ممري الطائرة، متابعين تنفيذ تعليمات طلبت منهم، ومساعدة أولئك الذين يصابون باضطراب مع الطيران لخوف أو ربما لانعدام الخبرة.

زيادة ساعات الرحلة عن المتوقع، جاءت كخبر غير سار حط على رؤوس الركاب، ضغط إضافي نفسي وعصبي يمارس فجاجته عليهم، لا أحد يحب الانتظار، أمر ممل لهم، مرهق مزعج لذويهم، هؤلاء الذين كتب عليهم

الانتظار، خلق الإنسان عجولا، لبعضهم ثقافة تقول: وقوع البلاء ولا انتظاره. تلك التي لا يعرف مداها إلا الله...!.

قاعات الانتظار! هي ساحات يصلب فيها الوقت على جدران الوهم، غرف يجلس فيها الضجر على مصاطب من صبر، حيث يصاب الوقت بشلل رباعي فتتصلب دقائقه، ولا يتحرك إلا محمولا على تروس صدئة، يدفعها انبطاح زاحف على شفر الصراط، وكأن لحظة الوصول لن تأتي أبدا.. !

تململ الركاب في مقاعدهم.. تأففوا ضيقا و ضجرا، كسا الامتعاض الوجوه، تلونت الملامح بعلامات القنوط.. ! تصاعدت همهمة بين مقاعد الجلوس، حتى صارت غيمة كثيفة خيمت فوق الرؤوس، الجميع يجتهد لإيجاد تفسير أو تبرير يكون مقبولا لتلك الزيادة الملحوظة في زمن الرحلة المعتاد ! بدا الأمر كمن فرض عليه الاستسلام، لا حيلة له إلا تقبل الأمر والواقع ! سكن البعض ممصمصا شفتيه كاظما غيظه، مسلما أمره لله، وبعض ثان تمتم محوقلا، ضاربا كفا بكف تعبيرا عن غضب ويأس تملكاه، أما البعض الأخير فقد راح يسخر مطلقا تعليقات لاذعة مريرة أحيانا، صادمة أحيانا أخرى، من ذلك الموقف السخيف ! حالة إحباط حطت عليهم، كغراب البين أسود مشئوم، أفسد يومهم وأصابهم بعَطلة وتأخير غير متوقعين ممجوجين ! حتى إن قهقهة مباغتة عالية انفجرت غير مبررة وسط هذا الجو المتوتر، تلقفها البعض بابتسامة فاترة، والبعض بحيادية خاملة، وبعض ثالث باستنكار حاد، صبغ وجههم بقرف رافض!

بدرت ردود أفعال تنم عن تعجب واستنكار، صدرت عن بعض تلك الزمرة من الركاب التي عَلت وجوههم مسحة عسكرية، ثار بينهم حديث خافت هامس، هم الأقرب من بين الركاب لعالم الطيران، يحاولون عن علم وخبرة تفسير الأمر، أو استنباط السبب وراء هذا التغير الطارئ، الذي أدى لإطالة زمن رحلة العودة إلى وطن بعدت ريحه عنهم! فالشوق تعاظم والتهب،

من غربة طالت، وثقلت.

جاءُوا في مهمة محددة الهدف، جاءُوا والتصميم يملأهم لإنجاز وتحقيق ما كلفوا به، لم يستكينوا. لم يركنوا إلى لهو وإغراءات يسرت لهم، إلى حد أن برنامجهم اليومي، المعد منذ ساعة وصولهم وحتى المغادرة، تضمن ساعات طويلة للترفيه وللتسوق..! عالم يرتفع فيه سقف الحرية الشخصية إلى ما وراء حدود مجتمعهم الشرقي المصري، بكل أعرافه وتقاليده. لكنهم رفضوا إضاعة الوقت، فضلوا التركيز على إنجاز مهمتهم في أقل وقت ممكن، حولوا ساعات الترفيه والفسحة إلى ساعات للتحصيل والدرس، نجحوا ببراعة في تحقيق ما كان مطلوبا منهم بل إنهم تجاوزوا متخطين حدود المطلوب.

Omelkan.com

«21»

تفوق التلميذ على أستاذه.. أظهروا مهارة أبهرت محاضريهم، فَهِموا واستوعبوا في مدة زمنية قصيرة، مقارنة بما قد يلزم نظرائهم من جنسيات أخرى، أنجزوا بامتياز كل ما طلب منهم من درس نظري، وتدريب عملي..! هؤلاء كانوا جماعة مختارة من أبناء المؤسسة العسكرية، رشحوا للحضور إلى أرض الدولة المصنعة، في إطار اتفاقية مسبقة بين البلدين، لتطوير أسلحتهم. جاءوا لإنفاذ برامج تعليمية محددة، لتأهيلهم للعمل على سلاح متطور جديد، ضمن صفقة ضخمة لبيع مهمات دفاعية. متفق أن تسدد قيمتها الأولى من خلال معونة تقدم لهم.

أمر غير متوقع قفز إلى سطح الأحداث ! في الأيام القليلة التي سبقت نهاية المهمة. جاء الأمر خارجا عن كل الحسابات والتوقعات..! لم يكن مقررا ضمن سياق الخطة التدريبية الموضوعة؛ أن تصل جماعة المتدربين هذه لما وصلوا إليه ! فهدف بعثتهم نصت عليه بوضوح، صيغة الأمر التدريبي الصادر إليهم. إضافة لما طلب منهم شفاهة قبل السفر من القاهرة، وأعيد عليهم ثانية من باب التنويه والتأكيد في أول محاضرة - تعليمات وقائمة ممنوعات - ألقيت عليهم بعد وصولهم إلى هنا، حيث تلك القاعدة العسكرية الضخمة. تم تذكيرهم قبل أي شيء بأنهم جاءوا فقط من أجل التدريب، على كيفية استعمال وطرق صيانة هذا السلاح (الدفاعي) الجديد، المقرر حسب الخطة المفترضة أن تتسلمه قواتهم المسلحة في غضون الشهور القليلة القادمة.

كلام وأفكار تناقلوها فيما بينهم تتحدث عن مشروع، إن تحقق فهو يطيح بكل المحظورات! نقلت العيون المنزرعة حولهم، والمتلصصة على أفكارهم وأحلامهم، صورة كربونية لما يدور بينهم فكان بمثابة قنبلة ثلاثية الأبعاد،

انفجرت في آن بثلاث قارات !

ثلاث نقاط تظهر على الخريطة كجزر متباعدة منفصلة، البعض يحسب أن شهر العسل ربط بينهم بعد توقيع تلك الاتفاقية الشهيرة، وأن روحا من التعاون والتنسيق قد ملأت كل الفراغات البينية الواقعة فيما بينهم، لكن حقيقة الأمر تقول غير ذلك، فسطح اليم الهادئ قد يخفي أسفله بركانا في حالة فوران مستمر ! يكاد يكون الحال السائد بينهم كما كان قبل تلك الاتفاقية، أو ما تلاها من اتفاقيات ثنائية أو ثلاثية ! سلام زائف، كثيرا ما يهتز بعنف أمام أطماع ذئب الصهيونية اللئيم!. الأمن هو ذريعتهم التي بها يعيثون فسادا من قتل أو تدمير! تقف أمريكا الراعي والشاهد على تلك الاتفاقيات منذ يومها الأول موقفا سلبيا ! تدعي أنها شرطي المنطقة، تراقب تنفيذ بنود تلك الاتفاقية بالشكل الذي يحفظ تفوقهم إقليميا.

ردود أفعال متباينة، على مشروع ليس إلا جنينا في رحم العقل ! كانت المفاجأة في تسرب ما دار بينهم، هم لم يعلنوا عن شيء، ربما فقط بعد الرسوم التقريبية على قصاصات حرصوا على تمزيقها قبل أن يفضوا تجمعهم !

طارت الأخبار سريعا إلى القارات الثلاث، رد الفعل على الخبر جاء متباينا بين التحفظ والغضب. الأمر برمته كان مفاجأة للجميع، حتى لأنفسهم، جاء مخالفا لكل التوقعات، خارج كل الحسابات ! ظنت جماعة المبعوثين أن مشروعهم الذي سهروا عليه في أوقات راحتهم، وحرصوا على إخفائه عن كل الأعين، سيكون محل تقدير وإعجاب من رئاستهم عند العودة، بل ذهب حلمهم أن قد تقوم مؤسستهم فيما بعد بتسويق فكرهم العبقري، وربما تلقفته أمريكا مقابل مبلغ طائل، ظنوا دون ريبة أو شك أنهم سيكونون محل افتخار وتقدير من مؤسستهم العسكرية، لم يتصوروا أن ما غلفوه بالحيطة، وتداولوه في جلساتهم الخاصة طي الكتمان، سيكون كاملا بلا أدنى نقصان أمام أجهزة مخابرات الآخرين، فاتهم أنهم على أرضهم، في قلب أبنيتهم وهناجرهم، فاتهم

أن أنفاسهم هنا معدودة عليهم، لم يحسبوا رد الفعل أن الأمر تسرب إليهم، لكن كيف له أن يتسرب أو يعرف به أحد وهو فكرة تعيش في أدمغتهم ؟ لم يخطر لهم، أن مثل تلك الأفكار والحديث عنها، قد يفتح عليهم بابا من أبواب جهنم..!

فكرة عبقرية سهلة التنفيذ قليلة التكاليف، مشروع متكامل يقلب تصنيفه من سلاح دفاعي؛ إلى سلاح هجومي قوي فعال. كانوا سعداء فخورين بما توصلوا إليه، لم يتخيلوا للحظة أن اجتهادهم ونبوغهم محل لوم أو عتاب ! غريبا كان رد الفعل الذي جاءهم !! أعلنت كل الجهات عدم الرضا لما أقدموا عليه ! قامت الجهة المانحة، والمسئولة أيضا عن تدريبهم من خلال الاتفاق المبرم بين البلدين، بالتصريح بأن مثل هذا المشروع يعد انتهاكا صريحا لقواعد برتوكول التعاون الموقع بينهم، واتهموا أفراد البعثة، بأنهم قاموا وبدون أذن مسبق بالعمل خارج إطار الاتفاقية، التي يجب أن تكون محترمة وملزمة لكل الأطراف، وأنه لا يجوز بأي حال الإخلال بشروطها وبنودها. وبناءً عليه قاموا وبشكل غاضب بمصادرة قصاصات تم تجميعها بشكل مثير للعجب ! أبلغوا اعتراضهم للقاهرة، وطالبوا أن يوقع الملحق العسكري لديهم إقرارا بصفته، ليقر فيه عدم أحقية مؤسسته بتنفيذ مثل هذا المشروع مستقبلا، أو أي مشروع أخر قد يغير من وضعية وتصنيف السلاح محل الاتفاق. أرسلت العاصمة لقائد المجموعة، ببرقية شديدة اللهجة، تلومه فيها على خروج أفراد البعثة، عن مقتضى مهمتهم الموكلة إليهم.

كان الأمر يدعو للسخرية، لم يتخيلوا أنهم مطالبون بعدم التفكير.. أو الخروج عن الإطار المرسوم والمعد مسبقا. تخيل بعضهم أن الأمر لن يخرج عن كونه زوبعة في فنجان، قد انتهت عند هذا الحد، وأن ملف ما اعتبره الآخرون مخالفة، قد أغلق وانتهى عند حد ما وجه إليهم من لوم .

في تلك الأثناء كان الطرف الثالث الذي بدا ظاهريا أنه غير موجود، و ولا

دراية له بخبر المشروع العبقري للبعثة المصرية، أو أنه لم يسمع بالحوار الدائر هنا ! أو ربما هكذا أريد تصوير الأمر لأفراد المجموعة ! كانت الحقيقة الغائبة تقول عكس ذلك تماما فالطرف الثالث الذي بدا غائبا، كان حاضرا وبقوة، وربما عيونه وأذنابه هم من تنصتوا واكتشفوا سر فكرة بعثة المصريين، وإن لم يظهروا في المشهد.

لم يقبل ذلك الطرف وجهاز مخابراته، أن فتيل الأزمة التي فجرتها أفكار هؤلاء، قد نزع بإقرار- مجرد ورقة- وقعه نيابة عن حكومته الملحق العسكري . أعلنوا صراحة ودون موارية أن تصرف أفراد البعثة المصرية، غير مسئول وينم عن نوايا هجومية، ونزعة عدوانية، وعداء للسامية، وأن مصدر هذه الأفكار وهذه الأفعال - على حد وصفهم - يعد لغما موقوتا قد ينفجر بأي وقت مسببا دمارا غير محسوب.

حاولت صديقتهم المانحة طمأنتهم، لكن لم ينته حوار بدأته معهم على أمل إقناعهم أن قراءتهم للموقف فيه مبالغة غير مطلوبة، وأن الموضوع برمته تحت السيطرة، فالأمر لم يتعد كونه مجرد أفكار لم ترق لمستوى المشروع ! وأنها على المستوى العملي غير قابلة للتطبيق أو التنفيذ. كما أضافوا من باب تهدئة الخاطر والبال، لربيبتهم الشرق أوسطية، أن هذه المجموعة التي تحمل مثل هذه الأفكار، ستخضع بصفة مستمرة لمتابعة ومراقبة لصيقة راصدة لأفعالهم وأفكارهم، كما أننا سنطالب حكومتهم بل ورئيسهم أن يعطينا ضمانات كافية، تلتزم به مؤسسته العسكرية، لمنع وقوع مثل هذا الأمر مجددا.

جاء رد حليفتهم مائعا فضفاضا مبهما، حيث قالوا مخاطبينهم:

- سوف نتعامل مع الموضوع بطريقتنا، وسوف نعمل ما نراه صوابا للحفاظ على أمن بلادنا وشعبنا. وليكن معلوما لديكم أن الدفاع عن أنفسنا هو أولويتنا الأولى وحقنا المكتسب دون الرجوع لأي جهة من الجهات! وها نحن قد أبلغناكم بأننا لن نقف مكتوفي الأيدي أما هذا الخطر القائم، ولسوف

نتخذ ما نراه ضروريا، ولسنا في حاجة لأي ضوء أخضر منكم، للتصريح لنا بحماية أنفسنا فهذه مسلمات غير خاضعة للمناقشة أو الحوار عنها مع أحد غير أنفسنا، وربما نتبادل معكم الرأي لكونكم حليفنا الاستراتيجي، أو من باب الإحاطة علما، لكن أبدا ليس من باب الاستئذان، أو الحصول على موافقتكم.

obeikan.com

«22»

توقفت حركة الهواء في مقصورة الركاب، المكتظة بأجساد ساخنة تتفصد عَرقا، فاشتعل جوها واختنقت الأنفاس اللاهثة، رائحة الهواء الراكد صارت غريبة، لها عبق يزكم الأنوف، نتاج اختلاط بقايا: معطر هواء، بخر أنفاس، روائح لعطور غالية وأخرى رخيصة مقلدة. الحركة مازالت مستمرة داخل الكابينة وإن هدأت قليلا، أفراد طاقم الضيافة مازالوا يجوبون المكان، هم هنا وهناك في مقدمة الكابينة ومؤخرتها، في ممرها الأيمن والأيسر، يمرون... يرمقون... يلاحظون... يشاهدون، يتوقفون... يراجعون... يأمرون... يصححون.

تحركاتهم وأفعالهم تقول إنهم لم ينتهوا بعد، عملية تفقد واسعة لأمور متباينة كبيرة وصغيرة لدرجة قد تزعج الراكب في بعض الأحيان، رغم أن جميعها من أجل تأمين سلامته: أحزمة المقاعد، وضعية ظهورها، مناضد طعام الركاب، المنطبقة في جانب بعض المقاعد، والمعلقة في ظهر بعضها الأخر، التأكد من الأرفف العلوية ودرجة إحكام غلقها. فتح حاجب ضوء النوافذ، التأكد من خلو الحمامات من شاغليها.

« مخرج » كلمة بالإنجليزية كتبت بلون أحمر تضيء، كإشارة إلى منافذ الخروج الرئيسية، الموجودة في أكثر من نقطة داخل الكابينة، في حالات الطوارئ. أشياء وحقائب يدوية تركها بعض الركاب في مساحة الفراغ المحيط بتلك المخارج! لوحظ إصرار الطاقم على رفعها، للاحتفاظ دائما بهذه المنافذ دون إعاقة. مفردات كثيرة متعددة، تتعلق جميعها بعنصر سلامة الطائرة والركاب.

أصوات متداخلة، صياح وهمهمات، مشادات كلامية طارئة تعلو حينا وتخبو آخر، مناوشات لفظية ،صوت نسائي رفيع حاد؛ يعلو دونما توقع ! امرأة بدا من الوهلة الأولى أنها مستنفرة متحفزة للاشتباك، ترفض الانصياع لتوجيهات الضيافة، لا تقر تعليمات الأمان بشأن رضيع تحمله أثناء عملية الإقلاع المرتقبة..! شاب يرفض ربط حزام المقعد بزعم أنه يخنقه ! آخر يأبى رفع ظهر مقعد إلى وضعية الإقلاع. كل هذا يدور على خلفية من أحاديث أخرى قصيرة عابرة. تعارف ينشأ بين جيران الرحلة، سفسطة وتعليقات ناقدة لاذعة، وضاحكة ! وشوشة خافتة، قد تفتح طريق حوار، يتجاذب أطرافها الحديث.

كان أمين المميز، برأسه الحليق تماما، وكأنه عائد من أداء مناسك الحج، بين أقرانه في تلك المجموعة، ذات الصبغة العسكرية، يميل ناحية جاره السيد شاكر، متسائلا:

- من الواضح سيادتك أن هناك تغيرا في خط السير..!

بدت ملامح من الضيق، مرسومة على وجه الرجل، تعلن عن امتعاضه، عن عدم رغبته في التحدث، فقال، معربا عن ذلك بجملة منهيا بها الحوار:

- أي شيء متوقع بعد هذا التأخير..!

واصل الشاب الحديث موجها كلامه إلى جاره بشيء من الإصرار، كما لم ينتبه، أو متناسيا تماما حالة الرجل المزاجية:

- سيدي ما أعرفه في حدود علمي يقول: إنه من المفترض أن يكون خط سير عودتكم مختلفا عن باقي المجموعة، والترتيبات والخطوات كانت فعلا تسير في هذا الاتجاه، وأظن جميعا يعلم هذا ! عودة سيادتكم مفترض ألا تكون في وقت واحد معنا، لكن باكر عن طريق باريس..! أليس كذلك ؟ فماذا حدث؟ ماذا جعلكم - عفوا- تنضم إلى مجموعتنا ؟

أجاب الرجل بنبرة محبطة، تدل على مدى انزعاجه وضيق صدره، من تغير أفشل خططه، وأجبره على ترك أشياء تعني له الكثير، بعد أن أخذ نفسا عميقا:

– نعم.. ! هذا ما كان مخططا، لكنه الإضراب – لعنه الله– إضراب عمال الشحن في مطار شارل ديجول باريس، الذي سيبدأ غدا، سيربك حركة الطيران هناك !

تراقصت على وجه الشاب حليق الرأس علامات التعجب، كرد فعل طبيعي على ما سمع من إضراب مزعوم، قال متعجبا:

– عن أي إضراب سيدي تتحدث ؟ لقد أمضيت ليلتي بالأمس، أتابع الأخبار على القنوات الإخبارية المختلفة، وما أكثرها هنا، لم يرد خبر واحد عن ذلك ! مطار شارل ديجول سيدي يعتبر من أول نقاط الهبوط للطائرات القادمة من الغرب عبر الأطلنطي في اتجاهه الشرق، ومثل هكذا إضراب يؤثر بشكل كبير على حركة الطيران القادمة والمغادرة، فلو كان هذا الأمر حقيقة لما أغفلته وكالات الأنباء..!! من أخبرك هذا الهراء سيدي ؟ !

رد السيد شاكر مبتئسا، وقد زاد امتعاضه، لاكتشاف أنه قد غرر به، إضافة لضياع نهارا كاملا في باريس، حتى رحلة القاهرة المسائية، فقال بعد أن ازدادت حيرته:

– كل ما أعرفه أن صباح الأمس، أخبرت بوجود رسالة تنتظرني ببهو الاستقبال، تعجبت من الأمر، لكني لم أتردد في الذهاب فورا لاستطلاع الأمر، كانت تذكرة الطيران مرفقة برسالة اعتذار قصيرة، عن تغير الحجز وخط سير العودة..! وسُببت بتعطل الطيران إلى باريس نظرا لإضراب عمال الشحن بالمطار الفرنسي، لقد تكدرت للأمر، فبعد أن خططت لقضاء نهار كامل هناك، وتحقيق طلبات الأولاد ! للأسف كانت فرصتي الأخيرة لزيارة عاصمة النور ! تنهد ثم أردف قائلا: نصيب !

لم يعقب الشاب أمين، صمَتَ شاكر لوهلة، ثم تنهد ثانية والتفت تجاه

محاوره، واستدرك متعجبا، قائلا:

– إن ما تقوله منطقي جدا، لكن كيف أفسر أمر هذا الإضراب الذي ادعوه في رسالة الاعتذار ؟ وما السر وراء هذا التغير المفاجئ ؟ عاد والتفت إلى الأمام، ناظرا إلى لاشيء، مبحلقا في الفراغ، كأنه يفكر في أمر ما، ثم عاد يقول:

– العجيب، أن مثل هذا الأمر قد تكرر وإن كان في صور مختلفة وأساليب مغايرة، مع عدد آخر من أفراد مجموعتنا. ونتيجة ذلك الفعل الملغز، جاء هذا التجمع الغريب المخالف لكل القواعد والأعراف التي تنظم تحركاتنا..! وقد حاولت عن نفسي الاستفسار عن السبب وراء ذلك..! اتصلت مساء أمس بضابط الاتصال بمكتب قنصليتنا هناك، لكن الرجل أبدى اندهاشه، وطلب مني مهلة ليستفسر عن الأمر، ثم وجدت أن المعلومة التي جاءته لا تختلف عما أعرفه، رغم تشكك أنت في حقيقة وقوعها، أو حقيقة وجودها من الأساس !!

لم يرد أمين، على ملحوظة السيد شاكر، بأكثر من مط شفتيه، دلالة على عدم وجود تفسير مقنع للأمر بالنسبة له أيضا، مع استنكاره للفعل خصوصا أنه قد وقع مع شخصية محبوبة منهم جميعا، شخصية السيد شاكر بما لها من قيمة ومحبة في قلوب كل من حوله، من أفراد جماعتهم الصغيرة هذه، عقب شاكر: ربما نجد الإجابة على هذا التساؤل مع نهاية الرحلة.

« 23 »

هدأوا بعد أن شعر كل منهم بانتهاء فترة التأخير، فها هي الطائرة على وشك التحرك لبدء رحلة العودة، ارتاحوا بعد أن تخلصوا مما كان يشغل أيديهم، بوضعه على الأرفف العلوية، أو زنقه في المساحة الضيقة أسفل كل مقعد. هجع كل منهم وسكن، ثم غاص في ذاته لحظة سكون نسبي، قد يحتاج إليها المرء، من آن لأخر علها تساعده على جمع شتات نفسه ولملمة شظايا فكره.

لم تمض دقائق حتى انشغل البعض في محاولة للتعرف والتآلف مع المقعد والمساحة المحيطة به، والبعض اشتبك مع رفقاء السفر، بأحاديث جانبية، أما من لم يفلح في هذا أو ذاك فقد أخذ يتطلع حوله، مترقبا متحينا الفرصة، عله يجد فيمن حوله، من يبدأ معه ثرثرة قد تبخر شيئا من ماء أجاج لبحيرة وقت الرحلة الراكد ! أو ربما تفتت حصيات انتظار؛ تسد مجرى الوقت ! فالانتظار داء سقيم ثقيل، إن ابتلى بشر به فليس أمامه غير دعاء ربه أن يخفف ويقضي عنه !

مجهود كبير بذل في جر و رفع حقائب اليد وما يشبهها، بدا واضحا على وجوه الركاب، فاستسلم بعضهم لإرهاق تملكه وجلس بلا حركة، والبعض تعمد إغماض عينيه، عله يفوز بإغفاءة قصيرة، وآخرين أرسلوا رؤوسهم إلى الخلف، استجداء لاسترخاء غاب عنهم لساعات، ربما خفف من حدة توتر وضغط عصبي، لازمهم منذ لحظة الوصول إلى المطار، أي قرابة خمس ساعات أو يزيد..!

---

*كلمة تعني تحرك الطائرة إلى الخلف، بواسطة عربة ثقيلة خاصة تدفع الطائرة، إلى الوراء.

* Ready to push back عبارة رنت في مقصورة القيادة، على لسان طاقم الصيانة الأرضي، حل على أثرها القائد، مكابح الطائرة، فأصبحت جاهزة للدفع إلى الخلف، فرد عليهم كابتن حسان، قائلا:

- Brake Release*

اعتدل المساعد جمال في جلسته، وهو يتمتم:

- توكلت على الله.

في تلك اللحظة، سُمع صوت صدمة قوية، مصحوبة باهتزاز مفاجئ ! تحركت بعده الطائرة بيسر إلى الخلف، انتبه الجميع، تلفت بعضهم مستطلعا الأمر، يبحثون عن وجوه طاقم الضيافة علهم يستمدون بعض الطمأنينة من وجوههم! قطعت تلك الحركة الخشنة، حديث دائر بين رجلين من المجموعة العسكرية، فنطق أحدهما مغمغما بنفس اللفظة الإنجليزية التي رنت في مقصورة القيادة، فأمّنَ الآخر على صحة ما قاله، بحركة لطيفة من رأسه.

بدأت الطائرة تنزلق بهدوء متقهقرة إلى الخلف، مما جعل جميع الركاب وبحركة غير إرادية، يبحثون بسرعة عن أحزمة المقاعد، تحسسونها للتأكد من انضباطها، أو ربما لربطها! ورغم ضرورة الأمر، مع بساطته ومنطقيته، إلا أن هناك دائما نسبة نافرة رافضة لا تقبل فكر الانضباط والالتزام إلا قسرا! لكن بعضهم لم يتردد في ضبط ظهر المقعد حتى يكون في وضع معتدل رأسي، كما طلب منهم.

كان دفع الطائرة إلى الخلف، بتلك الحركة الخشنة، مباغتا بشكل أدى لانزعاج غالبية الركاب، لكنهم سرعان ما استسلموا عند إدراكهم دلالة الحدث. خطوة ضرورية أولى، إشارة لبدء التحرك، تدفع الطائرة على أرض المهبط، حتى توضع مقدمتها في اتجاه مدرج الإقلاع. غالبا ما يكون بدء الحركة

* تعني فك مكابح الطائرة، لتتم عملية الدفع للخلف.

إلى الخلف، غامضا مبهما للبعض! فكيف للطائرة أن تتحرك، دون سماع هدير دوران محركاتها...؟

مسنة ترتدي فستانا أسود وطرحة سوداء، يتدلى من عنقها سلسلة طويلة سميكة، تنتهي بصليب ذهبي يبدو ثقل وزنه بمجرد النظر إليه. رفعت يدها إلى صدرها، رسمت علامة الصليب وهي تتمتم « باسم الصليب » تلفتت حولها بشيء من الريبة والارتباك! لوت رقبتها نظرت من خلال إحدى نوافذ الطائرة التي تجلس إلى جوارها، حدقت لبعض الوقت في فضاء خارجي، كان ضوء النهار آنذاك قد ولى، لم تستطع أن تجد جوابا لعلامة استفهام تدور أمام عينيها، لم تجد ردا عن حيرة تملكتها لطبيعة ما يدور حولها، مالت ناحية جارتها الشابة هامسة متسائلة:

- هل طارت الطائرة ؟ أم ما زلنا على أرض المطار ؟

ابتسمت الشابة بوجه بشوش طيب، ربتت على ظهر يد جارتها العجوز، مطمئنة مجيبة على تساؤلها:

- لا.. يا أمي، ليس بعد..، ما زلنا على الأرض، فقط الطائرة تحركت إلى الخلف.

ردت السيدة المسنة، وهي مازلت ترفل في حيرتها:

- عجيبة... ! كيف..؟ أتتحرك دون أي صوت..! كيف ذلك ؟ تتحرك ولم يَدُرْ لها أي موتور بعد ؟

عاودت الشابة الابتسام بود محسوس، وهي تقول شارحة كمن لها علم بالطيران، مبسطة الأمر وكأنها ترضي فضول طفل صغير:

- الطائرة يا أمي ليست كما السيارة، هي لا تتحرك إلى الخلف، لكن تدفع إلى الخلف بعربة ضخمة ثقيلة، كمجنزرة عسكرية، حتى تخرج من مكان الانتظار الضيق إلى آخر واسع، ساعتها تدور المحركات، فتتحرك الطائرة، بقوة الموتور.

كانت السيدة تهز رأسها، منبهرة بما تسمع، وعيناها تبحلقان في محدثتها في محاولة لفهم واستيعاب ما تقوله جارتها، جاء حديث الشابة الودود كمخرج للعجوز من قلق يعتريها، فهي لأول مرة تطير بمفردها عائدة لدارها، وقالت بصوت مرتعش:

- ربنا يطمنك يا بنتي، ويريح قلبك .

جاءت الأرملة العجوز من قلب الصعيد إلى منتهى غرب الدنيا، نزولا على رغبة ابنها الملحة، فالأمر ليس هينا عليها، فهي لا تحب أن تترك دارها وفرشتها، جاءت (لمِريكَا حسب نطقها) منذ فترة بصحبة ابنها، كان ذلك بمناسبة حصوله وعائلته على الجنسية الأمريكية لزيارة بيتهم وبلدهم الجديد. لكن بعد ما ضاع حماس اللقاء وفترت سخونة الأيام الأولى، بدأت الأم في التململ، وبدأ الحنين يملك عليها أحاسيسها، فبعد فترة ليست بطويلة قالت لابنها:

- يا ولدي .. لا بد لي من العودة لداري، بلدكم حلوة وهواها نظيف، وعيشتها هانئة، لكن من المؤكد أنها ليست بلدي..! لا أدري يا ولدي فهناك ما يشدني دائما للعودة؛ حاسة كأني شجرة خلعت من أرضها ! كيف لي يا ولدي أن أعيش بعيدا عن الأرض المدفون فيها أبوك؟ وأبويا وأمي وأخواتي !؟

رد الابن وهو يتعجب من طلب أمه الذي ظن أنه يوم جاء بها إلى الجنة الموعودة، لن يسمع منها مثل هذا الطلب، خصوصا مع ما يراه من معاملة حنونة ودودة من زوجته وأولاده لها:

أمرك غريب يا أمي ! ناس كثيرة في بلدنا تحسدك على مكانك، يحلمون بفرصتك هذه؛ ناس كثيرة مصدقة أن أمريكا هي جنة الرب على الأرض !

ردت الأم على كلام ابنها مبررة موقفها، شارحة له مشاعرها التي غُم عليه فهمها، وهي تضحك قائلة بلهجتها الصعيدية:

– جَنَتِي يا ولدي في مصر المبروكة، اللي داس أرضها يسوع، في بيتي وفرشتي.. (صمتت.. تستدعي ذاكرتها البعيدة) ثم أردفت: أبوك – الرب يقدس روحه – كان غاوي الكلام الزين، وكان فيه شاعر – ما خبراش اسمه – يقول الواحد مننا، لو حتى في الجنة، روحه دائما ترفرف وتحن لبلده.

قال الابن كمن غلب على أمره:

– « وطني لو شغلت بالخلد عنه.. نازعتني إليه في الخلد نفسي».

تصمت لشحذ الذاكرة، ثم تواصل: أبوك نهار ما قالوا: إن أبو ميلاد، صاحبه مهاجر، ماشي بلاد بعيدة..! لم يفهم !! ضرب كفا بكف، وقال والدموع في عينيه: كيف.. يقدر إنسان يعيش بعيدا عن وطنه..؟ عن أرضه وناسه ؟ ! وكان يقول لي يا غالية: بلدنا هي البحر وإحنا فيها سمك، لو خرجنا براها نموت !

حاول الابن مع أمه كثيرا، ألح الأحفاد على الجدة لتبقى، لكنها قالت، ضاحكة:

– خلاص يا أولادي.. المخ الصعيدي، طلب السفر.

بشيء من فضول امرأة عجوز أو ربما حفاظا على الحديث موصولا، اتقاء لوحدة قد تبقيها في مقعدها ساعات طوال، مطبقة الفم حبيسة اللسان، بلا كلمة تتبادلها مع إنسان ! مالت العجوز ناحية جارتها الشابة وهي تقول:

– طيب وأنت ليه يا عروسة مسافرة وحدك ؟ يجوز من هم مثلي وفي سني فلا خوف عليهم ! لكن عروس مثلك في جمالها وشبابها، تسافر بمفردها ؟ هذا شيء غريب ! لا بد من حكاية وراء هذا ؟

ابتسمت المرأة الشابة ابتسامة لكن بها كدر وحزن وهي تقول:

– لا عروس – يا خالتي– ولا يحزنون. .!

تغيرت ملامح وجه العجوز تأثرا بما سمعت، وسريعا ما كست وجهها علامات الأسى، وعلقت بصوت تشوبه نبرة حزينة:

– لماذا يا بنتي كفى الله الشر ؟

أخذت الشابة أو العروسة كما أسمتها العجوز نفسا عميقا، ثم نفثت ما بصدرها، هواء بسخونة ألم يعتصرها، فجاءت كلماتها كنغمات ناي ينعي حظه ويلوم الزمن، وهي تقول:

– إنها حكاية طويلة يا خالتي، لا داعي تصدعي رأسك بها..!!

كانت تلك الكلمات كفيلة بإثارة فضول العجوز إلى حد دفعها للقول:

– يا حبيبتي جُدُودنا قالوا « اللي شاف الباب وتزويقه، يا ترى الجدع فطر ولا على ريقه ».

قالت العجوز المثل وهي تحاول رسم بسمة على وجهها، في محاولة للتخفيف عن جارته الشابة، ثم واصلت: ده كل باب – يا حبيبتي– ووراءه حكاية، لا يوجد في الدنيا إنسان عيشته خاليه من الهموم والمشاكل، حتى الأنبياء كانت حياتهم كلها صعبة، ومتعبة !

اغتصبت الشابة ابتسامة بلون الوجع و طعم المعاناة، ألقت في حركة دالة رأسها إلى الوراء. قطبت غاضبة، أظهرت ملامحها ما على عاتقها من هم ثقيل، بدا أكثر من قدرتها المتاحة، حتى تغرغرت عيناها.

«24»

جمدت الطائرة، توقفت عن الحركة ! لم يمض على تحركها إلا ثلاث أو أربع دقائق. هدوء حذر خيم على الكابينة، تطلع الركاب حولهم، يبحثون عن إجابة؛ علامات استفهام برزت من شرفات الأعين، متسائلة مستفسرة، ما الجديد؟ ماذا يدور في تلك القمرة القابعة في أقصى مقدمة الطائرة ؟ لماذا توقف حبوها الوليد ؟ أعطل آخر ألم بنا..! أم ماذا ؟ همهمة مكتومة، هسيس.. همس.. وشوشة ! طنين ذباب الحيرة الثقيل راح يعلو، حتى جاءت مذبته الطاردة، صوتٌ علا من خلال الإذاعة الداخلية، ذو نبرة ودودة واثقة، يقول:

– حضرات السادة الركاب.. مساء الخير، قائد الطائرة (كابتن.. حسان) يتحدث إليكم، إنابة عن الشركة وأعضاء طاقم الطائرة، أولا: أود أن أرحب بكم معنا في رحلتنا إلى القاهرة. ثانيا: أرجو قبول اعتذارنا عن التأخير الحادث، غير المتعمد، الخارج عن إرادتنا. ثالثا: أحيطكم علما بأننا تحركنا متوجهين إلى ممر الإقلاع الرئيسي، لكن لكثافة الحركة الجوية المعتادة على مطار (J.F.K) فإن ذلك سيأخذ وقتا غير قليل، ترتيبنا الآن هو الثاني عشر، أي تسبقنا إحدى عشرة طائرة، تتحرك في طريقها للإقلاع. لذا متوقع أن يستغرق الأمر حوالي خمسين دقيقة، للوصول إلى نقطة الإقلاع. شكرا لحسن استماعكم وتفهمكم ، ونرجو لكم رحلة سعيدة.

أصابت كلمات قائد الطائرة جمع الركاب بحالة من الوجوم، من أثر ثقل هذه المعلومة الصادمة، التي أزادت طين الانتظار بلة، تقريبا ساعة أخرى ! أنفاس غاضبه ساخنة ! خرجت من أفواه ركاب كثر، متبرمة من زهق و ملل..! تراكم ساعات ثقيلة، ما فتئت تزيد مطيلة في عمر رحلة، بدت كما لو أن قدرها أن لا تنتهي، أن تدخل في حالة ديمومة سرمدية.

أُف.. ! مختلفة الرنة والصدى، صدرت عن رجل تنطق ملامحه بثقل ما يحمل من سنوات عمر، هَرِم جالس قرب مؤخرة الطائرة، حرفان فقط نبس بهما..! لكن دلالتهما كانت عظيمة، جاءت اللفظة مختلفة المعنى، عندما خرجت من شفتي هذا الهَرِم الجالس هناك !. حركه بطيئة غير محسوسة للطائرة، تكاد تحسبها من الزواحف ! قل الهواء المتدفق إلى داخلها، نقصت كميته المحبوسة داخل كبسولة الركاب المغلقة. أجساد ساخنة.. أنفاس ملتهبة، وصدور تفور، ارتفعت حرارة جو الكابينة، وإحساس بقلة الهواء المتاح، بدأ البعض في حركة بطيئة التروح بأي شيء أمامهم ! زاد الإحساس بالاختناق، ضاق النفس.. صعب على الرجل، ألم بصدرهِ و وجع، شد بيد مرتعشة رابطة العنق، راحت أصابعه في عصبية تحاول فك زرار ياقة القميص، حركة دلت على صعوبة تنفس يعانيه، انتبهت إلى حركته، شعرت ابنته الجالسة إلى جواره بمعاناته، انزعجت اضطربت، سألته في قلق:

– أبي هل أنت بخير ؟

لم يرد، ارتبكت، لا تدري ماذا تفعل! هبت واقفة في مكانها، زعقت مستنجدة، تستصرخ من حولها:

– أي حد يساعدني، بابا تعبان أرجوكم.

ضغط الراكب الذي يجاورهما، زرار استدعاء المضيفة، ينظر متحفزا تجاه مكان جلوسهم ! بدا الأمر كأن أحدهم لم ينتبه ! أو ربما ظنوا أنه استدعاء خاطئ فالوقت حرج، لم يتحرك أحدهم.

انتفض أحد الركاب في مكانه، هب حانقا، اندفع متجها إلى منطقة عمل الضيافة قرب المؤخرة، كان كل بمقعده رابطا حزام الأمان، استعدادا لإقلاع مرتقب ! زعق الرجل قاذفا بكلمات غير لائقة، مستنكرا جلوسا مفروضا عليهم في ذلك الحين. هبت أجملهم واقفة من جلستها، استفزت ! لكنها لم تضيع الوقت في عتاب الرجل على انفعاله، توجهت مسرعة إلى حيث

أشار، عين خبيرة مدربة، استنتجت فورا أزمة الرجل، صعوبة في التنفس ! ســـحبت – دون تردد– إحدى زجاجات الأكسجين المثبتة في أماكن محددة – تحفظها عن ظهر قلب – في الكابينة، حنكة ومهارة.. شبكت بها قناعا للتنفس، وضعته فورا فوق منطقة أنف وفم الرجل، شدته إلى رأسه، ثبتته برباط مطاطي، ثم نظرت لابنته المرتبكة، متسائلة:

– أيعاني والدك من مرض بعينه ؟ أهناك أدوية معالجة يتعاطاها ؟ أم أن الأمر إرهاق السفر ؟

أجابت الابنة التي بدا أنها ارتاحت لمجرد ظهور المضيفة في الصورة:

– نعم والدي مريض بالسكري، أظنه أخذ جرعته المعتادة، نسي وانشغلت أنا، لم يتناول أي طعام ! ربما يكون هذا سبب تعبه، وإرهاقه البادي عليه .

إشارة من يد المضيفة، تلقفتها زميلتها الأخرى، ترجمتها إلى فعل سريع، إذ أحضرت كوبا من عصير المانجو. حيلة طبية بسيطة تتبع دائما عند التعامل مع مريض السكري، تكمن خطورة السكر في نقصه عن المعدل الطبيعي، غالبا يؤدي إلى غيبوبة، قد تودي سريعا بالحياة، بينما ارتفاع نسبته فخطورته أبطأ، يمكن علاجه بجرعة دوائية. إسعافات أولية تدرسها الأطقم الطائرة. أبلغ المضيف عادل رئيس طاقمه بالحادث، فأعلن بدوره عن الحاجة لطبيب متطوع من بين الركاب.

استجاب الجسد المنهك، لتلك المساعدات الأولية البسيطة وبدأت تظهر عليه علامات التحسن والإفاقة، جاء طبيب شاب من وسط الركاب، شخص الحالة بنقص سكر في دم الكهل، أثنى على تصرف المضيفة الصائب، قائلا:

– نعم.. لقد كان جسده في حاجة شديدة لبعض من السكر، وأنصح بقطعة خبز أو اثنتين.

انسحبت المضيفة، عادت لمكانها بعد أن تحسنت حالة الراكب الصحية. لم يكن غريبا أن يأتي الراكب الغاضب، إلى مقعدها معتذرا عن ثورته وانفعاله

وألفاظه الحادة ! فأشارت إليه بوجه محايد تماما، أن يلتزم مقعده، قائلة:

– لا حاجة للاعتذار، انتهى الأمر ! أرجوك العودة لمقعدك؛ والالتزام بإشارة الحزام.

امرأة كقصيدة شعر، عمودية موزونة، لها بديع داخلي، وموسيقى خارجية، كل بيت فيها، أجمل مما سبقه، لها متن فصيح، مفوه حلو اللسان.. لبق الكلام، مفرداته عبقرية الحسن، حديثه عذب حصيف طليق بارع، حسن البيان صريح عليه طلاوة. تنطق كلمات قليلة العدد، بليغة المعنى.

حسناء تخطو مختالة معتزة بنفسها كفرس أصيل، فرس لا تترك قياده إلا لأمير يثمنه؛ نبيل يعرف قدره، وإلا انقلب إلى بري جامح عصي على التسييس. هذا هو الانطباع الأول الذي تتركه فجر عندما تراها قادمة، ثم تؤكده لك جغرافيا جسدها الفتي إن اقتربت.

فجر الأمل.. هو اسمها المركب، يختصره أصدقاؤها إلى فجر، المضيفة الشابة الجميلة التي ترفل في منتصف ثلاثينيات العمر، بقوام ممشوق وبشرة حنطية مشدودة لامعة، أهداب طويلة سوداء، وشعر فاحم معقوص، لو أطلق سراحه وهدر على ظهرها، لصار موجا لبحر عاصف. جمال محسوم لا خلاف عليه، وإن كان محيرا في تحديد هويته ؟ فجمال فجر لا يشبه جمال نساء العرب، لكنه من ذلك الذي تشتهر به نسوة الجنوب الإيطالي، حيث تشتهر نساؤهم بحسن الغجر، الذي فيه الكثير من جمال اللبؤة وشراستها.

عينان واسعتان لهما تأثير جاذب يستدرجك إلى الأعمق، كأن جاذبية الكون تمركزت فيهما، تشدك نحوها بينما ترفع في وجهك علامة تحذيرية شديدة الوضوح واللهجة.. لا تقترب ! تسكنهما نظرة تحد غاضب، بركان كامن، ترفض ذلك التصنيف المجتمعي المتحيز المتعصب، الذي يفرق بين إنسان وضلعه ! حتى يفرق بين أبناء البطن الواحد، تبعا لتشريحهم فسيولوجيا ! مجتمع يراها أمة، لا حق لها إلا ما يمنحه هو !

تعي جيدا إنها امرأة مطلقة، لكنها أبدا لم تكن سببة لرجل، طلبت الطلاق بكامل إرادتها، هي من أمرته بإلقاء اليمين! نفذ طلبها بعد أن يأس من أن تعدل عنه، منذ البداية كانت هي من تملي الشروط، وعليه فقط أن ينفذ ! رفضت أن تكون له ! وهو زوج لأخرى، أيضا رفضت أن يطلق الأخرى لأجلها ! لكنه أقســم بأغلظ الأيمان، أن قرار طلاقه لزوجته الأولى، ليس له علاقة بها، فحسب روايته، كان الطلاق واقعا لا محالة. و الآن بعد ما ظن أنها قد صارت ملكه، فاجأها بإعادة الأولى لعصمته ! كانت حجته حاجته للأولاد، فقالت له بلا تردد:

- ليكن طلاقنا بهدوء.

شخصية متمردة، ترفض الخضوع والاستسلام ! نظرتها تعلن بلا استحياء في وجوه أولئك الذين لا يرونها امرأة مهيضة الجناح، محذرة تقول في بيان صريح:

- انتبه أيها الطاووس المغرور لا تنفش ريشك كبرا وغرورا؛ لا تظن بنفسك الظنون ! لا تحسب حالك ذلك الذي لا يشق له غبار ! انتبه ولا تنساق وراء نرجسيتك النابضة بمشاعر ذكورية فجة، قد ترسلك بعيدا في أحلام يقظة سرابية، تزين لك رغبة مجنونة للامتطاء، فتكون سببا في إهدار كرامتك.

فجر أيضا تمتلك حسا فنيا، ذوقا مهاريا راقيا، تجيد استخدام الألوان والأصباغ، تؤطر مواطن الجمال لديها، وتعرف كيف تظهر أناقتها، ورونق هندامها. فلو لم تكن ترتدي الزي الرسمي الموحد والمميز للمضيفات، لظننتها إحدى فاتنات عارضات الأزياء، لكن حقيقة الأمر أن هذه الفاتنة هي واحدة من طاقم الطائرة، التي تعرف كيف تفرض احترامها على من يتعامل معها، وربما هذا هو سر جاذبيتها، لهؤلاء الذي يبحثون دائما عن امرأة متميزة ذات شخصية قوية، الشارح لسبب حب الكثير من زملائها الرجال، أيضا هو ما يبرر غيرة أقرانها من النساء اللائي يملأ صدورهن تجاهها حسدا وغيرة لا تخطئهما عين !

«25»

رنة عالية مميزة مصحوبة بوميض له لون خاص في سقف المنطقة الخلفية لعمل الضيافة. التقط عادل سريعا سماعة هاتف نظام التواصل الداخلي على الطائرة، الذي يربط أماكن العمل على الطائرة فيما بينها، إضافة إلى ربطها بمقصورة القيادة أيضا. أجاب عادل على الاتصال الذي جاءه من رئيس الطاقم، قائلا:

– نعم... ؟ صمت بعدها وأنصت، ثم عاد وواصل:

– نعم تحسن الراكب وعدنا لأماكننا، ثم أضاف متسائلا، الآن ؟ o.k سأبلغهم.

أعاد عادل السماعة إلى مكانها، وألتفت موجها حديثه لزميلتيه المتواجدتين معه في نفس منطقة العمل:

– مستر شومان يطالبنا بتقديم الصحف للركاب، لكسر حدة التأخير المتزايد، فمازال هناك وقت حتى الإقلاع.

لم يعلق أي منهم على الأمر، فهذا إجراء متبع عادة في مثل هذه الحالة، لامتصاص غضب الركاب من تأخير واقع، تقديم بعض مواد القراءة.. جرائد.. مجلات، وربما بعض المشروبات الباردة، حسب طول المدة الزمنية المتوقعة.

دقائق قليلة مضت بعد تعليمات كبير المضيفين، ظهر في ممري الطائرة عربتان من نوع صغير منطبق يجري على عجلات صغيرة جدا، تدفع كل واحدة مضيفة، قدوما من أول الكابينة في اتجاه المؤخرة. حملت مجموعة صحف مصرية، قسمها

الأكبر صادر بالعربية، والقليل باللغة الإنجليزية، والأقل بالفرنسية. رنت كل منهما لوجه الأخرى، بنظرة جانبية، ابتسما على إثرها ابتسامة لها معنى، تأهبا لما أصطلح على تسميته فيما بينهم «معركة الجرائد»، غالبا ما يصطدمون برغبة بعض الركاب في الاستحواذ على نسخة من كل جريدة متاحة ! إما لسوء فهم أو لسوء سلوك !

هاهي الموقعة الأولى قد بدأت.. صوت راكب آت من الصف الأول بالكابينة السياحية يعلو مجادلا متدرجا في قوته، يقول متعجرفا وهو يقبض على حزمة جرائد، يسحبها من فوق العربة:

– أريد نسخة جرائد كاملة، هذا حقي !

جاء رد المضيفة في نعومة بدت متكلفة، وهي تمسك بأهداب ابتسامة رسمتها بإتقان:

– سيدي لن يستقيم الأمر هكذا..! إن استحوذ البعض على نسخ كاملة من الجرائد المتاحة، فهذا يعني بالتأكيد أن البعض الآخر لن تتاح لهم فرصة الاطلاع على أي من هذه الجرائد.

رد الراكب بأنوية شديدة، وصلف بالغ:

– أنا..لا يعنيني ما تقولينه في شيء...هذه مشكلتك أنت.. لن تحليها على حسابي ! الجرائد حق لي لن أتنازل عنه.

هنا تحولت نبرة صوت المضيفة من ناعمة لينة، إلى ناعمة باترة كحد سيف، ملقنة إياه درسا في فن التعامل وثقافة السفر:

– سيدي.. أعتقد أن العقد المبرم بين سيادتك والشركة هي أن تنقلك و أمتعتك في حدود المسموح من نقطة إلى أخرى، لا يوجد في التذكرة بندا ينص على أن لكم نسخة جرائد كاملة ! هذه جرائد للجميع.. ليس لكم حق في الاستئثار بها ! ثم إن – جدلا– لو لم توجد على الطائرة جرائد لأي سبب كان ،

فهل ستلغي سيادتكم السفر ؟ !

ضجت الجماعة الجالسة حول الرجل ! ضحكوا لها استحسانا لردها الذكي، ومنه رفضا لأنويته الصبيانية وكلماته الممجوجة. في الممر المقابل، متزامنا مع ذلك، ربما بفارق دقيقة، بدأ جدل أخر حول نفس الموضوع، لكنه على نحو مختلف ! سمع صوت، بالكاد أمكن التعرف على نسويته ! يقول هازئا:

– ما هذا الاستخفاف الذي تعاملون به ركاب طائراتكم..! هذه الجرائد بتاريخ أول أمس فكيف تقدمونها اليوم ؟

صمتت المضيفة، بطلة «التايكوندو» سابقا وهي تعض على نواجذها، محاولة تفويت فرصة إثارة لغط غير مطلوب من تلك المرأة. علياء.. كانت في يوم مضى، يشار لها بالبنان، احتفوا بها وهي تتسلم الميداليات الذهبية، وشهادات التقدير، كتب اسمها في الجرائد ونشرت صورها. تخرجت في كلية التربية الرياضية، بناءً على رغبة والدها، لكن ذلك لم ينسها حلما طالما راودها منذ الطفولة، أن تنمو لها أجنحة تجوب بها الفضاء الواسع، تحلق كما الطيور فوق الرؤوس. نظرة واحدة إلى علياء كفيلة أن تكشف لك بجلاء عن شخصها الرياضي بكل المقاييس: رأس مرفوعة، صدر مفتوح ، جسد مشدود ملفوف، قوام ممشوق، تضج صورته بعلامات الصحة العافية، وجه رغم سمرته (تبك) الدماء من وجنتيه، بدن رياضي صحيح، تظهر عليه بوضوح أثر التربية الرياضية، لها أطراف قوية، تزينها أظافر مقلـــمة نظيفة، عارية من أي طلاء على غير عادة المضيفات !

لعلياء نظرة محايدة، تخفي طبيعة وجهها وقسماته الجادة الحـادة ! تجتهد أن تترك أعصابها في ثلاجة مطبخ الطائرة، قبل الخروج إلى الركاب. ها هي تضغط أعصابها المشدودة المتوترة، تشرح السبب وراء وجود جرائد ليست بتاريخ اليوم، على الطائرة:

هذه جرائد مصرية – سيادتك– صدرت في القاهرة، يوم بدء الرحلة من

مطار القاهرة، لهذا هي تحمل تاريخ أمس الأول، لا تاريخ اليوم.

ردت الراكبة وكأنها لا تفهم ! أو لا تريد أن تفهم:

– هذه مبررات سخيفة وغير مقبولة..! أنا لا أقبلها؛ فالخطأ هو الخطأ بغض النظر عن أسبابه، وهذا لا يعفي الشركة من مسؤوليتها عن إيجاد حل لفعلها غير المقبول ! لا أن تصر عليه، وعلى الراكب تقبل الأمر ، حتى وإن كان فيه استخفاف به وبعقله، وإن لم يعجبه، فعليه أن يختار أقرب حائط يقابله، ويخبط رأسه به ..!!

ارتفع صوت الراكبة بنبرته متهكمة ساخرة، كافيا لاستفزاز أكثر الأشخاص هدوء. لكن علياء استطاعت بحكمة كتم غيظها ! تذكرت إنها في رحلتها الأولى، بعد أجازة بدون أجر طويلة، من المؤكد أنها لا تريد مشاكل تزيد من معاناتها، يكفيها أنها عادت مضطرة إلى طيران، لم تكن راغبة فيه !

كان قرارها السابق هو التفرغ للأسرة عند بدء حياتها الزوجية. لم يخطر ببالها، أنها ستضطر للعودة إلى طيران غير ملائم لها، بعد أن باتت زوجة وأما لتوأم. فطبيعة عمل المضيفة الجوية، الذي لا يرتبط بمواعيد عمل ثابتة، لا يتناسب مع ظروفها الاجتماعية الجديدة !

قنعت بدخل الزوج، زميل العمل الذي قبلت الارتباط به بعد أول لقاء بينهما. تذكرت لحظة أن تنحت جانبا في صالة الوصول بمطار القاهرة، تكتب له عنوان منزلها، بعد رحلتها الأولى معا طلب أن يأتي لمقابلة خالها !. رحل الوالد قبل أن يحضر زفافها، لم تستمع بإحساس العروس طويلا، هاجمتها مشاكل الحمل الأولية، صارت تشاكسها من آن لآخر. شهور قليلة، بانت بطنها، أصبحت لا تتحمل الضغط الجوي المتزايد، لا تقدر على بذل الجهد المطلوب، أجبرت بعدها على الامتناع عن الطيران !.

صورة براقة منطبعة لدى الكثيرين، مهنة حلوة المظهر، أزياء حديثة جذابة، يتبخترون بها كالفراشات، في أنحاء الدنيا الجميلة، حرية وانطلاق، استقلال

ومتعة، سفر وفوائده السبع، تجوال ومشاهدة معالم الدنيا، زيارة أماكن يحلم بها الآخرون، تسوق وتذوق لكل ما تبرع في صنعه أو طهيه الشعوب، مقابل ماذا ..؟

فقط قليل من الابتسام في وجوه القادمين أو المغادرين، وربما جهد قليل في تقديم واجب الضيافة من مأكل و مشرب ! يا لهم من نخبة محظوظة منتقاة من أبناء هؤلاء الذين يجيدون العلاقات والاتصالات !

قد يكون هذا هو الوجه المصقول المتلألئ للمرآة، لكن ما يغفله الناس أن مقابل كل سطح لامع آخر ملتصق به، معتم حالك. غالبا ما تتوقف العين عند السطح اللامع للمهنة، لا تدرك ما وراء هذا البريق الخاطف للأبصار! العين لا تبصر في الظلام.

شروط المهنة المشددة، وطبيعتها المغايرة: دراسة نظرية، وتدريبات عملية، ما إن بدأت، لا تنقطع ممارستها حتى يوم ترك العمل. حياة غير تقليدية.. نغمة غير متكررة.. نظامها للآخرين... ألا نظام ! تفرض أسلوب حياة خاصا جدا.. مختلفا، متباينا عن أي آخر! عمل لا يلبث أن يحولك من إنسان إلى جزء من مفردات الطائرة ! وربما إلى ريشة في الهواء، ما إن حطت في مكان، لا تلبث أن يحملها التيار إلى مكان آخر! وهذا ما لا يتحمله البعض،حتى وإن كان إرهاقا لذيذا، مجهدا بشكل شائق جميل!

طير بلا أجنحة..! هكذا يصير من أدمن تلك المهنة العجيبة، السالبة للزمن، والسارقة للعمر.. تنسل الأيام كانسلال الماء من بين أصابع اليد ! لا تمنحك وقتا محددا أو ثابتا لأي أمر من أمور الحياة، مواقيت العمل دائما متبدلة قد تكون في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، تتبع جدولا يكلفك برحلات خلال مدة زمنية محددة، لا ثبات فيه لشيء ! لا موعد لنوم أو صحيان، لا موعد لطعام أو شراب ! لا راحة أسبوعية محددة.. لا إجازة لأعياد أو مناسبات، لا حياة عائلية أو اجتماعية !

لا يتناسب الطيران مع امرأة حامل، لا يكون إلا بموافقة طبيب، شهادة طبية موقعة مدموغة مؤرخة تقول: أن لا خطر من ركوب الهواء، لارتحال محدود على أم أو جنينها. الحال يختلف مع امرأة عملها هو الطيران، تتعرض دائما لضغط جوي، وإرهاق مضاعف نتاج السعي بين الأرض والسماء، والقفز فوق السحاب.

فقدت علياء – بشكل مؤقت – إجازة الطيران إلى أن تضع حملها. كلفت بعمل أرضي حتى جاءها التوأم، تقدمت بطلب إجازة مستحقة – بدون أجر– لرعاية طفليها. اعتادت حياتها الجديدة، استمرأت البقاء قرب الرضيعين، فقدت شهيتها للطيران ! همست لنفسها.. لماذا لا أستثمر قانونا وضع من أجلي؟ يكفي حرمان الطفلين من أب بحكم المهنة هو بعيد أغلب الأوقات.

ثم فجأة.. على غير ما هو متوقع.. علياء تقطع الإجازة، استعداد للعودة للعمل، ستترك طفليها خلفها ! أمر ما قد أجبرها على عودة ! من المؤكد أنه ضد رغبتها.

لم تجد علياء منفذا للتخلص من سلاطة لسان الراكبة، وكلماتها المستفزة غير أن تتحرك بعربتها للأمام مخلفة بظهرها جدلا لا ينتهي ! همهمة لا تنتهي: للراكبة حق الاعتراض ... وماذا في يد المضيفة بهذا الخصوص... إنها لا تملك حلا أو ردا ... الأمر قد حسم من جانب الراكبة، سترسل بشكوى إلى رئيس مجلس الإدارة ! ضد شخص المضيفة ..!! لكن ما ذنبها ... تركتها وغادرت قبل أن تنهي كلامها !! خيرا فعلت.. كان غير لائق، أحرج الراكبة أمام الآخرين ! هي من أحرجت نفسها !! عبارات متباينة ووجهات نظر مختلفة،تناثرت فى هواء المنطقة.

كان الادعاء من قبل الراكبة سببا في إثارة جدل، بين الركاب المحيطين بها..! منهم من انحاز لها ولرأيها، ومنهم من أعلن عن تعاطفه مع المضيفة،

التي لا علاقة لها من قريب أو بعيد، بأمر تاريخ إصدار الجريدة ! إنها قدمت ما تملك، وتصرفت بطريقة مثلى، إن كان هناك لوم، فليقع على عاتق الشركة.. وإن كان هناك عتاب فليوجه للإدارة المسئولة، وليس بأي حال لموظف لم يقصر في تأدية ما عليه ! يجب توجيه الشكر للمضيفة لالتزامها بضبط النفس، وعدم الخروج عن حدود اللياقة. شهادة جاءت على لسان أحد الركاب.

شخصية انفعالية، مثيرة للقلق والأعصاب..! نفس الراكب الذي سبق واندفع متهكما، ثم تراجع معتذرا ! ها هو يعود لعصبيته المنفلتة ثانية.. عربة الجرائد وصلت إلى حيث يجلس بمؤخرة الكابينة، لم يكن بها من مواد القراءة إلا نسخة واحدة، جريدة « جورنال دي إيجبت » مصرية تصدر باللغة الفرنسية ! أمسك الراكب بالجريدة، راح يقلبها يمنة ويسرى ثم انفجر زاعقا وهو ينظر إلى المضيفة:

– إيه الموضوع بالضبط ؟ هل الجرائد بأسبقية الجلوس؟ أم أننا ركاب السبنسة، ليس لنا إلا البقايا !؟ لن أتنازل عن حقي في الحصول على جريدة ! غير معقول أن نتنازل عن كل شيء ! أهذا عقاب من يسافر معكم ؟ رحلة مزعجة تأخير طويل..إرهاق وملل ! طائرة طراز قديم غير مجهزة بأي وسيلة للتسلية ! غير مقبول أن تحرمونا حتى من جريدة لا تساوي إلا قروشا..!

ردت عليه علياء وهي تضغط أسنانها انفعالا، فهى عصبية المزاج سريعة الغضب رغم طيبتها الشديدة، تكاد تنفجر داخليا، لكنها كظمت غيظها، دربت جيدا على يد والدها التربوي والرياضي في آن، على كيفية كبح جماح النفس، وطريقة التحكم في غضبها وانفعالها:

– سيادتك.. لا داعي لرفع الصوت ! هذا لن يحل شيئا انتظرني قليلا.. سأحاول أن أجد لكم إحدى الجرائد، أما وسائل الترفيه، فبعد وجبة العشاء سوف نقوم بعرَض فيلم روائي طويل.

رد الرجل وهو مازال منفعلا:

– بلا سيادتي .. بلا زفت ! أنتم لا تقدمون إلا أفلاما قديمة سخيفة كحالكم لا أدري من أين تأتون بها !؟

ضحكت المضيفة ضحكة غيظ وقرف، تمنع نفسها من رغبة شديدة لصفع هذا السليط بقلم من يدها العفية:

– دقيقة من فضلك..علني أجد لكم جريدة، فقط حاول أن تهدأ لتتمالك أعصابك.. سأعود إليكم ثانية.

دفعت العربة الفارغة أمامها، في اتجاه مقدمة الطائرة، تمنت لو أنها تمتلك فرصة لتلقينه درسا في أدب الحوار! تعلم أنها قادرة بحركة واحدة فقط أن تبطش به.. تطرحه أرضا.. تجعله يتألم.. يبكي كما الأطفال..!

كظمت غيظها، اندفعت.. عبرت صالون الدرجة الأولى، إلى منطقة العمل الأمامية.

شومان آنذاك يقف جوار مقعده الأقرب إلى مقصورة القيادة، في يده سجل أعطال الكابينة، التفت ناحيتها.. لاحظ اندفاعها واحتقان وجهها، توقع بخبرته أن مشادة حدثت معها هناك ! نطقت علياء بصوت مخنوق، وكلمات متلعثمة، كانت دليله على غضبها المكتوم:

– لو سمحت أوجد لي بأي شكل صحيفة عربية، أسد بها فم هذا الراكب الغجري، رجل لا يطاق صانع مشاكل بدرجة ممتاز! مبدع في خلق المشاكل بين الفينة والأخرى.

ضحك شومان حتى احمر وجهه الأبيض، حاول تخفيف وقع ما حدث على زميلته الشابة وتهدئة خاطرها، يعلم جيدا مدى عصبيتها، خصوصا بعد حادث طلاقها الذي جاء معاكسا لكل التوقعات، قائلا:

– ما الجديد ؟ هذه ليست أول مشاكسة تأتي من الركاب ولن تكون الأخيرة، فلم التوتر صديقتي؟ حاولي أن تتقبلي الأمور بصدر رحب، وأعصاب هادئة،

هذا هو عملنا.. علينا امتصاص غضب الركاب؛ هذا التأخير السقيم المربك أغضب الجميع ! نعم نحن لسنا السبب، وربما نشعر بقدر من الانزعاج، أكبر مما يشعرون به ! هم لا يعلمون أننا في المطار منذ اللحظة الأولى، وفوجئنا بالتأخير مثلهم، انتظرنا معهم وشاركناهم ثقل تلك الساعات ! كل هذا لا يجب أن ينسينا أننا محترفون، نحن أطقم مدربة محنكة، نعرف السلوك الأمثل، ونمتلك أدوات التعامل مع الناس في مثل ذلك الموقف المزعج غير المتوقع ! نحن القادرون على امتصاص غضبهم وثورتهم. صمت لبرهة ثم قال مستأنفا حديثه إليها:

– طبعا ما أقوله ليس بجديد عليك، فهو ما يكرر على مسامعنا في كل الفرق التدريبية، حتى ظننا أنه كلام مقدس؛ يجب حفظه عن ظهر قلب. احتفظ شومان بابتسامته وهو يدور على عقبيه،مشيرا لها بما يعني انتظري دقيقة.

نقر بظهر أصابع يده المنطبقة، وبشكل إيقاعي متفق عليه، باب مقصورة القيادة، ثم دفع الباب وغاب هناك ربما دقيقة أو اثنتين.

عَجِلٌ هو... الفرحة تملأ قلبه كأب حنون، ليس فقط تجاه ابنته، لكن أيضا تجاه ابن أخيه، الذي اتخذ منه ولدا كان يتمناه. لهفة وشوق جارف به إلى لحظة ينتظرها منذ زمن، وقد حان قطافها.. لا يفصله عنها إلا رحلته هذه، التي يتعجل انتهاءها، يود لو أنه أغمض عينيه وفتحها، فيجد نفسه قد عاد إلى بيته، يقف أمام زوجته وابنته العروس. يجاهد يريد تخيل وجه ابنته ورد فعلها، أن يسمع تعليق زوجته، وامتداحهما لذوقه عندما يعرض مفاجأته عليهما. يتشوق لرؤية فرحة «بشرة» حبيبة قلبه وفرحته الأولى، بهذا الفستان الرائع الذي اشتراه خصيصا لها، يريد أن يراها وهي تتقافز من السعادة، وهي تتعلق برقبته كعادتها، مقبلة وجنتيه قائلة في فرح طفولي بالغ:

– ربنا ما يحرمني منك أبدا بابا حبيبي.

متعطش لسماع زغرودة – غائبة عن بيته – تجيد زوجته إطلاقها. بات

همه الأعظم في تلك المرحلة العمرية، أن يستر بناته على حياة عينه، هذا هو شغله الشاغل الآن، يريد أن يطمئن عليهم قبل أن تباغته ساعة الفراق...! كان أحيانا يسر لامرأته أنه يخشى على بناته من أن يتركهن، قبل أن تكون كل منهن في عصمة رجل ! فترد منزعجة: فال الله ولا فالك، تف من بقك ! إن شاء الله تشيل عيال عيالهم.

لم يرزق شومان بصبي تمناه وانتظره طويلا، إلى أن وصل وزوجته لعمر سقطت فيه تلك الأمنية من صدريهما، لا يحلم الآن إلا بزواج ابنته الكبرى، بشرة (بشرة خير، كما يحب أن يدللها) على وجه التحديد، فهي أقل بناته حظا من الجمال..! أخذت من صفاته البدنية، كل ما هو غير ملائم لها كأنثى ! لكنها أيضا أخذت عنه كل ما هو محمود من طباعه: قلب كبير.. تسامح طيبة.. كرم وعطاء، صفات كلها حميدة، لكن كما يقول شومان عنها: بشرة.. كالمحارة خارجها جامد، لكن داخلها لؤلؤة نادرة... لن يعرف قيمتها إلا من يتخطى حدود صدفتها الخارجية، التي – للأسف- تتوقف عندها العين !. بشرة لا تتجمل من أجل عيون الآخرين ! تثق بنفسها، وتعتز بسماتها الشخصية الحميدة. لَكن من هذا الذي يمكن أن يراها أو يثمنها..! يعاود الكلام، مشيرا إليها، وهو يقول:

– الناس في أيامنا هذه تقيم الإنسان وتحكم عليه من خلال شكله لا أخلاقه !

يحلم بيوم يحمل فيه ابنا لبشرة، حفيدا له، يجري عليه مهللا: جدووو.. يتمنى من قلبه أن يكون في العمر بقية، أن يمهله القدر حتى يعيش تلك المشاعر.. إحساس و حب يسمع عنه « أعز الوِلد، ولِد الوِلد ».

ذاك اليوم بذل مجهودا عظيما ، ساعات طويلة قضاها، وهو يلف ويدور على قدميه، متنقلا بين فاترينات العرض للمحلات المتخصصة في تجارة فساتين الزفاف، دخل المحل تلو الآخر، قفز من رصيف إلى رصيف مقابل، ترك شارعا

منعطفا في شارع يليه، داخ و أنهد حيله. قطع جادة المُودَة الشهيرة Fashion Avenue بحي مانهاتن بمدينة نيويورك بشوارعها المتقاطعة معها، امتدت جولته من ظهر أمس إلى قبيل غروب الشمس، تنقل بين المتاجر على أشكالها واختلاف أسمائها، بحث في كل البوتيكات الصغيرة حتى المراكز التجارية الكبيرة، عله يصل إلى ضالته من الشكل والمقاس المناسبين.

بشرة ابنته الطيبة المشاكسة خفيفة الدم، لها مقاسات مختلفة، جسمها ليس له تركيبة أو قياسات أقرانها من البنات! غريبة هي تلك الجينات الوراثية، فابنته كما يراها هو لم ترث عنه بياض بشرة مشربة بحمرة جميلة، ولا خضار عينيه، ولا حتى لون شعره (يضحك ويقول: لما كان عندي شعر!) الكستنائي، لم تأخذ عنه أي ملمح من ملامحه الجميلة، فقط أخذت عنه ضخامة الجسد، أكثر مساوئه الشكلية !. منذ أن رآها تتشكل أمام عينيه وتظهر عليها علامات الأنوثة، لاحظ أن مقاسات جسدها تخرج عن حدود المألوف، شعر بأن مشكلته ستكبر مع نموها ! كان يعاني دائما في إيجاد ما يناسبها، فالأمر ليس بالسهل ! ثم عظمت مشكلته عندما اقتربت من سن الزواج، كان في قرارة نفسه، يظن أنها لن تتزوج ..! فمن هذا الذي سيقبل بها كعروس ؟ من سيرضى بملامحها غير الجميلة ؟

فرحته كبيرة، بل مضاعفة، العريس هو ابن أخيه الذي رحل بشكل مفاجئ غير متوقع، لم يمرض لم يشتك من ألم، لم تقع له حادثة ! فقط نام.. ولم يستيقظ هكذا بمنتهى الهدوء والسكينة. قام هو على رعاية وتنشئة الصغير بعد رحيل أبيه. منذ ذلك الحين وهو يعامله على أنه الابن الذي لم ينجبه، أحب الولد كأنه من ظهره، قال لامرأته هذا هو الولد الذي لم نرزق به، فاتخذ منه أخا لبناته، كبرالولد معهم لكن نظرا لسفر عمه المستمر، احتفظ فى نفسه بإحساس أنه الكبير المسئول.

كان شومان دائما يراه وبشرة في حالة من النقار والمشاكسة أبدا لا يتفقان ! كانا كالقط والفأر..! رغم كونه يكبرها سنا، إلا أنها دائما كانت تسعى

لمجادلته، وتخوض معه نقاشا حامي الوطيس حول بعض القضايا الخلافية، كانا لا يهدءان إلا بعد أن يذهب كل منهما في اتجاه مغاير، يظن أنهما لن يعودا للكلام ثانية ! لكن في صباح اليوم التالي، يجدهما معا في طريقهما للجامعة ! ثم جاء يوم لم يخطر على باله، صارحه ابن أخيه برغبته الجادة في الارتباط بابنة عمه. لم يصدق شومان ما سمع آنذاك، لم يدر متى ظهرت عليه أو عليهما أعراض الحب ؟ لكن لا بأس، هو لم يحلم أن يجد لابنته قليلة الجمال، عريسا يتقدم لها، أفضل من ابن عمها بأي حال من الأحوال..! خبط كفا بكف، وضحك في سره متمتما: صحيح مرآة الحب عمياء !.

عاد شومان من مقصورة القيادة، كانت الابتسامة تملأ وجهه المستدير الأبيض الممتلئ، وألقُّة يشع من عينيه الخضراوين، التي سكنتهما آنذاك حالة من رضا وهدوء غير مسبوقة، كان يحمل في يده أكثر من جريدة عربية، مد يده بها لعلياء التي كانت في انتظاره، فظهرت على وجهها علامات من الهدوء النسبي، ثم قال لها بصيغة أبوية حانية، تغلف توجيهاته ونصحه لها :

– إليك.. اذهبي الآن واعملي على تهدئة الأمور، فالرحلة مازالت في أولها، حاولي بكياسة ولباقة الاستحواذ على رضا الركاب، فهم بالرغم من أي شيء ضيوفنا في نهاية الأمر.

تلقفت علياء الجرائد من يده، ونظرت إليه في امتنان لكلماته المشجعة والمهدئة في نفس الوقت، فنبرة صوته العريضة، فيها من الهدوء و الثقة ما ينتقل إلى الطرف الآخر، مع حنو أبوي، رغم أن فارق السن بينهما ليس بالقدر الذي يجعله في سن أبيها .

«26»

رنة جرس واحدة، وضوء أزرق في منطقة العمل الأولى، نداء صادر عن أحد ركاب الدرجة الأولى؛ استدعاء للمضيفة. رفع شومان عينيه عما يدونه من ملاحظات، إلى أعلى بشكل تلقائي، ليحدد مصدر النداء، كان ذلك أيضا رد فعل دنيا و وإيزابيل (إيزي) كما يناديها زملاء العمل، كنية أوجدوها تنطبق تماما مع شخص إيزابيل السهل اللين الطيع، التي يبدو أن قاموس لغتها لا يوجد فيه غير كلمة واحدة تجيب بها على كل ما يطلب منها:

- حاضر.

اندهش جميع العاملين - ذلك اليوم - في مكتب متابعة التشغيل، من رد فعلها غير المتوقع ! عدلوا من جدول عملها دون الرجوع إليها..! غيروا رحلتها إلى نيويورك بأخرى إلى منطقة الخليج ! أتموا التبديل لكن لم يبلغوها بعد ! يعلمون مقدما أنها لن تناقش قرارهم، الجميع يعلم أنها أبدا لا تعترض، سيسمعون ما تعودوا على سماعه منها.. حاضر، لكن المفاجأة كانت في رفض إيزابيل للمرة الأولى ! قالت : لا ..!

تعجب كل من حضر الواقعة، من موظفي إدارة التشغيل، أو من زملائها، ولم يصدقها كل من ســـمع بها... ! للمرة الأولى طوال سنين عملها، تنطق إيزي بلفظة مغايرة لكلمة حاضر ! رفضت وبعصبية تصل إلى حد الاشتباك، أصرت على التمسك بالقيام برحلتها، دونما تبديل أو تأجيل حتى وإن كان ليوم واحد، قالت وقد علا صوتها لأول مرة:

- هذا جدولي أنا، وهذه رحلتي أنا، لن يمنعني عنها أحد، سأقوم برحلتي حتى ولو منعتموني عن العمل بعد ذلك، حقي ولن أقبل بأي تغيير !

مشكلة إيزابيل في حياتها العامة و الخاصة، أن طيبتها أو ربما سلبيتها تزيد عن المألوف ! إلى درجة تجعل البعض يطمع فيها ! لها وجه ينطق بالكرم والتساهل، تطل من عينيها طيبة ساذجة، لها ملامح مصرية واضحة، رغم ما يشوبها من عيون ملونة، شعر ليس بأسود، بشرة مغايرة لأبناء جلدتها من صعيد مصر.

سأعود لأضع النقاط فوق الحروف، سأوقف كل شخص – أيا كان – عند حده، سأنهي أي أمر معلق. كان هذا، همست به إيزابيل لنفسها، حاسمة أمرها من قضايا كثيرة في حياتها، ترددت في اتخاذ قرار بشأنها. لأول مرة تعترف، أنها لن تستطيع العيش دونه. طلق زوجته، أخذ الخطوة العصيبة التي طالبته بها:

– أثبت لي ما تقوله !

– ألم تؤمني ؟

– لكي يطمئن قلبي.

فعلها من أجلها، هي تؤمن بحبه الذي ملأ حياتها، تتمنى لو أنها تمتلك قدرته وجرأته..! لكم يحبها هو، ليس لديها شك في ذلك. عليها الآن أن تضع يدها في عش الدبابير ! تأخذ الخطوة التي ستهيج عليها الدنيا، وتقلبها رأسا على عقب ! ليكن..سأتحمل من أجله كل ما هو متوقع، أو غير متوقع ! سأذهب بعد عودتي من هذه الرحلة، سأشهر تحولي، سأكون له ما بقى من عمر! لقد كان جانبي في كل الأوقات العصيبة التي مررت بها، لم يخذلني أبدا منذ أن أعلن عن حبه لي، أعطاني الكثير: وقتا.. حبا.. ود اورعاية، لم يطلب مني أبدا مقابلا، لم يتذمر يوما، لم يكل من احتياجي إليه، دعمني طول الوقت ولم يتقاعس، إنه الرجل الذي عشت أحلم به، لن أضيع الحلم الذي دنا ليتحقق، سأدفع الثمن راضية، وليسامحني الرب إن أخطأت !

دنيا و إيزابيل مسئولتان مسئولية مزدوجة عن الجالسين بالدرجة الأولى، أيضا عن طاقم هيئة القيادة، ذهبت عيونهم تجاه نقطة محددة، في حركة تلقائية عند سماع رنة من جرس للاستدعاء، يومض الضوء لتحديد الجهة. رنة واحدة

وضوء أزرق مصاحب، استدعاء من راكب هناك. ابتسم رئيس الطاقم وهو يرنو إلى دنيا المضيفة الأقدم في مجموعته لتتولى الرد على الاستدعاء.

ذهبت دنيا إلى مدخل مقصورة الأولى مستطلعة، كان الاستدعاء صادرا عن آدم، الذي كان يعمل على الرحلة كقائد بديل، يتبادل معه حسان ساعات العمل والراحة، من المفترض أن يتولى القيادة في مرحلة العبور. أضاء وجه دنيا متوهجا بابتسامة عريضة، لمعت عيناها بألق طفولي جميل. اقتربت، مالت ناحيته، نبست بصوت كنسمة حانية، كلمتين كنغمتين من وتر، مستا سمعه، كأجمل ما تكون الألحان:

- أمرك كابتن.

ضحك آدم بانتعاش بهيج، ضحكة كبيرة، ضحكة بعمق السعادة واتساع الحياة، ضحكة طفل تناغيه أمه مداعبة، نظر في عمق عينيها، قال كلمة ولم يزد كلمة واحدة لكنها جامعة لكل قواميس الحب ونواميس الشوق:

- وحشتيني !

سافرت دنيا على جناح ابتسامة آدم إلى كل أطراف الدنيا، شعرت في تلك اللحظة أنها ولجت إلى الجنة، كَلِمَتهُ كانت كطائر أخضر رفرف فوق رأسها، نثر بجناحيه عطرا برائحة السعادة والهناء. انتبهت دنيا لحالها، فلملمت خجلها الفرح، وتدثرت بارتباكها الحلو. انسحبت عائدة إلى مكانها دون تعليق، لم تدر أتسير هي؛ أم تطير؟ ظنت أنها تلمس بقدميها طراوة السحاب، تدوس على زخة من مطر حريري، وأن قلبها قد بللته نعومة نغم سائل من قيثارة حب زمزمي . ظنت دنيا أن ما قاله آدم لها لم تكن كلمة، .. فهو لم يتحدث بأحرف ! بل صدح بمعزوفة رقراقة رقيقة راقية، فوطأت بقدميها برج سعدها.

تبادل كل من شومان وإيزابيل نظرة غير الفاهم ! طلب بعينيه من إيزابيل تفسيرا لحالة دنيا التي عادت بها من الكابينة ! يعلم شومان أن إيزابيل الصديقة القريبة جدا من قلب دنيا، فهي الوحيدة التي استثنتها دنيا وسمحت لها

بالاطلاع على ما يدور في حياتها. لكن إيزابيل لا تفصح عن شيء لا يخصها. كانت إجابتها على نظرة شومان المستفسرة مجرد ابتسامة صامتة.

يقوم رئيس الطاقم وقبل بدء الرحلة، بتوزيع مهام العمل على الطائرة، دنيا.. كما اعتادت كلفت بمسئولية العمل بالدرجة الأولى. غالبا ما يقع الاختيار عليها لذلك، ربما لا تكون الأجمل بين مضيفات الطاقم، إلا أنها الأملح، الأكثر حنكة وخبرة، امرأة ذكية كيسة لبقة، لها وجه مريح جذاب، وعينان ضاحكتان، وابتسامة تكاد تكون دائمة الحضور في وجه ضيوف رحلتها. دنيا تخطت عتبة الأربعين، لكن هذا لم يزدها إلا رونقا وحيوية فهي تتمتع بكامل لياقتها الأنثوية إضافة لشخصيتها المميزة بين أقرانها، وما تملكه من روح مرحة، وأسلوب كلامي مميز، ذي نبرة مشاغبة كالتوابل تضيفها عند اللزوم. لا يوجد بين زملائها أو معارفها من لا يحب تجاذب أطراف الحديث معها، يتساوى في ذلك الرجال و النساء. لدنيا ضحكة لينة رائعة تبعث انتعاشا عجيبا فيمن يسمعها. حتى إن البعض يظنها خالية البال، لا تحمل للدنيا أي هم !

كثيرة هي علامات الاستفهام والتعجب التي تتقافز مُشكلةً دائرة جهنمية ملغزة تحيط بحياة دنيا الخاصة ! تجعل ممن يطلع عليها يصاب بالدهشة والاستغراب، فمن أين تأتي هذه المرأة بكل هذا الابتسام الذي لا ينضب ؟ بينما هي تعيش في معضلة اجتماعية معقدة، أوقعها فيها حظ عاثر. تعاشر مغصوبة زوجا، لا تقدر على التخلص منه، و في ذات الوقت هي عاشقة لآخر لا تستطيع الارتباط به ! هكذا حال قلوب البشر؛ صناديق مغلقة بين جنابتها أسرار وحكايات، قد يصعب على العقل تقبلها أو التسليم بصحتها ! تحديدا قلوب القوارير ! فمن ذا الذي يسبر سرها، أو يمتد نظره إلى عمق قلبها ؟ دنيا التي لا تتحدث عن أوجاعها ، هي محل ثقة من الجميع ، إلى حد أنها صارت مستودع حكاياتهم، وكاتمة أسرارهم، فهي من يفضى لها بالسر لكنها أبدا لا تفضى به.

عيناها تلمعان ببريق أنثى عاشقة، عندما تقف أمامه ! حينئذ لا تكون هي دنيا الناضجة المجربة الواعية ! تتبدل لشخص بريء ساذج، تتحول إلى حالة من الخيبة واللخمة لا تدري ما تقول أو ماذا تفعل ؟ في حضرته تصاب بارتباك عجيب غير مفهوم؛ إعصار مربك يجمع كل الأحاسيس الإنسانية في موجة عاصفة عالية تجتاحها في لحظة واحدة ! فلا تدري حينذاك إن كانت طفلة، أم صبية ! أَمراهقة طائشة، أم امرأة عاقلة ؟ أمازالت عذراء تخفر ؟ أم أنثى فائرة تحتاج من يكبح مشاعرها الجموح ؟ فقدان ذاكرة لحظي يصيبها، تنسى كينونتها وكيانها، يضيع شخصها.. أحالمة هي تحلق في الخيال ؟ أم واقعية تمشي بأقدام راسخة على الأرض؟ عندما تراه تنازعها كل المشاعر دفعة واحدة، تتوه في الزمن، تعود مراهقة في حبها الأول ؟ تكشف عيونها سرها تخونها وتهتكه، فالصب تفضحه عيونه، والعين مرآة حال صاحبها تفصح عما يدور في خاطره، ويشغل باله ويخبئه في الصدر دونما إذن مسبق منه.

عادت علياء إلى موقع عملها في مؤخرة الكابينة. تحمل نسختين من صحيفتين مصريتين، حرصت على حجبهما عن الأعين كممنوعات مهربة، خبأتهم بين طيات مفرش مائدة ! استعارهما شومان من كابتن حسان لإرضاء ذلك الراكب الغاضب.

شركات الطيران في المنطقة تتنافس إلى حد الصراع لجذب الركاب إليها. الشركة تخشى من أى دعاية سلبية قد يتسبب فيها أو يصنعها عميل غير راض، وهم كثيرا ما يتغاضون عن تصرفات خاطئة من بعض العملاء ! مما يدفع بعض المحترفين لاختلاق المشاكل، علهم يجنون شيئا من وراء تمثيلية سيئة يفتعلونها ! تنفق شركات الخدمات كثيرا من الأموال على بند الدعاية والتسويق لأنفسهم! ربما يزيد عما تنفقة على تحسين خدماتها.

أعطت علياء صحيفة للرجل، وهي تبتسم على مضض، فأخذها دونما كلمة شكر، كمن حقق نصرا أو فاز في مضمار سباق. عادت وفجر بعد الانتهاء

من مهمة تقديم الجرائد إلى مكان جلوسهما استعدادا لإقلاع مرتقب، جاء بعد الانتهاء من عرض فيلم إرشادي يبين بعض حالات طارئة قد تواجه الطائرات وكيفية التعامل معها، مع تقديم معلومات عن السلامة والأمان التي يجب أن يلتزم بها رواد الطائرات. الطائرة مازالت تزحف ببطء تجاه بداية الممر في طابور الطائرات المغادرة.

قبيل ارتفاع زئير المحركات معلنة بدء ترك الأرض إلى الفضاء، قفز أحد الركاب تاركا مقعده، متجاهلا عن عمد كل ما قيل بخصوص ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين. توجه مباشرة إلى حيث موقع العمل الخلفي. لم يتوقع أحد، في تلك اللحظة الحرجة أن يترك راكب مقعده ! ضاربا عرض الحائط بكل تعليمات السلامة التي قدمت له ! فعل متهور قد يعرض سلامة الفاعل للخطر، مع مساءلة الطاقم قانونيا ! قبعت بين أصابع الرجل سيجارة معدة للإشعال، وعلى لسانه طلب متعجرف بكوب من القهوة !

فزع عادل من مكانه ! قفز إلى حيث جاء الراكب، طالبه بحزم يشوبه شيء من عصبية غير ظاهرة، بسرعة العودة إلى مقعده والالتزام بتعليمات السلامة التي التزم بها جميع الركاب فيما عداه ! وأشار بيده إلى العلامتين المضيئتين، التي تلزم بإتباعهما، قائلا:

– أرجوك العودة لمقعدك فورا سيدي، فترك المقعد الآن ممنوع تماما، والطائرة على وشك الإقلاع، وهو ما يعرض سلامتكم الشخصية للخطر، ويعرضنا للمحاسبة !

رد الراكب بشكل مسيء:

– لن أعود قبل إشعال سيجارتي، وشُرب قهوتي، أكاد أفقد عقلي وتوازني من قلة « النيكوتين» وطول انتظار لا ينتهي ! كيف تطالبني بالالتزام وأنتم أول من خالف الالتزام ؟

تحكم عادل في رد فعل نفسه القلقة بشأن أمه وحالها، قال للراكب مفندا ادعائه:

– أقدر تماما سيدي معاناة الانتظار، لكن كيف سيكون الحال لو أن كل الركاب أتوا بفعلك ؟ ! دقائق قليلة جدا، وسوف يسمح لكم بالتدخين، أما بالنسبة للقهوة وإن كان هذا ضد التعليمات، سأتحمل المسئولية وأسمح بها، شريطة عودتك الفورية لمقعدك.

هز الراكب – على مضض – رأسه مضطرا بالموافقة على كلام المضيف، أعطاه عادل نصف كوب من القهوة، فأخذه وعاد أدراجه إلى مقعده، تشيعه نظرات باقي الركاب استنكارًا لفعله الصبياني غير الملتزم.

أثنت علياء على فعل عادل، استحسنت براعة تعامله مع الموقف، وعلى قدرته الشخصية – التي تفتقدها– الهائلة على التحكم في أعصابه، رغم سلوك الراكب المستفز ! قالت وقد رسمت على صفحة وجهها المتوتر دائما، ابتسامة باهتة:

– صراحة.. أحسدك يا عادل على هدوء أعصابك ! لو كنت مكانك، ربما كنت أصبته بالشلل، وأفقدته القدرة على الحركة و النطق، بحركة واحدة مني (صنعت بيديها إحدى حركاتها الرياضية التي تجيدها) لكن ربنا نجده من يدي.

ضحك عادل للتعليق ولحركة علياء التمثيلية الشارحة لرد فعلها الانفعالي المتوقع، وهو يقول متباسطا:

– « قلبك أبيض يا لولو» لا بد للإنسان من التحكم في نفسه، وضبط مشاعره الداخلية، فلو ترك العنان لأعصابه المنفلتة، لما بقيت على الأرض علاقة إنسانية واحدة قائمة !

تململت علياء في جلستها على مقعد غير مريح، يعلوه ملصق يقول،

إنه مخصص لاستخدام طاقم الكابينة فقط، زفرت ما في صدرها من زهق، ثم قالت معلقة على كلام عادل:

– عندك حق والله يا عادل، فقط أقول ما أقول لأخفف عما بداخلي من قلق يقتلني، لقد تركت طفلتي مع أمي لترعاها ! وهي في سن أصبحت تحتاج فيه لمن يرعاها ! والأمر يسوؤني كثيرا ! لكن لا أدري مخرجا منه ؟ أود لو بقيت معهم، لذا تقدمت فعلا بطلب عمل أرضي، وغالبا ما ستكون هذه رحلتي الأخيرة.

صمتت للحظة ثم عادت واستأنفت حديثها إلى زميلها، الذي لم يعقب على كلامها قائلة:

– أظنهم سيقبلون طلبي، لكن للأسف سينتج عن ذلك انخفاض هائل في الدخل ! لا أعلم كيف سأتدبر علاج أمي ؟ معاشها الحكومي لا يكفِي ! ثم مصاريف الحياة اليومية، ومدرسة التوأم الخاصة التي تغالي في أسعارها ! والله أنا في حيرة من الأمر !

قال عادل على استحياء، هامسا بسؤال:

آسف للتدخل فيما لا يعنيني – لكنه الفضول– ألا يشارك والد التوأم بجزء من مصاريف حياتهم وتعليمهم ؟ نحن نعلم أنه من أصحاب الدخل الجيد، مرتاح ماديا..! فكيف لا يتكفل بأولاده من الألف للياء ! ؟ حتى وإن طلقتم؛ فهم أبدا ينتسبون إليه !

طأطأت علياء رأسها قليلا، ثم قالت بصوت لونه الحزن:

– لا داعي للحديث عنه، فرغم ما فعله ويفعله معي ومعهم، لا أحب أن يأتي ذكره بمكروه فهو أبو بناتي شئت ذلك أم أبيت .

قال عادل متحسرا على سوء حظ زميلته علياء التي فشل ارتباطها بشكل غير متوقع:

– يا للعجب..! أهذا هو من حسدتك قريناتك على الاقتران به ؟ زميل عمل هادئ مجد طموح، صاحب أفكارومشاريع تجارية رابحة على الدوام، رجل كان أقل ما يقال عنه: إنه ذو مال وأخلاق.

أثار حديث عادل في نفس علياء كثيرا من الشجن والأسى، وفي مخيلتها أفكار وصور كثيرة، حرك داخلها ذاك الحوار الذي لا ينفك يدور في عقلها كرحى عملاقة تأكلها وعقلها ولا تعطي إلا طحينا من ألم وندم ! أوقات طويلة راحت فيها تقلب وتفسر ما حل بها، حاولت مرارا أن تجد مبررا لأفعال زوجها السابق، أن يتقبل عقلها وجهة نظره في أن يكون همه ومتعته هي كنز المال، كل ما في الحياة ليس ضروريا، يمكن الاستغناء عنه، أو استبداله بما هو أدنى .

تتمنى كثيرا لو أنها قادرة نفسيا كما هي جسمانيا أن تقول وتكشف شخصه أمام كل هؤلاء المنخدعين فيه، تتمنى لو أنها استطاعت أن تسقط عن وجهه قناعا يتجمل به أمام زملائه وأقرانه، أن تصرخ وتقول: لا يا زميلي، انطباعكم عنه مجاف للحقيقة، ربما يكون جزء منه صحيحا صحيح أنه ذو مال، لكنه ليس ذا أخلاق ! ما يغيب عنكم أنه من هؤلاء البشر العاشقين لجمع المال واكتنازه، يسعى جاهدا بكل السبل لرفع رصيده المخزون هنا أو هناك لكنه أبدا لا يستخدم جزءا من هذا المخزون – ولو اليسير منه – للصرف على أي شيء، شبقه يتعاظم طرديا مع الأصفار والأرقام ، فكيف تأتيه رغبة في الإنفاق حتى لو على أمور ضرورية ؟

لم تنطق علياء بأي من هذا، فقط تمتمت لنفسها بتلك الكلمات، هي حريصة على أن لا يسمعها أحد، لا تريد لعادل أو غيره أن يسمع ما يسيء، عن رجل هو أبا لأولادها، كل ما استطاعت أن تعلق به على كلام عادل:

– نعم هذه هي صورته لديكم، لكن الصورة لا تطابق الحقيقة دائما !

«27»

لوحة فنية جميلة، مشهد للقطة علوية بانورامية تظهر مهبط الطائرات بمطار JFK المترامي الأطراف، أيضا منظر الطائرات من عل وهي تتحرك، متعاقبة متقاطرة الواحدة تلو الأخرى، متجهة إلى نقطة البدء بممر الإقلاع، مع خلفية موسيقية من صوت عالي الأزيز، كأنها معزوفة لفرقة أوركسترا محركات الطائرات ! كل ذلك يشكل مشهداً بديعاً لقافلة جمال مرتحلة في صحراء واسعة، تسعى على صوت حاديها.

في تلك اللحظة كان المشهد داخل مقصورة القيادة، لكابتن حسان جالسا في مقعد القائد، قابضا على ذراع التحكم، يرقب بعينيه تحرك طائرة شركة « العال» الإسرائيلية التي تزحف أمامهم، طائرتهم محتلة الدور الذي يسبقهم في ترتيب الإقلاع ! قال حسان هامسا لنفسه:

– هَانَتْ.. خلاص الدور علينا بعد طائرة أولاد ال...! سندخل إلى ممر الإقلاع بعد ما يغوروا في داهية لا ترجعهم! قالها وهو ينفخ.

كانت الدلالة الأولى المستنتجة من قوله وفعله، هو أن الملل قد اعتراه جراء طول فترة الحبو الإجباري البطيء المفروض عليهم، بسبب كثافة الحركة في المطار. لكن حقيقة الأمر أن حسان يصاب بغصة في حلقه من رؤية نجمتهم السداسية العنصرية، التي تتوسط زعنفة ذيل طائرتهم الساعية أمامه كحية رقطاء !

حسان يعلم جيدا، البلاء المحيط بطائرات شركته المصرية، نتيجة جوار يفرض عليهم دائما في كل مطارات أوربا وأمريكا، حيث تكون طائرات الشركة الإسرائيلية إلى جوارهم أثناء فترات الترانزيت بتلك المطارات. أمر يراه حسان

مثير للاستفزاز، يعلم أن الأمر ليس من باب المصادفة، هو ترتيب صهيوني متعمد، واضح المعنى والدلالة ! حسان ليس فقط لا يحب رؤية شعارهم فحسب، بل إنه يتشاءم من رؤيته ! يعلم أن تلك النجمة ذاتها كانت يوما رمزا للسحر والشعوذة، وكرا للشيطان، فهي علامة إبليسيه لأعداء الخير والسلام. يتذكر كلما رآها ما أصابه من مرارة هزيمة حاقت بهم عام سبعة وستين. فهو من الرافضين «كامب ديفيد» أو لأي اتفاقية معهم، يرفض ما يسمى بالتطبيع ! يقول:

– كيف نوقع مع الشيطان معاهدة سلام ؟ والشيطان نفسه لا عهد له ولا أمان ! هؤلاء قوم لا يحترمون عهودا ولا مواثيق، هؤلاء قتلة الأنبياء !.

يتذكر فترة تجنيده الإلزامي، أدى خدمته العسكرية بالقوات الجوية، طيارا مجندا بقاعدة مطار «بلبيس» العسكري. لم ينس ظهر يوم شديد القيظ من أيام شهر يونيو عام سبعة وستين، الذى بات محفورا في ذاكرة أبناء هذا الجيل، فقد دكت طائرات العدو مطارات الجمهورية بالكامل، ضربة ساحقة، دمر العدد الأكبر من طائرات السلاح الجوي المصري !

هو ورفقاء السلاح شهود عيان على ما حدث آنذاك، وقفوا مكتوفي الأيدي.. قليلي الحيلة يأكلهم الغيظ ! سلبتهم الأوامر العليا القدرة على الحركة، كانت الأوامر الصادرة لهم ولوسائل الدفاعات الأرضية، عدم التعامل خشية إصابة طائرة القائد العام للقوات المسلحة الذي كان ساعتها يقوم بجولة جوية تفقدية لقواته فوق أرض ســـيناء..! ! أمر ملغز مســـتغرب، ولازال. كيف تتم عملية تفقد القوات جوا في نفـــس توقيت – المتوقع – لبداية الهجوم الإسرائيلي !؟.

عندئذ يلمح حسان بطرف عينه مساعده جمال، فيراه ساهم الوجه ! هادئ على غير عادته المشاغبة، ظن أن به إرهاقا، فربما لم يأخذ قسطا وافرا من الراحة، أو ربما لانشغال البال وكثرة التفكير؛ شعر بشيء من القلق حيال جمال، العشرة والعيش والملح تحتم عليه مساندته والوقوف إلى جانبه. حسان على المستوى

الإنساني رجل طيب القلب، تقرأ هذا بيسر على وجهه، أو تعرفه من نبرة صوته، واهتمامه بمن حوله، يتعاطف مع الآخرين إنسانيا وكأنه المسئول عن سعادة البشرية.

الغالبيه من زملاء جمال يعلمون ما يعاني منه في هذه الأيام، فالاقتراب من يوم عيد ميلاده يعني اقتراب يوم تقاعده، هذا يسبب له حالة من عدم الاستقرار النفسي..! بات يعيش خوفا من الغد، يود أن لا يأتي يوم إحالته إلى المعاش، فقال دونما يلتفت ناحية حسان، معلقا على تأففه من بطء الحركة، وطول الانتظار:

– كله بأوانه كابتن، لا تنقل قدم عن قدم إلا بإذن لله، فلم العجلة !؟

صمت بعدها، أخذ نفسا عميقا وأرسله مواصلا:

– كل شيء إلى انتهاء، لكن أبدا ليس قبل أوانه، وساعته المحددة.

من يسمع كلمات جمال آنذاك، يفهم أنها موجهة إلى حسان، بيد أن حقيقة الأمر، أنه كان يقولها لنفسه، يريد أن يسمعها، أن يتذكرها ويعيها، ليتغلب على ما به من شبهة يأس ورائحة إحباط تحملها رنة صوته.

– يا جيمي .. خليها على الله.

قالها كابتن حسان وهو يضغط زرار الإذاعة الداخلية لمخاطبة الركاب، كأنه يريد إسكات جمال، يمنعه من الاسترسال في حديث لا يشيع إلا جوا غير مريح، قرأ البسملة ثم أضاف:

– السادة والسيدات، سلام الله عليكم.. قائد الطائرة كابتن حسان يتحدث إليكم، بالإنابة عن زملائي أعضاء هيئةالقيادة والكابينة، أولا أرحب بكم معنا في رحلتنا هذه رقم Es 999 والمتجهة بمشيئة الله إلى مطار القاهرة الدولي، ثانيا أعتذر لكم عن التأخير الحادث، الخارج عن إرادتنا.. نحتل الآن الترتيب الثاني بين الطائرات المتأهبة للإقلاع، خلال دقائق قليلة سوف ندخل إلى ممر الإقلاع الرئيسي، متوجهين إلى نقطة الإقلاع، نتمنى لكم رحلة سعيدة وهبوطا

سالمًا إن شاء الله.

كرر حسان خطابه ثانية باللغة الإنجليزية. اتفق دوليا على استخدامها كلغة أجنبية أولى بين شركات الطيران، وفي كل حالات الاتصال بين الطائرات وأبراج المراقبة والمطارات، حيث يتعذر على البعض التواصل باللغة القومية لشركات الطيران المختلفة.

ولولت طائرة «العال» الإسرائيلية، تجأر محركاتها معلنة فرارها بعيدا عن أرض المهبط ! شيعها كلاهما بنظرة تحمل في طيها الكثير. حان الدور على الطائرة المصرية للتحرك إلى نقطة الإقلاع، علا صوت جمال العريض المميز مخاطبا برج المراقبة الجوية، معلنًا عن دخوله الممر الرئيسي واستعداده للإقلاع. لحظات مرت دون تعقيب من البرج، نظر جمال إلى كابتن حسان، ولسان حالة يقول ماذا هناك؟ أشار له بإعادة النداء، كرر جمال نداءه، صمت كلاهما مترقبا! جاء رد البرج متمهلا كأنه يتعمد التباطؤ، على غير المألوف والمتوقع:

- Standby !! *

كلمة غير متوقعة في تلك اللحظة، المشهد أمامهما واضح جلي، خلا الممر الرئيسي أمامهما من أي حركة هبوط أو إقلاع، أي إنه مهيأ لانطلاقهم، لكن ما جاء من البرج لا يعنى إلا الانتظار !! بدا الأمر مبهما بشكل كبير..! نظر كل منهما للآخر، لا يجدون تفسيرا لما يحدث، لم يفلح أي منهما في الوصول إلى مبرر منطقي لما يدور! ممر الإقلاع خال، مهيئ تماما للاستقبال أي حالة مغادرة أو وصول. نظر الكابتن إلى مساعده متعجبا مستفسرا منه :

- هو فيه إيه ؟ !

مط جمال شفتيه ممتعضا، رافعا كتفيه في علامة دالة على عدم الفهم، ثم قال:

- العلم عند الله، لكن ربما أرادوا مسافة زمنية فاصلة بيننا وبين اللي ما

* وتعني الانتظار لصدور أمر جديد.

يتسموش!

درب من التـخمين حـاول جمال أن يفــسر به هذا التلكؤ المتعمد من جانب المراقبة الجوية لمنطقة مـــــــــــطار JFK* الدولي ! لكن تفسيره للأمر غير مقنع، معروف أن التقاطر الزمني بين إقلاع طائرة وأخرى شرط واجب لابد منه، لكنه مكفول بالفعل بتلك الدقائق التى تستغرقها عملية الدخول للممر، إلى نقطة البدء، ورفع قوة المحركات تصاعديا إلى السرعة المطلوبة للإقلاع، فاصل زمني آمن بينهم وبين من سبقهم. الممر مهيأ لكن الانتظار مازال قائما، لغز دام لدقائق كانت بمثابة دهر من الزمن!

أخيرا جاء نداء من برج المراقبة الجوية لطائرتهم، رن صوت المراقب الجوي متحدثا إليهم عبر مكبرات صوت مقصورة القيادة بلكنة أمريكية، يبدو معها المتكلم كما لو أنه يتحدث من أنفه، أتت متعالية متعجرفة، مانحا الأذن باستكمال عملية الإقلاع و المغادرة، دفع حسان ذراع التحكم في سرعة المحركات، وهو ينفخ نفسا ساخنا من صدره! علا الصوت قليلا مصحوبا بحركة بطيئة للطائرة تكاد لا تحس، انحرفت الطائرة زاحفة إلى الخطوط البيضاء المرسومة على أرض الممر الرئيسي، تلك التي تشبه علامات للمشاة نراها عند إشارات المرور، ثم توقفت عند هذا الحد، كعداء اتخذ موقعه متحفزا عند خط البداية في مضمار السباق.

* هي الحروف الأولى من الاسم الثلاثي للرئيس الأمريكي « جون كينيدي « الذي سمي المطار على اسمه.

« 28 »

ردد كابتن حسان على مَسَامع الركاب دعاء السفر، خشوعا ورجاء، استعاذة من وعثاء السفر وسوء المنقلب، عَادةٌ درج عليها وزملاؤه تيمنا وبركة، اتبعها بترتيل آية قرآنية، بدأها مبسملا:

بسم الله الرحمن الرحيم . . .

«سبحانه الذي سخَّرَ لنا هذَا وَمَاكُنَا لَه مقرنين وَإنَّا إلى لَرَبِنَا لَمُنقَلِبُونَ.»

أمن خلفه بعض من استمعوا للدعاء، مرددين معه الآية القرآنية، بينما حرك جمال شفتيه بالتوازي مرددا ما قاله، بل وربما زاد عنه، ثم علا صوته في مكبر الصوت:

*Cabin crew takeoff position please

ثم أردف بدعائه الشخصي قائلا: توكلت على الله.

ومضت إشارة ربط حزام المقعد، ومنع التدخين، في نواحي الكابينة، علامة شفرية لأعضاء طاقم الضيافة، جلسوا.. التصق كل منهم بظهر مقعدة، ساحبا حزام مقعده محكما غلقه، شرط أساسي للأمان حال الإقلاع والهبوط ، أو إن ساءت الأجواء.

دقائق ثقيلة زاحفة، تسبق الإقلاع تكون كزمن عجوز هرم فقد قواه وقدرته على الحركة، لا يملك إلا حبو سلحفاة أصابها « الروماتويد » ! تمر الدقائق كدهر طويل ممل مرهق ! تحديدا هؤلاء الذين يصابون بحالة من الشد العصبي من فكرة الطيران ذاتها ! تلك هي المرحلة الأصعب، أشد فترات الرحلة حرجا وأكثرها قلقا، أعلى نسبة حوادث طيران، غالبا ما تقع في أثناء إحدى هاتين

*عبارة تقال بواسطة هيئة القيادة، لتنبهيه طاقم الكابينة، بالجلوس استعدادا للإقلاع.

المرحلتين، إما في مرحلة الإقلاع أو في مرحلة الاقتراب النهائي استعدادا لهبوط الطائرة .عادة ما تكون البدايات مشحونة بالتوتر لهؤلاء الذين لم يعهدوا استخدام تلك الوسيلة المريحة المزعجة، أما من اعتادوا السفر جوا فيدركهم شيء من التحفز الحذر، لكن الفئة التي تصاب بدوار الجو السقيم؛ وما يتبعه من تهيج للأمعاء فيصيبهم حالة غثيان، غالبا ما تؤدي إلى القيء وتوابعه من ارتباك وإحساس بالحرج و الخجل ! لكن المصابين بمرض الخوف من الأماكن المغلقة أو الأماكن المرتفعة، فسفرهم جوا يشكل لهم أزمة حقيقية.

شخص جمال ببصره إلى الأمام، إلى الفراغ الممتد بطول الممر، ممسكا بيده اليمنى على طرف عصا القيادة، بينما يده اليسرى تقبض كُلية على ذراع التحكم في قوة المحركات، كابتن حسان مسئول عن الإقلاع ذراعاه مفرودتان ممسكتان بطرفي عصا القيادة، استعدادا للانطلاق.. توكلت على الله.. كررها وهو يدفع (عُرف بين زملائه، بهمسه بأدعية وتراتيل حال الإقلاع أو الهبوط) ذراع التحكم، إلى الأمام رافعا سرعة المحركات لزيادة قوة الدفع. زأر محركا الطائرة.. زعقا بزمجرة كملك الغابة معلنا عن مقدمه. ينتفض بدن الطائرة في مكانها متحفزا، علا صوت المحركات إلى حد الصمم. سرعة المحرك تكاد تكون القصوى. كابتن حسان يلحظ عدادا بعينيه في اللوحة الأمامية، تمهل إلى أن جاءت قراءة محددة، ترك العنان للطائرة لتندفع إلى الأمام. انطلقت هذه الكتلة المعدنية، كبطة برية عملاقة تفر هاربة من قدر محتوم ! كأنها رصاصة من بندقية صياد محترف، تشق طريقا محددا لاقتناص غزال فضائي شارد.

الركاب يعلو صوتهم تدريجيا كلما علا صوت المحركات، تتحرك شفاهم مبتهلة بأدعية أو تراتيل، أما أصابعهم فهي تروح وتجيء مسبحة في عصبية غير ظاهرة، الجميع يرتقب بدء رحلتهم التي تأخرت كثيرا..! مالت طفلة جالسة إلى جوار إحدى النوافذ ناحية أمها التي تجاورها، همست:

– ماما.. أنا عارفة، بعد ما يقول الدعاء، ويتكلم بعدها بالإنجليزي، نطلع

على طول، صح ؟.

أدارت الأم ووجهها ببطء تجاه طفلتها، التي تنتظر رد أمها على ما خمنت به، لم تنطق الأم، فقط ابتسمت، مربتة على يدها تحيي فراستها، جاءت الابتسامة شاحبة مجهدة، ألقت الأم برأسها إلى الخلف، شاخصة إلى الأمام، وطفرت من عينيها دمعتان ! ردت الطفلة على ابتسامة أمها، قائلة في براءة:

- يعني خلاص كده... لما تنزل الطائرة، أشوف جدتي.. أصلها وحشاني قوي ؟

علت زمجرة المحركات بقدر كاف، وصل لمسامع كل الجلوس داخل كابينة الركاب، انتفض جسم الطائرة محدثا ذبذبة قوية محسوسة، سرت كتيار كهربائي إلى جسد كل من على ظهرها، فأصابتهم جميعا قشعريرة؛ مزيج من رهبة وخوف وجلت لهما القلوب ! ثم ارتجفت كجسد فرس فتي بري حرون يأبى القيد، يصارع من أجل انطلاق حر، ثوان ورفعت مقدمة الطائرة مفارقة سطح الأرض، ثم ما لبث أن تَبع باقي هيكلها مقدمتها. لحظات مضت جاء بعدها صوت عال وهدير مسموع مميز، ناتجا عن عملية لم مجموعة الَعجَل إلى بطن الطائرة، كان المساعد قد رفع ذراع التحكم فيه، مرددا بصوت مسموع، لإبلاغ الكابتن:

Gears up*

تحولت هيئة الطائرة وهي تنطح برأسها طبقات الهواء، إلى شكل طائر أسطوري ضخم ذي أجنحة مشرعة عملاقة تضرب الهواء بلا هوادة، وزعنفة منتصبة حادة، كزعنفة سمكة قرش هائلة تشق عبابه شقا، فيطفو الطائر في سعي حسيس منزلقًا على صفحة الهواء، مدفوعا بقوى سحرية غير مرئية، في رحلته إلى ما فوق السحاب.

---

* عملية رفع عجل الطائرة، ويقوم بها المساعد، ولابد أن يبلغ القائد بما فعله بصوت مسموع.

قفزت سرعة الطائرة دونما تدرج، إلى مئات الكيلو متر/ ساعة، بيد أن سرعة كل ما على ظهرها من أجساد، بقيت قابعة في السكون. كان أثر القصور الذاتي على تلك الأجساد آنذاك، كالفطائر المفلطحة، وجوههم ممتعضة، وأجسادهم ملتصقة بمقاعدها، مع انسداد الأذن، وثقل الرأس ! عندئذ يكون بدن الطائرة، وسطح الأرض يشكلان زاوية حادة.

كان شكل صالون الطائرة في تلك اللحظة، يكاد يتماثل وأحد أروقة هيئة الأمم المتحدة، حيث تجتمع بين جنباته العديد من الجنسيات والأجناس المختلفة، ربما يكونون على الأرض متفرقين متخاصمين أو متصارعين، أو يكون كل منهم له معتقده المتعارض مع الآخر! لكنهم هنا يتوحدون في ردود أفعالهم بشكل تلقائي، إذ تلهج الألسنة بالأدعية.. الكل يتذكر اسم ربه الأعلى، حتى من لا يعترف بوجود رب له ! لحظات تتوحد فيها القبلة بين الجميع، القلوب جميعها تتوجه إلى تلك القوة العليا التي نستشعرها بداخلنا، يتوسل ويسأل السلامة. طائفة ترشم على الصدور صليبا، وطائفة تفتح راحتيها لأعلى، ثم تمسح بها الوجه و الصدر، و البعض يضم كفيه أمام صدره ويميل برأسه للأمام، وآخرون قد يتمتمون ولا يأتون بأي حركة.

قوة دفع هائلة تقذف بها المحركات إلى الخلف، فتندفع الطائرة إلى الأمام في الاتجاه المعاكس، سرعة عظيمة متزايدة. أسطح رافعة كثيرة موزعة على جناحي الطائرة، تصنع زاوية الإقلاع، ترتفع رأس الطائرة في شمم وإباء إلى أعلى، مبتعدة مذايلة سطح الأرض بكل ما عليه ! ثم لا تلبث أن تحلق مخلفة أرض المطار من ورائها. أمور فنية كثيرة معقدة تتم بشكل تلقائي متتابع، لا تخطر على بال الركاب، لا يشغل تفكيره كيفية عملها ! رغم إنه يتأثر بمدى جودتها بشكل أو آخر !

شابة تكاد تكون منفصلة عما يدور حولها، غارقة تماما في شجن ذاتي، عاد بها من حيث جاءت، إلى ذلك المكان الذي تركته خلفها هذا الصباح. أغمضت

عينيها بطريقة عصبية، وأسندت رأسها إلى ظهر المقعد، تبحث عن راحة تفتقدها منذ زمن ! قبضت بكلتا يديها بشدة، ضاغطة ذراعي مقعدها. تحاول جاهدة تجنب دُوار تعرف جيدا أنه يصيبها، بمجرد إحساسها بارتفاع الطائرة، عن سطح الأرض ! لكن.. ما دوار الطائرة؛ مقارنة بذلك الذي تعيشه هناك ! ذلك الدوار اليومي الذي أفقدها توازنها في الحياة، وهاهي الآن هاربة تحاول الفرار منه !

دوامة لا نهائية سقطت فيها جراء أفعال شاذة غريبة، صدرت عن والد ابنها - لا تقول زوجها - أسقطته كزوج من حسابها ! انقلب فجأة إلى شخص غريب عنها، غامض عليها ! شخص لا تعرف بماذا يفكر.. ماذا يريد أو ينتوي ؟ رَجلٌ أفقدته أنانيته وحبه للمادة كل الصفات المميزة لبني الإنسان. كان الأمر الغريب المثير لدهشتها ! أنه خلال سنه أولى زواج، تلك التي انتهت بولادة وحيدهم، لم تبد عليه أبدا أي علامات تدل على أن ظاهره غير باطنه ! ثم دون أي مقدمات تغيرت سلوكياته وتبدلت أخلاقياته !

تقول «نرفان» وهي تحكي قصة تملأ حلقها بطعم مر، وتعتصر قلبها ألما:

- كان شخصا معتدلا، تصرفاته في أغلبها مقبولة، ربما لا أستطيع أن أصفه بالكرم، لكني أيضا لا أستطيع اتهامه بالبخل. لم يكن رومانسيا حالما لكنه لم يكن أيضا عنيفا، تأقلمت استطعت أن أتعايش معه ومع تركيبته، إلى أن حدث يوما ما لم أستوعبه أو أفهمه.. تحول مفاجئ ألم به، انقلاب غير متوقع في شخصه، لم يجئ متدرجا، ربما استطعت تقبله واعتياده، لكن التبدل حدث بشكل حاد غير مفهوم، ليلة وضحاها أصبح عنيفا، غاضبا دونما مبرر، يغضب لأمور بسيطة قد تكون عادية متوقعة كبكاء الرضيع ! يثور يترك البيت، يختفي طول اليوم ولا يعود إلا للنوم ! أصبحت أفعاله ضد العقل والمنطق، لا تتماشى حتى وروح الدين، أو الطبيعة الإنسانية المعتدلة، أصبح كذلك رغم أن قدوم الوليد كان له خير كبير.

اتسعت دائرة أعماله ، كبرت ، زاد حجمها، تحول من سمسار بسيط، يجري وراء رزقه هنا وهنـــاك، إلى صاحب مكتب سمسرة عقارية، سرعان ما نمى وتحول إلى شركة، ثم بدأت حساباته في البنوك تقفز مرتفعة يوما بعد يوم، حتى إن أرصدته في السنة الأولى من عمر وليدنا، تحولت من أرقام قليلة مسبوقة بأصفار ثلاثة، إلى أرقام سداسية الأصفار. فرحت.. هنأته بالنجاح، تمنيت له كل ما هو طيب، دعوت له بالتوفيق والاستمرار في النجاح. ولم لا ؟ فهو زوجي ووالد ابني الوحيد كان من الطبيعي وعلاقتنا في أوجها، أن أعتقد في أن ما يحدث هو في صالح أسرتنا الصغيرة، لكن العجيب والمدهش في هذا الصدد، جاء في المفاجأة التي خبأتها لي الأيام !

تكمل نرفان حكي مأساتها، ودموع متحجرة تملأ عينيها، قائلة: كانت الأحداث الجارية على أرض الواقع، على العكس من كل ما توقعته تماما..! كان مردود تحسن وضعه المالي غريبا ! تدهورت علاقتنا الزوجية، تفسخت الرابطة الأسرية، كأن الزيادة في رصيده البنكي، ارتبطت بعلاقة عكسية مع رصيد حبه لنا، انفصم ما كان بيننا. تبدل الحال وجاء الإهمال الذي كان مستترا في أول الأمر لي ولابنه؛ ثم راح يظهر رويدا، صار بلا أي مقدمات يفتعل الخلافات والمشاغبات، وما زاد الطين بلة، ذلك الشح المفاجئ الذي أصاب إنفاقه علينا ! إلى حد أن طالبني بالنزول إلى العمل !. لم لا – قالها مبررا– نحن نعيش مجتمع المرأة العاملة، هنا لا يجلس في البيت إلا ذوو العاهات، والأطفال. ادعى أنه يهتم لأمري، يخشى علي ملل البقاء وحيدة، رغم يقينه من أن طفلنا قد ملأ عليَّ وقتي، خطط لإرسال الطفل لحضانة متخصصة، قال: لم لا تحصلين على مصروفك الخاص ؟ الشركة تحتاج إلى كل قرش، لتقف بأرجل صلبة في سوق تنافسية طاحنة، ثم أضاف متكلفا: إن عملك سيملأ فراغ غياب الزوج عنك.

كان غيابه قد بدا ظاهرا؛ كصحراء قاتلة بدأت تزحف نحو حياتنا العائلية، دونما توقف أو تمهل ! انصعت لنصيحته، عملت نصف اليوم، حتى يكون النصف الآخر للبيت وللطفل. فجأة ودونما أي توقع، وبعد فترة ليست

بطويلة، وصلت شكوى إلى مكتب العمل تقول: إني أجنبية تنتهك قانون الولاية، بالعمل دونما تصريح عمل مسبق..! وصدر ضدي حكم بالغرامة – لم أعرف أبعاده – لمخالفتي قانون الولاية، منعت من العمل قبل الحصول على البطاقة الخضراء، تصريح الإقامة الدائم. هون من الأمر وقال لي: لا داعي لقلق، فلا تأثير لتلك المخالفة على استصدار تصريح الإقامة المستديمة لك، فهي ليست أكثر من غرامة مالية، ومن الطبيعي جدا حصولك على الإقامة وبالتبعية التصريح بالعمل، فأنت زوجة لمواطن أمريكي، يسدد الضرائب ويلتزم بالقواعد والقوانين.

تعجبت من طول الوقت وبطء الإجراءات ! لكنه كان يقنعني ويطمئنني أن الأمر طبيعي، وأن مثل هذا الإجراء يأخذ وقتا طويلا نتيجة للروتين وكثرة التحريات التي يقومون بها، من بحث وتدقيق عن شخص الطالب وأحواله. لكن الحقيقة التي كانت غائبة عنها، أن هذا الرجل زوجها ووالد طفلها، كان يسعى من وراء ظهرها، لخلق ووضع عقبات تحول دون إصدار تلك البطاقة لها، كان يخطط آنذاك لأمر لم يخطر لها على بال ! فقد كان هو ذلك المجهول الذي يقف وراء الشكوى التي أرسلت إلى مكتب العمل ! زوجها بيت وقصد متعمدا أن يحدث هذا التأخير في حصولها على تلك الوثيقة الهامة لها ! تحصن بجنسيته الأمريكية، ودبر مع شيطان (محامي الشركة) ادعى أنه صديق الأسرة؛ على تنفيذ مخطط لإبعادها عن الأراضي الأمريكية، كان في قرارة نفسه قد اتخذ العزم على طلاقها، لكن ذلك الشيطان الأمريكي ذو الجذور المصرية نصحه بأن يتم الطلاق خارج الأراضي الأمريكية ! لتفقد ما يمكنها أن تحصل عليه بناء على قوانين الطلاق هنا التي تقف منصفة للمرأة في مثل تلك الحالة.

بدأ معها مسلسل المضايقات منع عنها ما كان يعطيه لها شهريا، تركها تعاني قلة المال ، وهو يعلم عدم حصولها على تصريح للعمل ! تركها تستدين، حتى إن ثمن تذكرة العودة للقاهرة تكفل بها شقيقها الذي يعمل بالخليج، أعلنت استعدادها للطلاق، مقابل أن يتحمل فقط تكاليف معيشة ودراسة ابنه،

لكنه أصر على عودتها إلى مصر ليتم الطلاق حسب القوانين المصرية، قال لها تزوجتك في مصر، وإن أردت الطلاق عودي إليها ! في مصر هو قادر على التحايل والتلاعب وإخفاء ممتلكاته، قادر من خلال ألاعيب أي محام بسيط أن يجعلها تلف حول نفسها كما يقولون لسنوات طويلة دون نتيجة ! غالبا لن تستطيع أن تحصل منه حتى على مصاريف ابنه !

انتبهت سيدة تجاور نرفان في المقعد، على سقوط دمعة ساخنة على ظهر يديها، فالتفتت تجاه وجه جارتها، وفطنت إلى بكائها الصامت.عضت على شفتها، ولسان حالها يقول: ما أقساك أيتها الحياة. رق قلبها ودت لو أنها احتضنتها، وربتت ظهرها، فهي في عمر ابنتها ! لكنها... عادت ونظرت ساهمة من النافذة المجاورة لها تتابع عملية إقلاع الطائرة.

فعل ما يكفي لمنع عودتها مجددا إلى الأراضي الأمريكية، حرمها من فرصة المطالبة بحقها أو بحق طفلها..! ستلجأ للقضاء في مصر، سيكون أمرا عبثيا..! فقد أصبح لا يقيم في مصر، بل يكاد أن يكون قد قطع كل الخيوط الواصلة بينه وبينها ! كان وجهها ذا جمال هادئ يقطر ألما وحزنا، بعد أن تلفح بهالة من الأسى واللوعة، وتوج بإكليل المنكسر المهزوم.

انتزعتها أفكارها وقصة معاناتها إلى خارج سياق الرحلة وما يدور من حولها، حتى إنها لم تنتبه لوضعية جلوسها، التي جاءت كنتيجة طبيعية اتخذتها الطائرة بعد أن دخلت مرحلة الصعود، متخلصة من قبضة الأرض وقوة ربطها بكل ما على ظهرها ! لم تجد السيدة التي تجاورها في تلك اللحظة كلمات تعبر بها عن شجن انتابها متأثرة بحال جارتها، غير التعبير بشكل تراثي مأثور عن الجدود، معلنة عن حزنها وتعاطفها، بأن مصمصت شفتيها حسرة على معاناة إنسانة أقل ما تقوله عنها إنها رقيقة كنسمة، لطيفة كبلسم مهدئ للأوجاع شاف للجروح. مسحت بحنان أم على يدها. شعرت الشابة بدفء يد جارتها، تخيلتها يد أم تفتقدها بشدة، تلاقت عيناهما بشكل إنساني، قادر على عبور كل

الحواجز والمسافات، تآلفا وكأن معرفتهما ضاربة في عمق الأيام.

صراخ غير متوقع...! علا شق سكون اللحظة الوحيدة التي تفرض الصمت على كل هؤلاء الذي يركبون ظهر الطائرة. يسيطر نوع من الترقب القلق، حتى ترفع إشارة ربط الحزام، عندها يطمئنون أنها غادرت الأرض بسلام، تحملها أجنحة الهواء برفق مهدهدة لها، ترتقي درجات من سحاب أبيض، في سلم الفضاء العلوي، إلى أن تصل لمستوى الممر الملاحي الذي تقصد، فتنتقل بعده إلى العبور، وهو المرحلة الثانية من مراحل الرحلة المتعددة، التي تستمر حتى قرب نهاية الرحلة.

كان صوت الصرخة قادما، من مقاعد الركاب الواقع على ممر الكابينة جهة منطقة عمل علياء. انتفضت في مقعدها، تعلم أنها الأقرب بين زملاء العمل إلى مصدر الصوت. أدركت بحسها المهني أن الأمر لا يحتمل التأجيل إلى ما بعد رفع إشارة ربط الحزام، فكت حزام مقعدها -تعلم جيدا أنها تخالف تعليمات السلامة؛ التي يجب أن تكون أول من يلتزم بها -هرولت تجاه مصدر الصوت، التحرك إلى الأمام في تلك الأثناء يكون مرهقا، كأنك تسبح ضد التيار، الطائرة مازالت مستمرة في الصعود والارتفاع، عندئذ تكون الحركة داخل الكابينة في تجاه المقدمة، مرهقة كتسلق المرتفعات.

دم يغطي منطقة الأنف والفم لصبي، يميل بوجهه إلى أسفل ميلا شديدا، وامرأة تجلس جواره تكاد تنكفئ عليه هي من صرخت مستنجدة، تضع على أنفه يدها بمنديل ورقي خضب بلون الدم الفاصد ! لكنه لم يفلح في صد الدم الذي، اندفعت منه قطرات ملوثة قميص الصبي ! قالت المضيفة في لهفة مستفسرة:

- ماذا هناك ؟

ردت المرأة بطريقة مرتبكة هلعة:

- ابني ينزف ..!!

ردت علياء في نبرة مطمئنة:

– لا تنزعجي سيدتي، هذا يحدث أحيانا نتيجة ارتفاع ضغط الهواء داخل الكابينة؛ فقط ارفعي رأسه، بحيث تبقى في مستوى معتدل، اضغطي بهذا المنديل (ناولتها منديلا ورقيا بيدها) على أنفه حتى أوافيك.

أثناء تعامل علياء مع الصبي وأمه، ضغطت زرار الاستدعاء، أشارت بيدها بعلامة يبدو أنه متفق عليها، جاء زميلها عادل على الفور، يحمل كوبا بلاستيكيا به مكعبات من الثلج، وبعض محارم ورقية، وبعض آخر من المناديل الرطبة المعطرة. ضغطت علياء أحد مكعبات الثلج على النقطة الفاصلة بين حاجبي الصبي، ومدت يدها الأخرى للأم بتلك المحارم ومناديل الرطبة، لتساعد صبيها في تنظيف وجهه، ثم طلبت من الأم الإبقاء على المكعب الثلجي، ليساعد على تجلط الدم الناتج عن انفجار بعض الشعيرات الدموية بمنطقة الأنف. تركت علياء الأم بعد أن أخبرتها بالعودة إليها، بعد رفع إشارة ربط الحزام، عائدة إلى الخلف حيث مقعدها.

قالت فجر منتقدة تصرف علياء:

– كان من الممكن جدا أن تؤذي نفسك، في اندفاع كهذا، قبل رفع علامة ربط حزام المقعد !

ردت علياء مبتسمة، مقللة من شأن تعريض نفسها للخطر:

– ربك يسترها..

قاطعتها فجر بتوتر باد، قائلة: لكن. . .

لم تتركها علياء تكمل عبارتها، قاطعتها، قالت بحمية منفعلة:

– لكن ... لا وجود للكن هنا ! لم أكن استطيع ترك أم تصرخ، وابن ينزف، ولا أتحرك فقط خوفا على نفسي ! أو التزاما بتعليمات أيا كانت !

سكتت فجر.. لم تعلق أمام انفعال علياء الصادق، وكلماتها الخارجة من القلب. بعد هدوء لحظي، عادت علياء تقول كلمات، تعبر بها عن أيمانها القوي بالقدر والنصيب، وربما أرادت أن تسكت زميلتها، وتبطل انتقادها:

- فجر.. حبيبتي « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا »

ابتسمت فجر مؤمنة على كلام زميلتها، ونبست في هدوء تام:

- ونعمه بالله.

obeikan.com

«29»

صوت المساعد جمال، يتردد في غرفة القيادة، مخاطبا المراقبة الجوية، يطلب السماح لهم بالتسلق- حسب تعليمات الكابتن - إلى مستوى أعلى في طبقات الجو، حيث تقل نسبة الهواء المضاد والمقاومة الواقعة على الطائرة، فتزداد السرعة بشكل تلقائي، وعليه يقل زمن الرحلة نسبيا. رن صوت البرج، يرد على طلب الطائرة المصرية:

الطائرة المصرية Es 999 * يمكنكم الارتفاع، لمستوى 35 ألف قدم.

انحنى جمال إلى الأمام قليلا ليضبط المؤشر على الارتفاع الجديد. واصلت الطائرة تسلق الهواء. دقائق قليلة، ثم بدا جليا للركاب انخفاض صوت المحركات قليلا عما كان، عندئذ شعر الركاب باعتدال الطائرة، اختفت زاوية الصعود، اتخذت الطائرة وضعا أفقيا موازيا لسطح الأرض. أطفئت شارتا التدخين، وربط الحزام. سمح للركاب بالتجوال، والتدخين في الأماكن المخصصة، تنفس الجميع الصعداء، بعث فيهم إحساسا بالراحة. المنع والقيد يولدان إحساسا بانعدام الراحة.

أخذ بعض الركاب في تعديل وضعية ظهر المقعد ليكون أكثر ملائمة لحاله، وبعضهم راح يخرج بعض أغراضه الشخصية من الرف العلوي، وثمة أشخاص ينظرون من خلال النوافذ، يراقبون قدر ارتفاعهم عن الأرض، وهناك من هب من فوره متوجها إلى دورات المياه، وآخرون راحوا لطلب مشروب ساخن أو كوب من الماء، كان المنظر يقول إن الحياة قد دبت فجأة في هؤلاء الجالسين على مقاعدهم الطائرة.

---

* رمز لاسم شركة الطيران، ورقم الرحلة الجوية.

دون أي تباطؤ، توجهت علياء من فورها، إلى حالة النزيف التي واكبت زمن الإقلاع، تستطلع حال الابن و أمه، أخذت شيئا من عصير الفاكهة، وبعضا من المناديل الورقية، مدت يدها بكوب العصير للصبي، و المناديل للأم وهي تبتسم لهما متسائلة:

– هَا.. كيف الحال الآن ؟

– الحمد لله.

ردت الأم وعلى وجهها، علامات من الامتنان والرضا، بينما رفع الصبي وجهه ناحية علياء، بابتسامة رقيقة، أضافت الأم:

– أشكرك كثيرا.. وأعتذر عما سببته من إزعاج وتعب لك!

ردت علياء وهي تهم بالمغادرة:

– لا إزعاج ولا تعب، هذا هو عملي.. نصل بالسلامة إن شاء الله.. بعد إذنك .

انصرفت بعد اطمئنانها على توقف النزيف واستقرار الوضع. توجهت إلى حيث رئيس الطاقم، تخبره عما دار في الكابينة الخلفية، وما فعلته حيال ما حدث هناك.

آنذاك جاء صوت شومان يتحدث بلهجته الريفية من خلال الإذاعة الداخلية، معلنا عن برنامج الرحلة:

– مساء الخير حضرات السادة الركاب، مرة ثانية نرحب بكم في رحلتنا إلى القاهرة، دقائق قليلة ويبدأ أفراد الضيافة بتقديم وجبة عشاء ساخن، مصحوبة ببعض من المشروبات الغازية والعصائر المختلفة، ثم يلي ذلك تقديم المشروبات الساخنة، لذا نسألكم التعاون والالتزام بالمقاعد حتى يتسنى لنا تأدية واجب الضيافة. بعد الانتهاء من الوجبة، سيتم تخفيض دراجة إضاءة الكابينة، مع تقديم عرض لفيلم طويل. في الصباح قبيل الوصول – إن شاء الله – سنقوم

بتقديم وجبة إفطار خفيفة. نرجو لكم جميعا رحلة سعيدة، ونتمنى ألا تترددوا في طلب ما تحتاجونه؛ أفراد طاقم الكابينة يسعدهم مساعداتكم، وتلبية طلباتكم دائما.

إيزابيل ودنيا أو كما عرفتا بين الزملاء والأصدقاء « إيزِي و دُنْه »، كانتا في مكان عملهم في المطبخ الأمامي، منهمكتين في تحضير وتجهيز مفردات كثيرة وأدوات متنوعة، يتم استخدمها على مائدة الأولى المميزة؛ فصالون الأولى يختلف في شكل وحجم المقعد، أيضا فيما يقدم للراكب من أطعمة كما ونوعا، حتى أن شكل الخدمة المقدمة وأسلوبها، يختلف عن أخرى مجهزة سابقا لراكب السياحية.

نقر شومان باب كابينة القيادة، دخل إلى المقصورة، جلس بهدوء على طرف المقعد الثالث، الذي يقع خلف مقعد المساعد، متفاديا اصطدام قد يحدث بين رأسه ولوحة المفاتيح التي تعلو رأس طاقم القيادة، وقبل أن يبدأ حديثه، كان جمال قد مد يده إليه بسيجارة، فتناولها مبتسما، وقال معقبا:

– هذه شكلها رشوة يا كابتن، أكيد أنت جائع ؟

– تمام يا (أبو) شومان، أخوك قرب يموت من الجوع !

قالها جمال عبارته وهو يضحك مازحا، في وجه الرجل الذي عادة ما يترك انطباعا، بطيبة القلب وكريم الخلق، في نفوس الآخرين، والذي جاء رده على شكل ابتسامة عريضة أضأت وجهه، مع كلمات وجهها لكابتن حسان:

– والله...إن هذا هو ما جئت له، فنحن بصدد تقديم وجبة العشاء للركاب، لذا وقبل الانشغال رأيت أن أسألكم ما تحتاجون إليه؟

التفت حسان ناحيته، وهو يقول بامتنان:

– كلك ذوق يا شومان.. أكرمك الله، بالنسبة لي سأتناول بعض القهوة الآن، أما موضوع الأكل فاهتم بأمر جمال، أدركه قبل أن يفطس منا !

ضحك ثلاثتهم، ثم نهض شومان مغادرا، وهو يقول:

– تؤمرني كابتن !

تمتم حسان، الأمر لله، ثم استدرك مقترحا على جمال أن يذهب لتناول العشاء في الخارج في كابينة الركاب، على أن يحل محله المساعد البديل، إلى أن ينتهي من عشائه، حتى تكون له فسحة من الوقت لتناول طعامه على المهل، بدلا من عجلة يحتمها عليه تناول الطعام، مع بقائه في مقعد العمل، لكن جمال رفض الفكرة متمسكا ببقائه إلى جوار حسان سواء كان ذلك في العمل أو الراحة، وقال لحسان وهو يضاحكه:

– لا يا كابتن أنا معك، يا نعيش سوا؛ يا نموت سوا !

ضحك الرجلان، في وقت دخول شومان بالقهوة لحسان، وصينية العشاء لجمال، الذي قال كمن فوجئ:

– لم تسألني يا رجل، عن اختياري لنوع الوجبة؟

لكن شومان كان جاهزا برده، موجها كلامه لجمال، مخاطبا إياه بكنية محببة إليه، أطلقها عليه البعض احتراما لسنة، ولكونه كان يوما الأستاذ المدرب لمجموعة كبيرة ممن تخرجوا في معهد الطيران:

– يا «أبو الكباتن» أعلم جيدا أنك لا تطمئن لما ذبح خارج بلادنا، وتتشكك فيما يقدم لك، وسؤالك الحائر دائما، هل الذبح كان طبقا للشريعة أم لا ؟ وغالبا تصعب الإجابة ! لذا فالأسماك هي الخروج الأمثل من المأزق، لهذا أنا لست بحاجة لسؤالكم.

جاء رد فعل جمال تعليقا على ما قاله رئيس الطاقم، بالقهقهة ملء شدقيه، أما حسان الذي استمع إلى الحديث رغم متابعته قراءة العدادات الكثيرة التي تضيء أمامه، فلم يزد رد فعله عن ابتسامة على تلك اللمحة الذكية. فقد شَخَصَ شومان – موجزا– مشكلة جمال ببساطة شديدة.

تفتقت قريحته (الإدارجية) عن الحل الأمثل، الذي يتواءم وشخصية المساعد جمال وتركيبته النفسية، التي عرفها جيدا على مدار سنوات عمل ممتدة بينهم.

قُرب وتلاصق، تزاوج بين ساعات طيران متتالية، وأوقات عمل تمتد أحيانا أياما وليالي، تذيب أي مسافة فاصلة، وتزيل أي جدار عازل، تتولد ألفة وود، يصير التقارب هو الامتداد الطبيعي بين أفراد تلك الطائفة التي تعيش جل حياتهم داخل تلك المدن الطائرة. تنمو العِشرَة ، مناخ حميم يقوى أواصرها بشكل طبيعي، تتاح فرصة التعرف على التفاصيل الدقيقة، وعلى الأبعاد الإنسانية الخافية، تفك شفرة التعامل مع أي نفسية مركبة.

يوفر الاعتياد والاحتكاك فرصة الوصول إلى مفاتيح الشخصية، فتفتح صفحات كتاب الآخر المغلقة، يسهل قراءتها، وتوقع السلوك وتحديد رد الفعل المنتظر حيال بعض التصرفات والمواقف، هذا بالطبع يمنح قدرة كبيرة على التعامل بنجاح، فيحدث تناغم إيجابي يجعل من سكان المدينة الطائرة فريق عمل واحدا. كل هذا يحدث ببساطة وبتلقائية غير متعمدة.

لدى جمال مشكلة تقابله عادة، في سفرياته البعيدة عن البيت والبلد، تكمن تحديدا في حرصه على تناول أطعمة ختم عليها (حلال) وهي رسالة ضمنية تطمئن من يهمه الأمر من المسلمين، أن الطعام ليس فيه ما تحرمه عقيدتهم. وكانت المشكلة تتعاظم، عندما يكون في بلد سكانه ليسوا أهل الكتاب. هو شخصية موسوسة، يخاف أن يأكل عن طريق السهو أو الخطأ ما ليس بحلال له ! يفتش فيما يقدم إليه، يتشممه.. يقلبه يمنة ويسرى ليتأكد من خلوه من لحم أو دهن الخنزير أولا، ثم يتفحص طريقة الطهي ودرجة النضج، عادة ما يخوض في حوارات، ويثير تساؤلات عن كيفية الذبح، وهل تم بما يرضيه من عدمه؟ لهذا فهو – قدر المستطاع– يتجنب تناول أي لحوم ما قد ذبحت، حتى لا يضع نفسه في دائرة الشك. هو لا يتردد عن إعلان ذلك، كان يقول دائما حسما للموقف: ما حاجتي لأكل لحوم مشكوك من الأصل في أمرها ! لنقطع الشك

باليقين بإذن الله. كان جمال يضحك من انتقاد البعض له، ويقول: أنا من رافعي شعار الأسماك هي الحل. ثم يغمز بعينه مضيفا لمحدثه: ثم أن فواكه البحر يا أخي، له فوائد عظيمة.

يضحك البعض، يتعمدون مشاغبته، يذكرونه بأن طعام أهل الكتاب «حل لنا» وإن ذكر اسم الله، يرفع عنك الحرج. لكنه كان يردد قناعته الخاصة، قائلا:

– إن الذبح في بلد، يختلط فيها الحابل بالنابل، كأمريكا سيظل دائما موضع شك، فأنت أبدا لا تعلم ملة الجزار أو عقيدته ! فربما يكون شخصا وثنيا أو ملحدا، فليس ضروريا أن يكون من أهل الكتاب ! أيضا كيف تضمن عدم استخدام شحوم أثناء الطهي مستخرجة من الخنزير ! ثم وفي نهاية الأمر؛ ما لي أنا و ومال الحيرة والشك ووجع الدماغ !

يعتدل جمال في جلسته، استعداد لتناول طعامه ممسكا الشوكة بيمينه، وهو يبسمل ملتفتا ناحية كابتن حسان يدعوه لمشاركته الطعام، كعادة المصريين قائلا:

– بسم لله معي.. كابتن.

– بالهناء والشفاء يا جيمي .

رد حسان وهو يضبط بيده مؤشر أحد العدادات، نيابة عن جمال الذي انشغل بطعامه. مال ناحيته، مستكملا حديثه:

– أشعر يا «جيمي» أنك الآن أفضل من قبل، وأن حالتك المزجية تميل للمرح و الانشراح الآن عما كنت عليه ساعة جئنا إلى الطائرة.

– نعم أظن ذلك أشعر بالراحة والهدوء، بعد أن تسبب التأخير لي في شيء من التوتر والعصبية..! لكن الحمد لله أنا أفضل كثيرا الآن، أولا لأني بصحبتك، ويعلم الله كم أحب ذلك، ثانيا فأنا يا صديقي كلما حَلقتُ عاليا في الفضاء،

أشعر وكأني أقترب أكثر من السماء، وأني صرت أقرب إلى الله (مصمص شفتاه وأكمل) سبحان الله القادر على كل شيء، فنحن نحلق بأجنحة رحمته

« **سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين**»

رد كابتن حسان بتلقائية إيمانية، وبراحة لكلمات زميله ومساعده، دونما النظر ناحيته:

- صدق الله العظيم.

obeikan.com

« 30 »

في خارج مقصورة القيادة، وبعيد عن بريق عدادات تنطق بقراءات متباينة، وهدوء يشوبه صوت اتصالات نقاط المراقبة، كانت كابينة الركاب تبدو كمسرح كبير ذي طبيعة خاصة، قبيل دقائق من رفع الستار عن عرض مرتقب، فبرغم الوقت الناعس الذي يحسه الجسد وتنطق به عقارب ساعة اليد، إلا أن الإضاءة رفعت داخل الكابينة إلى أقصى حد تمهيدا للبدء، فانقلب ليل تشق الطائرة عباب أمواجه، غير عابئة بدياجير عتمته، إلى نهار أبيض رائع يغشى المكان، حتى يحسبه المرء صباحا ليوم ربيعي مشرق. كان ذلك خارج نطاق كواليس المسرح، والتي بالرغم من صغر مساحتها، إلا أنها كانت تضج بحيوية وحجم كبير لعمل دائر فيها.

حينئذ كانت أحاسيس المسافرين متماوجة مضطربة، من إرهاق وتعب أخذ مأخذه منهم، فسقطوا جميعا في وادي الجوع الذي لا يروي ولا يشبع، تمايزت البطون غيظا، صرخ الصغار وانتفضوا، بكى الأطفال و انتحبوا، فسخنت أعصاب الكبار والتهبت ! بات الجميع في حاجة ملحة للطعام، لم يصرفه عنهم نعاس شديد يتملكهم، فقد شارفوا جميعا على موعد نومهم الاعتيادي، لكن هيهات أن تمتلك نوما وأنت لا تمتلك الشبع. نفد صبر بعض الركاب فأعلن عن احتجاجه وتذمره على تأخر تقديم وجبة العشاء.

كان كل أفراد الطاقم يسعى إلى تقديم الأفضل رغم قصور الإمكانيات والأدوات أحيانا ! استعداد.. تحضير وتجهيز يقوم به كل منهم على حدة، كترس صغير في دولاب العمل الكبير. كل يحاول جَهدَه، يتعاون يشارك المجموعة للارتفاع بسقف الأداء، للوصول إلى مستوى مرض للراكب، ربما عوض شيئا عما عاناه سلفا، أو محا بعضا من أثر سلبي بالغ نتج عن ذلك.

حركة محسوسة لا تخطئها عين أو أذن، بدأت تجري في ثلاث نقاط عمل موزعة على المحور الطولي لكابينة الركاب. Galley وهو الاسم الشائع بين العاملين لمطبخ الطائرة، وهي المنطقة التي تحتوي على برادات التخزين، وأفران التسخين، حيث يتم تجهيز الطعام بما يلائم التقديم.

دارت الأفران الكهربائية سخنت بسخونة الحركة الجارية داخل النقاط الثلاث، وصل أزيز مراوحها لآذان الركاب، مشفوعة بأبخرة أطعمة تزكم أنوفهم، علامتان كافيتان لأخبار الركاب بما يجري من استعداد قبيل تقديم وجبة العشاء، أثارت رائحة الطعام التي نقلتها الأبخرة المتطايرة شهية الركاب، فزادت من حدة إحساسهم بجوع، بدأ يقرص أمعاءهم.

كانت إيزي، في تلك اللحظة تقف في منطقة المطبخ الأمامي المخصص للدرجة الأولى، منشغلة جدا بعملها، بعد أن اطمأنت أن جرس الاستدعاء من مقصورة القيادة، الذي لا يمكن التأخر عليه، لن يأتيها على الأقل في هذه الأثناء إلا في حالة طارئة، لا قدر الله. انهمكت غاصت في جزيئات متباينة، ولجت في تفصيلات كثيرة دقيقة، ترتيبات متعددة تلك التي تسبق تقديم العشاء هنا. تغمز إيزي بعينها، وهي تضحك قائلة، لدنة، بمرح طفولي جميل: أرجوك الانتباه والتركيز في العمل، فاليوم لدينا ركاب على درجة عالية من الأهمية. فترد عليها صاحبتها وزميلة العمل، وقد أضاء وجهها بابتسامة واسعة، ولمعت عينيها ببريق سعادة وانشراح:طبعا...طبعا مفهوم سيادتك يا أفندم.

عادة ما يكون زمرة الركاب الذين يشغلون مقاعد الأولى، يحتاجون للمسات خاصة وعناية بشكل مختلف. لذا فالعمل في منطقتهم يفرض قواعد وأصول لا يمكن تجاهلها أو التخلي عنها، ولهذا فالمضيفة التي ترشح للعمل هنا، تحتاج لممارسة وخبرة طويلة، تدريب ومهارة خاصة. فالخدمة وأسلوب تقديمها هنا، يختلف تماما من ناحية الشكل فهي تكاد تكون شخصية لكل راكب على حده، لهذا فهي تحتاج استعدادا وتحضيرا خاصا لخطوات مختلفة عما يدور في النقطتين

الآخرتين المسئولتين عن مسافري الدرجة السياحية.

انتهت إيزي من إعداد العربة – ترولي– الأولى من سلسلة ستتوالى تباعا، لتقديم أطباق الأطعمة المتنوعة. مفرش له لون خاص هادئ بديع. مقبلات فاتحة للشهية، عبارة عن صحاف من فواكه البحر، تكاد رائحة اليود تفوح منها، تتلألأ بلون الطزاجة الوردي. رفع الغطاء عنها قبل لحظات من تقديمها مباشرة، إنه الطبق الأول في قائمة الطعام، التي تعد خصيصا لهؤلاء شاغلي المقاعد العريضة، على الطائرة.

تزامن فعلها كمسئولة عن التحضير والتجهيز في منطقة المطبخ مع فعل دونة.. التي قامت بدورها كمسئولة عن تهيئة الموائد المنطبقة الخاصة المخبأة بذراع كل مقعد، حيث أخرجت كل طاولة من مكانها المسحور الذي يخفى على البعض، وضبطت وضعها بشكل آمن، وجهزتها بمفرش منقوش برسوم مصرية زاهية الألوان، ثم رصت عليها أدوات مائدة فضية مخصصة لاستعمال هؤلاء فقط.

زهور القرنفل الحمراء و البنفسجية المزركشة، للترحيب بعملاء الشركة من الشخصيات الهامة، ورجال الأعمال الذين عادة ما يكون هذا مكانهم المختار أثناء سفرهم جوا، لا تنسى دونة أن تقدم ابتسامتها العذبة الودودة مع الزهور، توزعها على الجميع، كأنها ورودها الندية تهبها حبا ومودة.

لها أسلوب ذكي يجعل ابتسامتها تبدو كما لو أنها تخص محدثها دون غيره، بيد أنها لم تخص أي منهم. فهناك من استحوذ على كل ما يمكن أن تخص به أحدا بعينه. آدم الذي يشغل آنذاك أحد تلك المقاعد العريضة، خصته بقرنفلة حمراء، منداة بنظرات ولفتات، مطلسمة لا يفكها غيره.

دنيا ترى آدم بصورة مختلفة عن كل من حوله، وكيف لا..؟ فهي كالغواص الذي أبدا لا يتوقف عند السطح وإن كان جميلا. استطاعت بمجساتها الأنثوية أن تسبر أعماقه، تكتشف جماله الداخلي. فباتت تراه غير سائر الرجال، فارسا

نبيلا، له صـفات وأخلاق قلما توجد في تلك الأيام. تسأل نفسها.. أيكون وافدا جاء من عصر غير العصر ؟ ربما.. لكن المؤكد أنه جاء لي أنا وحدي.

تنتشي دنيا يرتعش داخلها لهذا الخاطر، يمطر قلبها وردات بهية اللون زكية الرائحة، ويتقافز في صدرها فرح بإحساس جديد. دنيا تنظر إليه نظرة مشحونة بزخم من معان إيجابية جميلة، نظرة بعمق عاطفة مشبوبة. حب دنيا كان بكرا عذبا، جاء نقيا من نبع مشاعرها، المطمورة بقلب أُقتصرت وظائفه، على واجب بيولوجي ليس إلا.

كانت دنيا كامرأة، قبل ظهور آدم في حياتها، لا تعرف معنى الحب كعاطفة، كانت تسمع عنها، فتتعجب متسائلة في نفسها، ماذا تعني الرومانسية ؟ كلمة مصمتة لا فحوى لها، لها بريق وقلب حجر مصقول، حلية لفظية يستخدمها الشعراء و الأدباء، تلك الزمرة التي تقتات من تجارة الكلمات، يبيعونها للتعساء الحالمين الذين يبحثون عن أمل أو حلم ضائع، في وهم ما ينسجه هؤلاء من قصائد وحكايات منفصلة عن الواقع.

كانت تلك هي رؤية و رأي دنيا في الحب ! وهو أمر طبيعي، يتماشى مع منطق تجربتها القاسية التي مازالت تعيش في أتونها !. فلم يحدث أن خفق قلبها كامرأة بمثل تلك المشاعر ! لم يفلح أحد قبل أن يلج قلبا كان منفتحا على الحياة، لكنه أوصد منذ اقترن اسمها بزوج، لا ترى فيه إلا ديكتاتورا ظالما؛ يمارس على رعيته أسوأ أنواع السلطة القمعية، لا يفعل إلا الجباية ، والجباية فقط ! فلم يعرف قلبها طعم حب تقول به الأغاني ! فالرابطة التي تجمعها بذكر تعيش معه، لم تؤسس إلا على ورقة كتبها معه وليها ذات مساء، غابت عنه نجوم الفرح.

كان يخامرها خاطر عجيب عن علاقتها بهذا الذي يشاركها السكن، حيث ترى العلاقة بينهما، كإقطاعي روسيا القيصرية الذين كانوا يتملكون الأرض وما عليها من بشر وحيوان ونبات، فهي وكل ما تملك، من أجل سعادته ورضاه ! .

«31»

شمس تظهر وحيدة في سماء موقعها، تقف في مطبخ منتصف الكابينة، مستغرقة تماما في عملها، أو ربما في عالمها الخاص، تلفها أبخرة متصاعدة من عملية التسخين، تلك التي تطير إلى أنوف الركاب حاملة رائحة الطعام، فتلهب بطونهم بسياط الجوع، فيتحسسونها، وهم ينظرون في عقارب الساعة مترقبين زحفها البطيء، عاتبين تلكأها المقيت لإطالة فترة معاناتهم.

وسط تلك الغيمة تظهر صورة شمس عاقصة لشعرها، مرتدية مريلة العمل بالكابينة، واضعة زوجا من قفازات حرارية سميكة، لحماية يديها من سخونة الفرن. عندئذ كانت أخرى مختلفة، ذرعاها يتحركان بطريقة شبه آلية فيما بين الفرن والترولي تنقل الأطباق الساخنة، تضعها على الصواني المرصوصة داخل عربة الطعام، تعمل بدربة وحنكة، فينثني جزعها وينفرد، وكأنه ركب على زنبرك لين. مسئولة هي عن تجهيز ترولي كامل، مع تزويده بزجاجات المياه... مشروبات غازية وعصائر متنوعة، أيضا لا تنس وضع وعاء معدني ملفوف بمفرش مائدة بشكل أنيق، به مكعبات من الثلج، لمن يرغب.

من يراها آنذاك، يشاهد على وجهها علامات تقول بتركيزها الشديد فيما تفعل، لكن الحقيقة أنها وبرغم حضورها المشهود به، داخل تلك الأنبوبة المعدنية، المحلقة في ساعة متأخرة من الليل، على ارتفاع آلاف الأقدام من سطح الأطلنطي بأمواجه الهادرة، لم يكن ذلك إلا بالجسد فقط، فعقلها شرد مرتحلا إلى القاهرة، محاولا استطلاع حال أسرتها الصغيرة المكونة من زوج وطفلة لم يتجاوز عمرها أشهر قليلة. أما روحها القلقة دائما، والتي تشعر بشكل غير اعتيادي، أن رحيلها النهائي قادم على جناح السرعة، وبطريقة غير تقليدية، تلك الروح سريت مهرولة، ساعية بين مهد رضيعتها تهدهده وبين مهد طفولتها،

تطوف ببيت ولدت وشبت فيه، تبحث بين جدرانه عن كهل تقاعد يوم أن طارت، تقبل رأسه الذي صار أبيض كقلبه، وتضم أما عجوزا إلى صدرها، ماسحة برأسي شقيقتيها.

يوما قصت لها أمها، قصة ولادتها، وتسميتها، قائلة: كان أبوك وقتذاك رياضيا معروفا، ذا جذور صعيدية، اشتهر بالتشدد وصلابة الرأي ! فمنذ اليوم الأول من زواجنا انتظر الولد، لكني جئته بالأنثى مثنى، استسلم لقضاء لا راد له، لكنه لم يشعر بالرضا في أعماقه...! وكان عذره أنه شـــب ونشأ في بيئة ذكورية خالصة، تســيطر عليها ثقافة «الولد الذكر» فمن لا يرزق الولد في عرفهم، لم ينجب ! ابتلع وجعه، عقد آماله على حمل زوجته الثالث، عاش حُلما خاصا بأن طفله القادم هو « شمس الدين « سيكون له شمس الدنيا، قال لامرأته ليكن حملك هو شمس الولد الصبي الذي أريد، تمنى أن تشرق دنياه به، أن يضيء بوجهه فضاء حياته.

يقين غريب تملكه، رافضا فكرة أي احتمال آخر، لكن القدر عانده ثانية، وأرسل له شمس طفلته الثالثة، رفض الخبر وأصر على أن لا يرى إلا ما أراد « شمس » هو الولد والصبي الذي ينتظر. كبرت شمس على أنها صبي، حتى بعد أن شبت عن الطوق، ورغم بعض نتوءات أنثوية – لم تعرها انتباها– لم تتخلص شمس مما لصق بها من عادات وسلوكيات ذكورية، فمظهرها جامد وسلوكها جاف، إضافة إلى كلامها الخشن ! تركيبة شمس بعيدة تماما عن ليونة الأنثى، ودلال البنات !

الأب الصعيدي الرياضي يثق في ابنه شمس يمنحه الحرية التي يمنعها عن شقيقتيه، حتى أنه وافق بين ذهول من حوله، على عمل شمس كمضيفة جوية، كان قرارة بالموافقة (شمس راجل، ما أخافش عليه) هو لا يرى غير ابنه الذي يثق فيه، يعتمد عليه، ربما يخاف ويقلق على شقيقتيه اللتين كانتا أكثر انشغالا بأنوثتهن، التي لا تتذكرها هي !

تناقض غريب عاشته شمس، بين مظهرها الذكوري الجامد، وبين إحساس نما داخلها، يوم أن اكتشفت أنها أنثى مثل شقيقتيها، جاءها إحساس مبكر بالأمومة، مارسته مع كل من يقترب من دائرتها الحميمة. كانت رغم أنها الصغرى، وحال غياب الأب تعيش الإحساس بالمسؤولية تجاه أمها وشقيقتيها ! لكن وبالرغم من ذكورية مظهرها وخشونة سلوكها، فإنها تمتلك في جوفها قلبا كريما، حانيا رءوما، فيه أمومة غير منظورة من أحد.

تتذكر قصة زواجها، وكيف بعد تخطيها لعقدها الثالث، تراجعت قليلا عن رفضها لفكرة الارتباط في العموم، مع إصرار على رفض الزواج بمعرفة وسيط أو بترتيب مسبق، تتذكر كلمات كانت ترددها آنذاك: لا بد أن اختار بإرادتي، من سوف يشاركني الحياة.

فشل في تجربة زواجه الأولى، وبات شابا مطلقا لكن دون أولاد، التقى عصام مصادفة بها، في بيت خالتها جارة أسرته، تعلق بها من أول نظرة، لكنها رفضت متعللة بأنها لا تعرفه، لم يستسلم لرفضها بل أصر على الارتباط بها، أحب فيها بساطة وتلقائية افتقدها في تجربته الأولى، ولفت نظرها بإصراره، قبلت لإلحاحه ولرغبتها في ممارسة مشاعر أمومة تملأ كيانها، ثم وأخيرا استسلم أبوها واعترف بأنوثتها.

طالبها عصام باعتزال الطيران، لكنها ترددت رفضت فكرة الاستقالة، قال أبوها: خير الأمور الوسط، لتكن إجازة دون أجر، لا أحد يعلم الغيب، وربما تحتاجين العودة للطيران يوما ! أما هي فضحكت قائلة في محاولتها لإقناع عصام، باقتراح والدها: الاستقالة خسارة لك يا ابني، موتي في الطيران، يعني فلوس كثيرة لك !

حملت.. تغير قوامها، فقدت لياقتها للطيران، لازمت المنزل، وضعت حملها، طارت فرحا عندما نطقت طفلتها بحروفها الأول، كانت سعيدة بوجودها إلى جوارها، لكنها ذات صباح قالت لزوجها:

– سأعود للطيران.

صمت عصام، لم يرد تركها تخرج كل ما في صدرها، فاستطردت:

– حلمت كثيرا بالتسوق من أجل طفلتي، دعني أحقق حلما تمنيته كثيرا، وأعدك بالاستقالة من هذه الحياة بعد ذلك.

نظر عصام إليها، في غضب لمقولتها المتشائمة:

– كفاك الله الشر، وأطال عمرك، لا داعي لمثل هذا الكلام !

فابتسمت شمس، واقتربت منه في ود، مربتة ظهره:

– أقصد حياة الطيران، حبيبي.

نظر إليها مليا، حدق في عينيها، أجمل ما يميز شمس عينان عسليتان واسعتان تشعان بحب الحياة، رغم ما يسكنهما من لمحة حزينة غير مبررة، لم ينطق بكلمة، لكن أفكارا كثيرة كانت تعتمل برأسه، فهو لا يتقبل فكرة أن تبعد زوجته عنه وعن طفلتهما ! عانى عصام كثيرا بعد انفصاله الأول، لكنه الآن قد اعتاد البيت والزوجة، والحياة الرتيبة الهادئة، أصبح شخصية (بيتوتية) لا يميل للخروج إلا للضرورة، فقال محاولا خلق عراقيل في طريق عودتها لعمل، سيأخذها بالضرورة بعيدا عن البيت وطفلتهما:

– لمن تتركين رضيعتك حال غيابك ؟

قالت وهي تبتسم محاولة التأثير على قراره الرافض:

– بارك الله فيك يا حبيبي أنت أولا، ثم عائلتي بالكامل لن يتركوها، هم دائما إلى جانبها وجانبك، ربنا يبارك في أمي، أيضا أختي منال هل نسيتها ؟ أنت تعلم مدى تعلقها بالصغيرة .

ابتسم ابتسامة باهتة، قائلا على مضض:

– لا أحد يعوض غياب الأم !

يرفض فكرة حرمان رضيع من صدر أمه، يرى في ذلك ظلما، يمارسه المجتمع على طفولة عاجزة، لا تستطيع التعبير عن احتياجاتها ! قد يكون الأمر مقبولا حال الاضطرار - يقول- لكن ممارسته ضد طفل أمه على قيد الحياة، وليست مضطرة، فهذا مأسوي: غبن.. عنف وتعنت، قسوة غير مبررة تجاه طفولة هي مستقبلنا ! لم يسلم بفكرتها.. لا يهضم تمسك زوجته بعمل ليست في حاجة له.. !

تناقض شديد استشعره المقربون من شمس، كيف تجتمع فيها الأمومة، والتصاقها الشديد بطفلتها، وتلك الرغبة الغريبة العاصفة بالبعد عنها ؟ طقت في دماغها رغبة العودة لطيران سيأخذها دون جدال، بعيدا عن رضيعتها ! طالبها الجميع الانتظار، إلى ما بعد الفطام ! لكن إصرارها كان غير مفهوم، كأن أمرا جاءها لا تستطيع أن ترده ! كانت حجتها ضعيفة واهية، لم يتعاطف أحد مع قرار عودتها للطيران، لكن رغم ذلك التزم الجميع الصمت، كأن على رؤوسهم الطير.

تشعر وهي في مكانها المعلق بين السماء والأرض، بأن قلبها يكاد ينخلع من مكانه لهفة على الصغيرة، فهذه هي المرة الأولى التي تفترق عنها، تتعجب من حالها، يخامرها إحساس غريب، بالندم على ما فعلت ! تأملت في وجع ينهش قلبها، لم تفهم ولم تجد إجابة على سؤال يصفعها بشدة: ما الذي جعلها تصر وتندفع في أعمال تلك الرغبة المجنونة ؟ فمنذ لحظة - في غبش المخدر- أن قربوا منها قطعة من اللحم الأحمر، لم يستطع عقلها المترنح حينها أن يحتفظ بصورة ملمحها، هبت داخلها ريح عاطفة مشبوبة، حب جارف لهذا المخلوق الضعيف الصارخ طلبا للأمان، شعرت بسيل عَرِم، فيضان طاغ يكاد ينبثق مندفعا من حلمتيها المنتفختين، ضمت طفلتها بقدر ما استطاعت إلى صدرها، فهدأت الرضيعة بشكل لافت. أيقنت عندئذ أنها لن تقدر على فراقها أو تركها حتى ولو لحظة واحدة، راحت تجادل نفسها، ودموع تسقط من عينيها: يا لي من امرأة حمقاء، كيف فعلت ما فعلت، ماذا أفعل هنا..؟

نظرت شمس إلى ساعة يدها التي تظنها خربت وتوقفت عن الدوران. لا تفتأ تحسب الوقت المتبقي أمامها كي تأخذ رضيعتها ثانية في حضنها. قبل أن تغادر مطار نيويورك، هاتفت زوجها، ألحت بصوت مختنق، رجته أن يأتي بطفلتها للقائها بالمطار عند الوصول، دموع تملأ مقلتيها دونما سقوط، إحساس خفي يسكن صدرها ويسيطر عليها، إحساس مزعج لكنها لا تعرف كنهه ! لم تخبر أحدا بتلك الغصة تسد حلقها ! تشعر كأن الزمن يأخذها في طريق مغاير، طريق بعيد مختلف، ربما يكون طريقا للعودة، نعم هو طريق للعودة لكنه غير مألوف، طريق ضبابي لم أسلكه من قبل ! طريق يأخذنا إلى الديار، لكن أي ديار؟ هي لا تعلم.. ! قلبها يقول بأنها ليست تلك المألوفة لديها ! ديار مختلفة الشكل، مختلفة السكان ! تعود وتنظر إلى الساعة تراها وقد توقفت وماتت عقاربها، لا حراك فيها ! تتأفف؛ تحس الطائرة قد سمرت في مكانها، معلقة على ارتفاع شاهق، يحيطها ظلام بهيم، رغم المحركات العفية التي كانت تدفع الطائرة في خط سيرها بسرعة تجاوزت سبعمائة وخمسين كيلو مترا في الساعة، الطائرة في سباق مع الزمن في اتجاهها لمحطتها الأخيرة.

ربت شومان بيد حانية على كتف شمس، جاء فجأة إلى حيث تعمل بمفردها، ليطمئن على سير العمل يسألها إن كانت تحتاج المساعدة، لم تتوقع حضوره، يده أيقظتها من شرودها، فزعت.. نظرت إليه بعيون غائمة، لكنها لم تنطق بكلمة، عادت تنهي ما بدأت، انتبه هو لذلك سألها:

– ماذا بك ؟

صمتت.. بحثت عن هواء تتنفسه، إحساس بالاختناق، ثم تمتمت:

– لا شيء..!

ابتسم شومان ابتسامة هادئة مطمئنة وهو يقول:

– أظن أنه العكس تماما ! فشرودك وفزعك، نظراتك التائهة الشاردة، تقول بأن هناك أشياء كثيرة، لا شيء واحد فقط .

لم تنظر إليه، حجبت وجهها، حتى لا يرى دمعة فرت دونما إرادة منها، سقطت ساخنة منزلقة على خدها، لا تحب أن يراها أحد تبكي، أن تبدو ضعيفة أمام أحد، نعم هي امرأة أم يهفو قلبها لوليدها، لكنها قوية هكذا يجب أن تبدو. تذكرت أبيها، شعرت بوحشة كبيرة تجيش بصدرها، وحشة له ولأمها وشقيقتيها، هاجت مشاعرها فجأة، انهارت مقاومتها أمام الشجن الطاغي، فانفلتت منها دموع كانت حبيسة مقلتيها، بدت في تلك اللحظة كأنها كانت في انتظار تلك اليد الحانية، التي داست دونما تعمد على وجع الفراق، الذي استشعرته لأول مرة.

شومان هو رئيسها المباشر، ومديرها في العمل، لكنه يعامل الجميع بشكل أبوي، خصوصا هؤلاء الذين تقترب أعمارهم من أعمار أبنائه، يشعر بالمسئولية تجاههم، سرى إحساسه إلى روحها، ففكت أسر دموعها. لاحظ دموعها تسيل متساقطة على خديها، مد يده إليها بمنديل ورقي، قال مجاهدا نفسه وعواطفه الجياشة، ليبدو أكثر ثباتا واتزانا، بصوت حاول أن يكسوه برنة حكيمة هادئة، تحمل عمق وثقة العالم المجرب:

- إحساس بالغربة، وافتقاد البيت والوطن.

أومأت برأسها دون أن تنبس ببنت شفة، وهي تمسح دموعها. ربت شومان على كتفها ثانية، هو يعلم جيدا مثل هذا الشعور الخانق، الشعور بوحشة الأهل والدار والوطن، شعور إن طغى لا يترك الشخص دون أن يستنفذ كل ما لديه من دموع ممكنة، ثم قال:

- هانت... لم يبق إلا القليل، سيرتاح الجميع، إن الله يا ابنتي جعل لكل أمر نهاية، فلا تبتئسي، فالجميع هنا يتوق لنهاية الرحلة، التي أبدا لا تنتهي حسب ما نريد، لكنها فقط تنتهي في ميعادها المقدور.

أنهى شومان كلماته الأبوية، ثم صمت هنيهة، قال بعدها هو يرسم على وجهه ابتسامة عريضة:

– هَاَ.. هل انتهيت من التجهيز، أم تحتاجين إلى مساعدة ؟ سوف تنضم إليك فجر، لتبدءا تقديم الوجبة معا من هنا، وهم في المطبخ الآخر قد استعدوا وينتظرون منك فقط إشارة البدء.

تعمد تغيير الموضوع، بهذا الشكل المفاجئ كي يخرج « شمس» ونفسه إلى منطقة شعور أكثر حيادية، قد تساعدهم على تأجيل أحزانهم إلى حين، يحاول التخفيف عنها، ولينأى بنفسه عن التورط في تلك الأزمة النفسية التي عاش يعاني منها منذ بدء عمله بالطيران، أحيانا كان ينجح في مقاومة الإحساس قبل أن يسيطر عليه، بأن يشغل نفسه بأفكار مغايرة تأخذه بعيدا عن أي تفكير سلبي، إن استحوذ على مشاعره عاش وقتا عصيبا يجتر فيه الأحزان و يعاني وجع الحنين إلى البيت و الأهل. هو ريفي المنشأ، في أعماقه تكمن كل تقاليد القرية والعائلة الموروثة، شخصية لا تعرف غير البيت والعمل، يعشق تواجده في البيت بين أفراد أسرته أو قبيلته، على حد تعريفه الساخر. رغم أنه يقيم في العاصمة التي تصبغ أهلها بلون باهت وتكسبهم طعما مغايرا، وبرغم امتهانه سفرا يأخذه عنوة بعيدا عن البيت والوطن، إلا أنه أبدا لم يعتد ذلك البعد، ولا الإحساس الثقيل بالحرمان من حضن البيت ودفء العائلة الذي يعتبره من أكبر سلبيات مهنة سعى جاهدا يوما ليكون من أبنائها.

وها هو الآن وبعد قرابة ثلاثين عاما من الطيران وربما يزيد، مازال يعاني من بعده عن البيت والأسرة، لم يستطع يوما أن يهضم ذلك المصطلح الذي يلوكه البعض باستخفاف، متشدقين به وكأنه أمر هين لا يمثل هما وشجنا ! يقول شومان محدثا نفسه، عندما يفيض به الحنين إلى بيته: يهزأون عندما أقول (Home sickness) فجهلهم يمنعهم أن يدركوا كونه مرض يصيب مرهفي الحس، آه لو يعلمون كم هو موجع قاس على أمثالنا !

تمالكت شمس مشاعرها، مسحت دموعها، وألقت نظرة خاطفة إلى المرآة المثبتة في الحاجز القائم بينها وين كابينة الركاب، لتطمئن على مظهر وجهها بعد

بكاء غلبها، وقبل الخروج إلى الركاب، نظرت لشومان، قائلة:

- أنا جاهزة، يا ريس؛ يمكننا البدء الآن.

obeikan.com

« 32 »

انضمت فجر إلى شمس ليبدءا تقديم وجبة العشاء، كل منهما تقف على رأس ممر، مسئولة عن الركاب الجالسين على طرفيه، متوجهة ناحية مؤخرة الكابينة، بينما يبدأ عادل وعلياء متقدمين في عكس الاتجاه، من الخلف إلى الأمام. عند لقاء كل منهما بزميله الآخر، من المفترض أن لا يستغرق التعامل مع الراكب، زمن يتعدى الدقيقة، لكن بعضهم يتجاوز في الوقت، فيحدث تأخير وصول الطعام لآخرين لا يترددون في الإعلان عن غضبهم، ولوم جماعة الضيافة، على ذلك ! لكن هؤلاء المتمرسين انتهوا من تقديم الوجبة، في الوقت المناسب، عندما التقى عادل وفجر في منتصف الممر الأيسر، وشمس وعلياء في منتصف الممر الأيمن.

ما كانت إلا دقائق قليلة، إلا واختفى صوت الكلام، وظهرت مكانه همهمات خارجة عن أفواه تتلمظ، منشغلة بمضغ وبلع، علا صوت طحن الطعام، ومصمصة الشراب،في تباين لحني واضح بين صوت وآخر، صادر عن أشداق أفواه مختلفة، كتباين أنغام صادرة عن مجموعة من الوتريات. جوقة من الأفواه تلوك ما بها، عازفة موسيقى مصاحبة لفعل هو الأقدم في تاريخ البشرية، موسيقى تصويرية مصاحبة لوجود الإنسان على الأرض، ولا يعلم أحد متى انتهاؤها...! تحول الجمع إلى وابور طحين كبير، يبتلع ربما مئات الكيلوجرامات من أطعمة مختلفة الألوان، وطلمبة ماصة لكل ما يقابلها من سوائل، سواء كانت مياه عادية أو غازية، مشروبات باردة أو ساخنة. آنذاك نسي هؤلاء كل مشاكلهم، وما ترتب على تأخرهم من تعقيدات، ولم يتذكروا إلا أمرا واحدا، هو القضاء على كل ما قدم له، عوضا عما مروا به من جوع وعطش.

قلة لم تصل إلى حد الشبع، طلبوا الامتلاء بمزيد من الطعام، وقت طويل منذ أن تناولوا آخر وجبة طعام ! لكن تلبية مثل هذا الطلب لا يكون دائما في حكم المستطاع، فعدد الوجبات الممونة مرتبط بعدد ركاب الطائرة الفعلي، رحلة اليوم مكتملة العدد، لم يرفض أحد الطعام، وهذا يعني ألا فائض متاح، لكن الأشكال في أن هناك بعض العقول لا تقبل... لا... كإجابة ! فهم يظنون أن كل شيء يجب أن يكون متاحا متوفرا، وحسب وجهة نظر هؤلاء، فطاقم ضيافة الطائرة لا يمتلك رفاهية الرفض، فليس له إلا تلبية ما يطلبه الراكب، حتى وإن أصابها الشطط !

منطقي أن تحتاج لماء أو شراب مع تناول الوجبة، لكن ما حدث هو حالة غير طبيعية من العطش وجفاف الريق أصابت الركاب جميعهم، حتى أن البعض تناول أكثر من خمسة أكواب لمشروبات مختلفة ليشعر بالارتواء، كانت نعم ، هي الكلمة الحاضرة على لسان طاقم الضيافة في ردودهم على طلبات الركاب، حال طلب المشروبات التي تختلف عن الطعام، فالمشروبات كثيرة متنوعة بين ساخن وبارد، وبين سكر مضاف، أو بدون، مشروبات غازية، وعصائر طبيعية، الكم والنوع غير محدود، وبرغم من ذلك فثمة نفر قليل أعلن امتعاضه وعدم رضاه، لغياب المشروبات الكحولية عن الطائرة، لكن عذر الطاقم هنا كان قويا، فقد أوقفت خدمة تقديم أو بيع الخمور على الطائرات، منذ زمن ليس بقليل الآن.

في نفس الوقت كان مشهد الكابينة ذات المقاعد العريضة مختلف عما عداه. ها هم مضيفتا الدرجة الأولى دنيا و إيزابيل، منشغلتين في تحضير الطبق الرئيسي، بعد أن شارفت الغالبية على الانتهاء من تناول حساء كريمة الخضروات الذي قدم لهم بعد أن أجهزوا بشهية على أطباق «فواكه البحر» .

آنذاك كان شومان يدق باب مقصورة القيادة، بطريقة كودية متفق عليها، ثم دفع الباب ودخل، فابتسم حسان لرؤية وجهه الهاش الودود، وبادره قائلا:

– جميل سؤالك عنا، أيها الرجل الطيب، فكيف حالك والركاب ؟ كيف يستقبلون درجة الحرارة، أهي مناسبة لهم، ألم يشكو من انخفاضها أحد ؟

– بارك الله فيك كابتن حسان، دائما ما تنشغل بحال الآخرين.

– إنها مسؤوليتي يا طيب، فهؤلاء هم ضيوفنا، عانوا معنا في هذا اليوم الطويل من التأخير والعطلة، ثم إنه من المعروف أننا شعب مضياف، فلا أقل إذن من شيء – ولو– بسيط من الرعاية، كلمة طيبة، ابتسامة في وجه الآخر، وهي صدقة، كما قال رسولنا الكريم «صلى الله عليه وسلم».. قالها حسان، ورددها وراءه، جمال وشومان بصوت مسموع يثاب عليه المرء.

تدخل جمال في الحديث معقبا:

– أكثر الله من أمثالك يا كابتن، لهذا أنا أتمسك بالطيران معك.

أما شومان قد أضاف معقبا:

– الله عليك..أحسنت القول والله. ودعني أقول شهادة لله، تحضرني الآن بمناسبة هذا الحديث، فأنا ومثلي كثيرون يحبون بل ويفضلون العمل معك، فالعمل مع شخص كريم الأخلاق مثلك يكون دائما مطمئنا، إضافة لقيادتكم الملتزمة، وإدارتكم الحكيمة، لكل من يعمل تحت لوائكم.

علت وجه حسان سحابة خجل لطيف، على إثر سماع هذا الإطراء الذي قال به جمال، وأضاف إليه شومان، الذي قال وهو يضحك منشرحا:

– بمناسبة هذا الكلام الحلو، تسمح لنا ببعض من القهوة لي ولأخيك جمال، أو لتكن من أجل جمال، وإرجائها بالنسبة لي. أفضل أن أنتهي من الوضوء، وصلاة فرض العشاء أولا، قبل أن يداهمنا الفجر على غفلة دون أن نشعر بتسلله ! قال جمال معقبا:

– الطيران شرقا بسرعة عالية، مع فارق التوقيت – تسبق القاهرة نيويورك بست ساعات– يقصر زمن الليل على سويعات قليلة، فيمحق النهار القادم من

الشرق سريعا الليل بضربة قاضية، ينزع عنه أستاره السوداء، فينكمش دونما تباطؤ، يمحوه النهار بشكل مباغت !.

حسان شخصية مركبة، يبدو للوهلة الأولى كشخص«مودرن» يمارس حياته بنمط غربي غير منحاز لشرقيته بدون تشدد، إلا أنه في العمق داخله يقبع آخر ملتزم جدا، لا يهادن خصوصا فيما يتعلق بتعاليم دينه وطقوسه، يقوم بكل ما يجب نحو نفسه ليظل ذلك الإنسان المؤمن الممسك على دينه، المحافظ على ربه في قلبه. الفرائض بالنسبة لحسان أمر لا يؤجل، يتشدد مع نفسه، هو لا يجمع – تقديما أو تأخيرا- بين فرض وآخر في آن، ولا يُقصِر فرضا حتى وإن كان على سفر. وكان إن سئل عن ذلك يقول: عسى أن يتقبلها الله، وإن كانت زائدة فَعَلها تكون مما عَلينا، هذا أولا، أما ثانيا فالصلاة تبعث في نفسي هدوءا جميلا، أحتاج إليه كلما أثقلت علي الحياة.

كان حتى في شهر رمضان، وصعوبة الصيام حال الطيران، لا يستخدم الرخصة الشرعية بحق الإفطار للمسافر، كان مبرره الذي عرف عنه لهذا الفعل، يلخصه في حديث كأنه عظة، لكنها لا تخلو من نبرة مرحة تشع بالغبطة فيقول مبتسما: الدنيا – يا أخي – كغانية، تراودك دائما عن فروضك وواجباتك للتسويف والتأجيل، فإن تهاونت وأجلت للغد تجدها راحت منك وولت !

ثم يضيف محذرا بلهجة حكيمة لمن عارك الدنيا، وسبر أغوارها:

– إن ما يجب أن لا يغيب عن العقول إن الموت للبشر كصائد الفراشات، قادر على اصطيادها أنى كانت، في هواء تحلق، أو على فرع تستكين ! كما أن الصلاة كما الدَينْ، إن لم تقضه في وقته تراكم وتعاظم، وربما عجزت عن سداده قبل حلول الأجل.

فك حسان حزام مقعده، الذي يحتفظ به طالما بقى جالسا، ثم انحنى، ضغط المشغل الكهربائي، الذي دفع بمقعده، فتحرك إلى الخلف مصدرا أزيزا عاليا. نهض عن مقعده متحسبا لطول قامته حتى لا يصطدم رأسه بلوحة المفاتيح

العلوية. في غضون ذلك كان شومان قد غادر المكان ليجلب ما طلبه جمال منه، فوقف حسان حتى صار خلف جمال تقريبا، ثم قال ضاحكا وهو يربت على كتفه، في أمائة إلى رأيه الشخصي عن تجاوزه لقاعدة قصر صلاة المسافر، التي لا يلتزم بها :

– « كل طائر معلق من عرقوبه »، يا عم جيمي..! ثم أضاف ممازحا مساعده، الذي أصبح الطيار القائد المسيطر على الطائرة، منذ لحظة تنحى حسان عن مقعده الأيسر، ذاهبا للوضوء: الطيارة أمانة في رقبتك يا جيمي، خذ بالك منها لحد ما أرجع. قالها حسان وهو يغادر المقصورة مقهقها.

عاد شومان بكوب من قهوة غير محلاة، كما يفضلها جمال، الذي كان منشغلا عنه، بإنفاذ تعليمات الأمان، التي تلزم الطيار حال بقائه منفردا في مقصورة القيادة بالتالي:

أولا.. يلتزم بربط حزام المقعد كاملا، مستخدما حزام الأكتاف.

ثانيا.. يكون على اتصال مستمر بنقاط المراقبة الأرضية، حتى عودة زميله.

ثالثا.. ارتداء قناع الأكســـــجين النقي، ليكون في متناوله إن احتاج إليه.

تناول جمال القهوة.. وضعها جانبا، تأكد من أن باب المقصورة غير محكم الغلق. بعد مغادرة شومان، سكنت الحركة من حوله، وصمت الهواء، تنفس بعمق، أمعن النظر في الفضاء الفسيح الممتد أمامه، كأنه يحاول أن يقرأ كلمات كتبت على صفحة السماء الممتدة أمامه، في ذلك الفراغ اللانهائي. كان ليل هذا المساء أفحم بلا ضياء، كأن السماء عاقر لم تولد لها نجوم، جرداء قاحلة كالصحراء ! شكلها كان على غير المألوف بالنسبة له.. فتمتم في نفسه: سبحان الله.

أرتكن إلى ظهر المقعد.. زحزح قناع الأكسجين قليلا، ارتشف قهوته،

مُرْة.. تعجب.. أول مرة يشعر بمرارة القهوة، رغم اعتياده تناولها دائما دون سكر. شعر في تلك اللحظة أن موجة من حنين، تغمره من رأسه إلى قدمه، اشتياق غريب يجتاحه إلى بيته وأسرته، غلالة من حزن رفيف لفت قلبه، ولم يدري سببا لذلك الشعور المباغت ! رمق بطرف عينه شاشة « الرادار» التي توجد إلى يساره في منتصف المسافة بين مقعده ومقعد القائد، تبدو الأمور كأنها تسير بشكل اعتيادي.

لا يدري لماذا فجأة تذكر تاريخ ميلاده، وأنه على وشك أن يتم عامه الستين، ولا يدري ما الذي جعله ينظر مبحلقا في المقعد الخالي، القابع إلى يساره..أنه مقعد القائد.. قائد الطائرة، ندت عنه نظرة وتنهيدة آسى ! كم تمنى أن ينهي حياته العملية من هذا المقعد، اشتاق كثيرا أن يكون هذا هو مكانه الدائم على الطائرة. سمع اسمه يتردد في أرجاء كابينة الركاب بصالونيها، كابتن جمال، قائد الرحلة يرحب بكم ، رأى فى مخيلته ضابط التحميل، ينحني مقدما إليه كشف حمولة الطائرة ليراجعه، وهاهو يخرج القلم ليوقع تحت خانة قائد الطائرة باسمه، وخلف مقعده، يقف رئيس طاقم الكابينة يسأله إغلاق باب الطائرة الأخير، ثم يأتيه صوت فني الترحيل، يطلب الإذن ببدء دفع الطائرة إلى الخلف. ثم عاد وانتبه أخذ نفسا عميقا و أرسله، وقال بأسف محدثا نفسه: إن أغلب الزملاء حولي، كانوا يوما تلاميذا لي، وربما بعض صغار السن منهم، تلقوا تدريبهم على يد أحد تلاميذي ! جميعهم يقرون بأستاذيتي وأحقيتي، لكن القواعد الغبية العجماء، أبت أن تعترف بأحقيتي !

شعر بغصة في حلقه، رافضا حظه، والزمن الظالم الذي غبن حقه ! وفي عقله أسئلة تطن، بصوت سقيم... لماذا حكم علي أن أكون دائما الرجل الثاني على الطائرة ؟ برغم أني كنت الأول دائما، نعم كنت الأول ككبير مدربي معهد الطيران، وكنت الأول وأنا أحد نسور الجو بقواتنا الجوية، كنت الأول يوم رقيت إلى رتبة قائد سرب: نعم .. كنت الأول والقائد آنذاك. (صمت، ثم رشف قطرات من كوب قهوته) وأرسل زفرة ساخنة حادة بها الكثير من

الرفض، ثم قال بصوت مسموع لنفسه: لكن وما النتيجة بعد كل هذا التاريخ، سأخرج إلى التقاعد، وأنا الرجل الثاني، لست إلا طيارا مساعدا.

لم يدم ذلك الإحساس معه إلا ثوان معدودات، فبعد أن ارتشف من قهوته رشفة قوية صدر عنها صوت مسموع، حاول أن يستشعر معها مرارة القهوة في فمه أقوى من مرارة غصة شعر بها في لحظات شروده العابر ! كان لرشفته تلك، تأثيرا مفاجئا على حالته النفسية، وكأنها جاءته من بئر مسحور، فقد أحس لحظتها أنه أكبر من أي خيابات واجهته، شعر بنفحة من الرضا تملأ صدره على غير انتظار، فاعتدل مزاجه، وقد غير من جلسته، وابتسم ساخرا من نفسه الآمرة بالسوء، وقال يسمع نفسه:

هاااه ! أنا أحسن من غيري بكثير – الحمد الله – ربنا يديم علينا الصحة، هو أنا محتاج إيه ثاني ؟ خلاص.. تقاعد.. كفى ما مضى من العمر، وما حققته في مشوار الحياة الطويل، ثم أضاف متمتما، كأنه يتحدث إلى خالقه:

لو خلصت على كده.. أنا راض تمام.. المهم رضاك عنا يا رب، ألف حمد و شكر (رفع يده إلى فمه، مقبلا كفه وجها وظهر، ثم كرر شكره) الحمد لله، كده رضا.

هدأ باله، شعر براحة غريبة تملأ كيانه، وأن نورا بطعم الاستسلام للقدر والنصيب قد ملأ قلبه، أحس أن عضلات وجهه المكفهر من لحظة، قد بدأت تنبسط، وأن أسارير وجهه راحت تنفرج، وأن ابتسامة هادئة أخذت تسيطر على ملامحه. اعتدل جمال في مقعده، وأعاد ضبط قناع الأكسجين على وجهه، وأحكم وضعه، سحب نفسا عميقا، ابتسم لنفسه عندما مر بخاطره حالة الانتشاء تلك التي تعتريه عندما يجلس بعد رحلة طويلة، في بيته وسط أسرته، على مقعده العريض الخاص متكئا في راحة، مرتديا جلبابا رحراحا، مداعبا مزاجه الشخصي ببعض أنفاس من نرجيلته بنكهة النعناع، فينتعش ويفيق منتشيا بشكل يستطيبه. أعاد الارتشاف من قهوته مبتهجا، مردداً في نفسه:

– الله.. الله.. الله.

« 33 »

كان شومان بعد أن ترك مقصورة القيادة، يتابع العمل في كابينتي الركاب، للاطمئنان على سيره في مجراه الطبيعي، وفقا لبرنامج الرحلة، مع حث أفراد مجموعة العمل على التعجيل قدر المستطاع، حيث قال لهم:

دعونا نسرع في تقديم وإنهاء وجبة العشاء، ليتسنى لهم قسط واجب من الراحة، فما نالوه من تعب في نهارهم لهو بالكثير ! ربما خففنا عنهم بعض الشيء.

– عادة يلجأ مسافرو الليل إلى طلب شيء من النوم، ربما ساعد – ولو إيحاءً – بتقصير وقت السفر، وقد يقلل من الأثر السلبي المترتب على تأخير رحلتهم هذه. إحساس دفين تولد داخل قلوب الجميع، رغبة ملحة باتت تعتمل في صدور كل من كانوا على الطائرة...الانتهاء. تغيرت الأسباب من شخص لآخر، اختلفوا جميعا فيما بينهم، لكن اتفقوا في رغبة واحدة، الانتهاء من كل شيء..! مقولة واحدة، كانت كامنة في كل النفوس، وإن لم يتفوهوا بها:

– نفسي أغمض وأفتح، أجد هذه الرحلة المزعجة قد انتهت.

كان المشهد الأول الذي قابله شومان فى تجواله هو صالون الدرجة الأولى، حيث تعمل دنيا في الكابينة، ومن خلفها إيزابيل .. لدنيا قدرة عبقرية تختص بها، تفصل ببراعة بين ما يدور داخلها ويشغل بالها، وبين ما يطل من وجهها.. تقف بحضور بهيج وسط كابينة ركاب الأولى، دنيا.. نسمة رقيقة تشع لطفا على من حولها، تمسح بطلتها المنعشة وابتسامتها الندية جبين ضيوفها في ذلك الصالون، روح محبة كريمة تحتضن بحنان راق كل من يوجد في دائرة التعامل معها، توحى لهم بأحاسيس متضادة.. شهية و رغبة في الطعام، مع إحساس بالامتلاء ! لها ضحكة لمن يعلمها حلم مبتغى. عند ابتسام دنيا.. تضحك

الدنيا، فتمنحك الإحساس بالشبع والجوع في آن. تقف الدنيا.. كما يدللها آدم، على مســـــافة مقعد واحد منه، عيناها تبعث برسالة تقول:

- أنا الدنيا فهل من مريد.

دنيا تدفع أمامها عربة شاي منطبقة صغيرة، تزف بها الطعام إلى ضيوفها، تقف كأنها شجرة ياسمين بلدي، تفوح بأريج عطرها في حدود دائرة هي مركزها، تغرف الطعام الساخن، تتحدث مبتسمة مع السيدة الجالسة قبالتها، تخيرها بين الأصناف الثلاثة المقدمة:

- مدام .. هل لك في بعض اللحوم الحمراء، لدينا منها: لحم بقري، مع صلصة الفلفل الأسود. أم تفضلين اللحوم البيضاء، ولدينا: صدور رومي مع صلصة الفطر.

- أظنني سأختار شيئا من الأسماك، فماذا تقدمون منها يا ترى؟

- رائع... فلدينا سمك القاروص، ويقدم مع الصلصة البيضاء.

- O.k هذا حسن.. ليكن بعضا منه مع شيء من الخضراوات، وربما ملعقة أو اثنتان من الأرز، فهذا سيكون كاف، مع أن ظني يقول: إن ضيافتك الكريمة قد تنتهي بزيادة في وزني بكيلو أو ربما اثنين على الأقل.

قالت السيدة البيضاء الممتلئة عبارتها وهي تبتسم بأريحية وبشاشة.

جاء رد دنيا بكلمات فَطنة، فيها من الكياسة واللباقة ما يحسب لها، قالت من خلال ابتسامة واسعة أضاءت وجهها:

- أظنك قمرا في كل الأحوال.

زغردت السيدة ضاحكة حتى بانت أسنانها، ضحكة عالية أضاءت وجهها وما حولها، لفتت أنظار الآخرين، الذين تحولت أنظارهم إلى دنيا، أدركوا أنها الباعث لحالة الانتعاش التي بدت على تلك السيدة التي كانت ممتعضة

منذ البدء! فسلوك السيدة منذ قدومها فاض بكم كبير من رفض واعتراض لكل ما حولها ! لكن ضحكتها المجلجلة المفاجئة الآن، إنما تدل على امتنان قد غشيها، وتحول جذري في حالتها المزاجية، فكلمات دنيا المجاملة المدغدغة للمشاعر، فيها من الثناء ما يرضي غرور أي امرأة. استحسنت السيدة أسلوب دنيا الرقراق الجاري كماء نبع صاف، وكلماتها البسيطة برقي، التي استطاعت أن تنتزعها من حالة التوتر و الانزعاج التي ألمت بها منذ أن تأخرت الطائرة.

إيزي.. إيزابيل كانت ترقب المشهد أثناء ذلك من خلف الستار الفاصل بين منطقة العمل وصالون الركاب، تتابع دنيا بعينيها وكأنها تلميذ يتابع أستاذه، فهي ليست فقط صديقة دنيا، لكنها أيضا تعتبرها المثل الأعلى كمضيفة جوية. ترصد إيزابيل ما ينقص العربة أمام زميلتها، لتسارع بإمدادها به، قبل أن تطلبه، أيا كان هذا الشيء من طعام أو شراب أو من أدوات مائدة.

وفي نفس الأثناء، كان هناك مشهد آخر في الكابينة الخلفية، حيث المضيفات الثلاث فجر وعلياء و شمس، مع زميلهم عادل، ينتشـرون في ممري الكابينة وبين صـفوف المقاعد، كل في منطقته يعيش حالة من التواصل الإنساني مع الركاب المســئول عنهم. جمل حوارية قصيرة دافئة متبادلة تتخللها ابتسامات بهية كنجمات السماء، نشتهر نحن المصريين بإكرام وفادة الغريب والحفاوة به. صفة مكتسبة من أرض مصر الطيبة دوحة الغرباء.

آنذاك كانت جماعة العمل منغمسة في تفعيل فروض واجبة عليهم...طقوس يمارسونها بحذق و دراية العارف المؤمن بواجبات الاحتفاء بالضيف. يدفعون أمامهم عربات تروللي، مثقلة بأصناف مختلفة من أطعمة ساخنة ومشروبات باردة، هيئت من أجل ضيوف جاءوا ليطيروا على وسائد لينة لوجوه هاشة، وأجنحة عفية.

ينسى كل أفراد جماعة العمل ذاته، يضعها بما لها من شؤون وشجون، في صندوق برتقالي – أسود– خاص، يحكم إغلاقه جيدا، حتى لا تتطاير منه

رائحة مرارة قد تصفع وجوه الآخرين.

(لا تعمل أبدا عملا، أنت عنه منشـــغل بآخر) قاعدة لمن يبتغي الإجادة.. هذا هو حال هؤلاء، هم دائما مطالبون بتحقيق المعادلة الصعبة في التعامل مع الراكب، معادلة مركبة ثلاثية الأطراف: أولا إشباع رغبات الراكب المتوقعة، وثانيا تحقيق الرغبات غير المتوقعة (في حدود المتاح) أما ثالثها فهي الحفاظ على خط وهمي رفيع يجعل طاقم الرحلة هو صاحب الكلمة الأولى. فقد تأتي لحظة تحتم عليهم ضرورة إصدار تعليمات متعلقة، بسلامة الطائرة وركابها، تعليمات تكون واجبة النفاذ من الركاب، فتلك الأطقم دائما ما تكون في موقع المسئولية عن مساعدة الجميع حال وقوع أي خلل، أو أمر طارئ، يستدعي إخلاء الطائرة من ركابها، تعليمات الأمان مقدسة لا تقبل أي جدال، بل توجب السمع والطاعة، والالتزام بإتباع إرشادات طاقم الضيافة. هذا هو الجانب الخفي من واجبات تلك الأطقم على الطائرات.

كانت اللحظة وقتئذ لحظة اشتباك حقيقي ساخن مع مفردات العمل. تركيز ذهني، ومجهود عضلي، مغلف دائما ابتسامة ودودة تسبق الكلمة، تواكب الفعل، ومضت إشارة ربط الحزام، لم يهتم لها أفراد طاقم الكابينة بقدر كاف كما ينبغي، استمر الجميع في ممارسة فعل تقديم وجبة العشاء، فغالبا ما تكون الإشارة – لمرة واحدة – للتنبيه بتوقع ببعض اهتزازات خفيفة قادمة، تستوجب ربط الحزام بالنسبة للركاب فقط.

« 34 »

لم يخطر على قلب بشر ممن كانوا خارج باب مقصورة القيادة، ما يدور خلف بابها؛ فقد انتبه جمال آنذاك إلى أمر يحدث على شاشة الرادار المتوهجة باللون الأخضر أمام عينيه، فعملية المسح الجوي التي يقوم بها جهاز الرادار، كشفت عن وجود نقطة متحركة في أقصى اليمين أسفل الشاشة، بدت النقطة أول الأمر كأنها جسم طائر قد انطلق من بقعة راقدة على مستوى سطح البحر، عندما كانت الطائرة في تلك اللحظة تقطع سماء تلك المنطقة عابرة. راجع جمال في ذاكرته الخرائط الملاحية التي بحوزته، المبينة للمطارات ونقاط الاتصال الأرضية، التي يمر عليها، على طول الممر الجوي الذي يسلكه، تلك الخرائط لا تظهر أي مطارات في تلك البقعة على وجهه الخصوص، فمن المفترض أنهم يحلقون فوق بقعة هي جزء خالص من المحيط الأطلنطي، لكن خاطرا عارضا جاء على باله حينئذ، مما أوقعه في جدل بينه وبين نفسه، يطرح السؤال على نفسه، ثم يجيب عليه في نفس الوقت: من المؤكد أن لا جزر ولا مطارات في هذه البقعة ؟ نعم... هكذا تقول الخرائط الملاحية، إذن ربما تكون هناك في الأسفل على سطح مياه المحيط قطعة بحرية من نوع حاملات الطائرات التابعة للأسطول الأمريكي تجوب المنطقة؛ نعم هذا جائز جدا...احتمال قائم، لكننا قد ابتعدنا عن السواحل الأمريكية، هذا صحيح... لكننا أيضاً مازلنا نحلق داخل حدود أجوائهم وفوق مياههم الإقليمية، ألا يمكن أن تكون تلك النقطة المتحركة على شاشة الرادار منطادا طائرا تابعا لأحد مراكز أبحاث الأرصاد الجوية في مهمة روتينية ؟ لا.. أظن ذلك..فمثل تلك المناطيد لا تواصل الارتفاع بتلك الكيفية أو بهذه السرعة، كما أن لها سقف ارتفاع لا تتجاوزه، فغالبا ما تحلق على ارتفاعات منخفضة ! ثبت جمال عينيه على الشاشة مبحلقا محاولا استقراء الموقف وتفسير اللغز الذي يراه.

كان جمال في تلك اللحظة، هو قائد الطائرة الفعلي والمسئول عن أمن وسلامة الطائرة بما عليها، أخذ يراقب بانتباه وبتركيز شديد هذا الجسم المجهول، الذي قد يكون أقلع منطلقا من مكان ما في تلك المنطقة من المحيط. لكنه لاحظ أن الأمر أخذ في التطور بشكل مختلف.. فهذا الشيء غير المألوف الذي لم ينجح في تحديد هويته أو التعرف على كنهه بعد، يتحرك في خط مستقيم وبسرعة قد تجعله في لحظة ما – ليست بعيدة – يتقاطع مع خط السير الملاحي لطائرتهم ! أدار جمال في رأسه عملية حسابية سريعة، زاوية اتجاه النقطة المتحركة على الشاشة كما يراها مع الخط الملاحي الذي تسلكه طائرته، إذا ما استمر الوضع على هذا النحو، ستكون النتيجة الحتمية اصطدام مروع بينهما، وإن وقع هذا ستكون كارثة حقيقية لنا !

تشكك جمال للوهلة الأولى في سلامة عينيه وقدرته على الإبصار، ثم ذهب ظنه إلى أن الرؤية من خلال قناع الأكسجين الذي يغطي كامل وجهه كامل قد تكون مشوشة، فقرر أن ينزعه عن وجهه سريعا، ثم فرك عينيه وعاد يبحلق ثانية في شاشة جهاز الرادار، فأصابته حالة إنكار لحظي مما تأكد من وجوده، وأصبح غير قادر على تصديق ما تراه عيناه ولا ما يقرأه عقله، فقال مندهشا هامسا لنفسه: يا إلهي.. ما الذي يحدث ؟

ثم عاد يحدث نفسه بصوت عال، مستنكرا لما تراه عينيه:

أطائرة تكون.. ؟ أيمكن أن تكون طائرة ؟ لكن الاتجاه الذي تتخذه وتسير فيه ليس بممر ملاحي، ثم إن سرعته ليست بسرعة طائرة !

فزع جمال .. صرخ في الميكروفون المثبت قرب فمه حتى اهتز «المايك» متأثرا، بالذبذبات التي أحدثتها صرخته، وهو ينادي على برج المراقبة الجوية، متسائلا في هلع:

– كنترول.. ماذا يدور هناك ؟ ما هذه الطائرة أو ذلك الجسم الذي يطير مندفعا في اتجاهنا ؟ كنترول.. لماذا لا ترد علينا.. اللعنة.. ألا تسمعني ؟

صمت... أو ربما خرس أصاب أجهزة الاتصال، فلم تلتقط أذنا جمال أي رد على ندائه، ولا حتى ذلك الصفير المتقطع الدال على أن هناك محاولة للاتصال بهم ! بينما شاشة الرادار تقول إن ذلك الجسم الغريب الذي أثار انزعاجه وقلقه، آخذ في التقدم حثيثا باتجاه الطائرة. انتبه إلى أن رصد الرادار لهذا الجسم المتحرك، قد تزامن مع موت الاتصال بينهم وبين نقطة المراقبة الأرضية، تلك التي لم تعلق على ما يدور، برغم مسئوليتها التامة عن متابعة وتنظيم حركة الملاحة الجوية في المنطقة ! فتساءل في نفسه: أمصادفة أن فجأة نفقد الاتصال بهم الآن، وفي تلك اللحظة الحرجة؟ وقع جمال في حيرة من الأمر، ماذا يفعل..؟ التفت إلى يساره بحركة تلقائية، مازال حسان قائد الرحلة الأساسي، لم يعد إلى مقعده بعد ! لا بد من التصرف في الأمر، لا بد من اتخاذ قرار سريع وحاسم، لا وقت للتردد أو الانتظار.

في تلك اللحظة ظهر في عقل جمال شريط من ذكريات، يعرض على شاشة فضية عريضة نصبت أمام عينيه، تتابعت عليها صور أحداث عاشها يوم كان طيارا حربيا بالقوات الجوية، رأى نفسه جالسا في مقعد منفرد، في قمرة قيادة طائرته الحربية، يومئذ كان هو قائد سرب « نسور السماء» ذلك التشكيل القتالي، الذي بات فعله الفريد، بداية لتسجيل وكتابة أحداث تلك الساعة المشهودة. ومضة سريعة أعادته إلى أطراف محافظة الشـــــرقية بقاعدة « بلبيس» الجوية، تحديدا مطار « أنشاص» العسكري، بعد ظهر يوم العاشر من رمضان، الجو قيظ صيفي حار، ظمأ شديد يسيطر عليهم جميعا، لكنه ظمأ لا يرويه ماء؛ فهو ظمأ الثأر.

حركة غير عادية تدور في القاعدة العسكرية آنذاك، الجميع على أهبة الاستعداد في حالة ترقب وانتظار. صدرت الأوامر إليهم بالاستعداد، أخذ مكانه في قمرة القيادة بطائرته المقاتلة، حتى أعلنت دقات ساعة جامعة القاهرة الأشهر في تاريخ الإذاعة المصرية من خلال مكبرات صوت القاعدة، عن تمام الساعة الثانية ظهر يوم السادس من أكتوبر، عام ثلاثه وسبعين وتسعمائة

وألف، كانت تلك هي ساعة الثأر والارتواء، وإطفاء لهيب انتظار طال منذ عام الخزي، تلك التي مرت ثقيلة على البلد والعباد.. الساعة 1400 حانت ساعة الصفر المتفق عليها؛ إشارة البدء نطق عقيد طيار مقاتل / جمال.. كلمتان: « توكلت على الله.. »

ردد من ورائه جميع أفراد السرب مهللين:

- الله أكبر، الله أكبر.

انطلق رفاق سلاح النسور المصرية محلقين في فضاء سيناء الأسيرة، كانوا هم طليعة الهجوم، من مهدوا لعبور الهزيمة وإسقاط بارليف الغطرسة. ويستمر شريط الذكريات في دورانه عارضا أمام عيني جمال تفاصيل الموقعة الجوية التي خاضها، فيرى طائرات سربه الجوي، ووجوه قوادها، هاهم يباغتون طائرات العدو وهي راقدة في مرابضها على بطونها، كعير منهكة في مزاودها. فتح هو وجماعته نار غضبهم، ثأر أرواح اغتيلت في مذبحة سيناء عام سبعة وستين ! أشعل فيهم نارا تلظت لسنوات طويلة حبيسة صدورهم منذ اغتيلوا في يونيو المشئوم، نار كانت تكوي جوفه حتى جاءته الساعة ليبصقها كتنين غاضب فيحرقهم بها، فالحرق هو الوسيلة الأمثل لتطهير الأرض من زروع شيطانية، وما يسكنها من كائنات طفيلية.

قفز المشهد من جب الذاكرة، تجسد أمام عينيه صورة حية، تذكر ساعة أن دك آخر « هنجر » لأفاعيهم الطائرة، ساعتها وجبت العودة، لكن كيف ؟ هم يسعون كغربان سود في أثره يظنونه صيدا سهلا، يريدون أن ينقضوا عليه وطائرته.

بالرغم من كثافة الذكريات المتساقطة، كسيل منهمر على رأس جمال، فإن عينيه كانتا مفتوحتين على شاشة الرادار، تتابعان عن كثب ذلك الجسم المشبوه، في اقترابه المستمر ناحية الطائرة، هتف جمال في نفسه بغضب:

- يا أولاد الزواني.. مال هذا اللقيط، يتبعنا دون كلل... الملعون يقترب

أكثر مما ينبغي؛ بل يبدو وكأنه... !! وهنا وفي تلك اللحظة، صرخ جمال مناديا برج المراقبة الأرضية، محاولة مستميتة، علهم يسمعون، أو ينتبهون لما يحدث... ربما تداركوا الأمر، واستطاعوا منع كارثة كادت أن تتحقق:

- what a hell is that? ، فليجيب أحد علينا، ما هذا الجحيم، هل تسمعوننا ؟

جاءه الرد على ندائه، وصرخته الهلعة ! في صيغة صمت مطبق..ملغز..! ثم... أتت من بعيد أصوات متداخلة مبهمة، بدت كأنها محاولة اتصال غير ناجحة.. مجرد شوشرة مشوهة، ليست كلمات على أي حال، بل صوت كان أقرب إلى الفحيح جاءه عبر تلك السماعات الملتصقة بأذنيه..! لم يفهم..التبس عليه الأمر؛ أيحدث هذا عن قصد ؟ أم أنه خطأ غير متعمد ؟ أسوء الاتصال بيننا فني أم قصدي ؟ لم يفهم جمال بخبرته العسكرية و المدنية الطويلة ماذا يحدث !

عاود جمال الصراخ مستغيثا في ميكرفون مفترض أن ينقل صوته إلى هؤلاء الجلوس في برج أرضي، وظيفته الرئيسية هو متابعة كل الطائرات التي تحلق في منطقته، برج مفترض أنه يعلم بكل حركة ولو بسيطة تحدث في نطاق منطقته الجوية، هو من يوجه .. هو من يدل ويرشد كل جسم طائر خلال هذه المساحة من الفضاء المحيط، بما يحفظ سلامة الجميع. صرخ ثانية مخاطبا برج المراقبة، أو أي جهة أخرى تسمعه:

- يا عالم.. نحن في خطر.. ! ألا يوجد من يسمعنا ؟ !

- عرف نفسك... ؟

سمع جمال بصعوبة تلك الكلمتين، تعجب من سؤال، هو على يقين أنهم يملكون إجابته، فنقاط المراقبة أو المتابعة الأرضية، لديها أسماء كل شركات الطيران المارة بها، وأرقام رحلاتهم وساعة المرور. هذا السؤال زاد من حيرته، ومن انزعاج يعيشه من الاقتراب المستمر لذلك الجسم الرهيب المتجه بإصرار ليصطدم بطائرته.. فالأمر الآن بات واضحا وبشدة على شاشة الرادار، لابد

أنهم يرونه كما أراه.. من المؤكد أنهم يعلمون يقينا ما الذي يحاك لنا ! يعلمون بما يدور هنا والآن..! لكنهم عن عمد يصمتون، أو يتصنعون البكم و الصمم.. علامات استفهام كثيرة كغرابين أسودين ينعقان فوق رأسه وأمام عينيه.. فزعق:

Es 999 طائرة ركاب مصرية، طائرة تجارية مدنية... ما الذي يحدث.. نحن نتعرض لخطر داهم !

لم يتلق غير الصمت جوابا، ومازال حسان غائبا ! كما أن هؤلاء الموجودين خارج مقصورة، لا يعلم أحدهم ما يدور خلف بابها، تحدث جمال إلى نفسه: ماذا أنا فاعل ؟ الموقف لا يتحمل أي تأخير، لا بد من فعل سريع وحاسم، لإنقاذ الطائرة بمن فيها. تذكر ألعاب الهواء، السرك الكبير الذي نصبه يوم العبور، عندما جعل من طائرته المقاتلة، لاعب أكروبات يأتي بكل ما هو غير متوقع من حركات محيرة مربكة لمن يتبعه ! كانت مناورته فائقة المهارة، استطاع أن يتوحد وطائرته في بدن واحد، حاور وداور كل وسائل مضاداتهم الأرضية. راوغ.. وزاغ ، صعودا وهبوطا من كل صاروخ أطلقوه على طائرته.

عقيد جمال قائد سرب نسور الجو، يعرف جيدا كيف يناور ويناوئ، يوم أن حلق بعيدا منفلتا وطائرته من جحيم نيران عدو مغتصب لئيم. استطاع بذكائه وقدراته كطيار محارب أن يخلص طائرته من خطر أحدق بها، وشرك ترصد متربصا لهما.. حتى عاد سالما إلى قاعدته، خرج كما الشعرة من عجين.

شحنة طاقة إيجابية سرت في عقله وجسده، ثقة بالنفس استعادها في جزء من الثانية، استحضر بقوة روح تلك اللحظة التي عاشها يوما، شعر بها تعود.. تسكنه، تتملك كل أحاسيسه، يجب إنقاذ الطائرة من خطر صار قاب قوسين أو أدنى، إن أدركهم كان فيه حتفهم ! سيطرت على رأسه الفكرة، بات هي هدفه الأول والأخير.

أخذ نفسا عميقا، شهيقا حاول أن يجمع برئتيه، كل ذرة أكسجين، أن يملأ

صدره بكل الهواء المتاح من حوله؛ انتفض كيانه متحفزا، نفض عن جسده إحساس شيخوخة كانت تحاصره، وكأن روح مقاتل العاشر من رمضان ذلك الغافي هناك في داخله البعيد، قد هب من سبات طويل، فأعاد إليه روح القائد الذي كان يوما. هنا تحركت يد جمال المحنكة بسرعة، وضع إشارة ربط الحزام ومنع التدخين، نطق بتعويذته، التي اعتاد أن يسبق بها أي فعل:

- توكلت على الله.

عبارة حاسمة من كلمتين، يستشعرها تملأ كيانه، وكأنها مذهب فلسفي يسير به في الحياة...قالها بقلبه، ثم نطق بها لسانه وهو يضغط بإبهام يده اليمنى، زرار فصل الطيار الآلي؛ الذي تكون له اليد العليا في تسيير الطائرة، بعيدا عن إرادة الطيار، الذي لا يستطيع ولا يملك وسيلة لإعادتها لإرادته وفرض سيطرته عليها، إلا بكف يد هذا الآلي المتحكم في أجهزتها بالكامل، عن طريق فض الارتباط القائم بين الطائرة وهذا الطيار الآلي.

لم يتخيل أحد ما يبذله جمال من جهد منفرد داخل مقصورة القيادة، ولا المحاولة المضنية التي يبذلها للتخلص من كارثة، يراها وشيكة تحيق بهم جميعا، إن وقعت فلن تبقي ولا تذر! حينما أتم ما قرر، بفصل الطيار الآلي، حدث في تلك اللحظة التي صرخت في الطائرة مصابيح حمراء ملوحة بإشارات ضوئية تحذيرية، مصحوبة بنعيق زمارة الإنذار، معلنة أنها منذ اللحظة، باتت طوع يد القائد الماسك بزمامها، فليفعل ما يرى..! وهنا ظهر الصوت جليا خارج نطاق كابنة القيادة، فدفع حسان بسرعة، باب المقصورة بحركة فيها كثير من العنف، دخل مشدودا بصوت الإنذار، أدرك من الوميض الأحمر، الساطع أمام عينيه ما يدور في المقصورة، لكنه لم يجد إجابة على سؤال قفز إلى رأسه...لماذا ؟ حينئذ صرخ كابتن حسان في مساعده جمال مستفسرا، قبل أن يتمكن من العودة إلى مقعده:

- ما هذا.. ؟ ماذا يحدث هنا ؟ لماذا فصلت التحكم الآلي ؟

تمكن حسان بصعوبة من العودة إلى مكانه، ثبت نفسه بسرعة إلى المقعد، حالة مربكة من الاندهاش تسيطر على اللحظة، صرخ حسان ثانية في جمال مستنطقا إياه ليجيب عن سؤاله:

– هو في إيه.. رد عليا ؟ !

تزامن هتاف كابتن حسان مستفسرا ومستنكرا في آن واحد، فعل الطيار المساعد، الذي استدعى خبرته القديمة كطيار عسكري، ودفع بقوة ذراع التحكم إلى أقصى الأمام، ليهبط بالطائرة سريعا. بدأت جميع الأجهزة المتحكمة: سرعة دوران المحركات، وقوة الدفع المتولدة.. الأسطح الموزعة على بدن الطائرة، للتحكم والسيطرة في توازنها، وفي اتجاهها يمينا أو يسارا... صعودا أو هبوطا، كانت جميعها في تلك اللحظة، قد بدأت الاستجابة لأوامر صدرت إليها سلفا من كابتن جمال مساعد القائد.

مأزق قاتل، غير متوقع أن تواجهه طائرة ركاب مدنية، تعمل بشكل منتظم على خط تجاري معروف، ولا تحمل إلا كل ما هو مدني من ركاب أو بضائع ! طائرة مدنية بنسبة مائة في المائة، غير مجهزة بأي حال من الأحوال، للتحليق فوق مناطق عمليات عسكرية، أو للدخول كطرف فاعل في مناورة حربية ! عندئذ أسقط في يد جمال، فهو لا يجد مخرجا من ورطة وضع رغما عن أنفه هو وطائرته فيها، إلا المناورة عله ينجح في الهروب من تصادم مدمر وشيك جاء قرار جمال الفردي، ارتكازا على خلفيته العسكرية، وخبرته السابقة كقائد سرب لطائرة مقاتلة، أما خبرته في الطيران المدني، كمدرب سابق، أو كمساعد طيار لطراز ثقيل، إضافة لساعات طيرانه الطويلة، كل ذلك لم يكن ليفيده في شيء في تلك الظروف ! إضافة إلى أن دراساته النظرية، وتدريباته العملية سواء في المحاكي التمثيلي، أو أثناء الطيران الفعلي، لم تتعرض أبدا لدراسة مثل هذا الاحتمال، فهو احتمال غير وارد في عالم الطيران التجاري مواجهة غير متكافئة، لكن ما الذي يمكن عمله في هذا الموقف الغريب الشاذ، إلا المناورة بقدر

الاستطاعة، للتخلص من مأزق حدث من المؤكد بالخطأ !

عوامل كثيرة متعددة أثرت سلبا في رد فعل الطائرة، فضعفت استجابتها لما يحاوله جمال من صنع مناورة، تخرجهم من خط التقاطع مع ذلك الجسم الغريب الذي يطاردهم، فالطائرات المدنية، عند صناعتها منذ البدء لا تعد لمثل تلك المهام، التي تكون من أساسيات اختلافها عن الطائرات الحربية، إضافة لكونها طراز عريض ثقيل، مضافا إليه حمولة كبيرة من ركاب وبضائع، غير آلاف الأطنان من الوقود السائل التي لم يستهلك منها حتى اللحظة إلا اليسير، كل تلك الأحمال جعلت الاستجابة للمناورة بطيئة، بشكل لا يساعد المحارب القديم، على تنفيذ ما اعتزم ! فالفرق عظيم في قدرة المناورة بين طائرة مدنية يطيرها الآن، وأخرى حربية، قادها يوم العبور الكبير.

لم يمهل القائد المنزعج، مساعده لتفسير فعله الملغز، فصرخ ثانية قبل أن يدرك الخطر المحيط بالطائرة وبهم جميعا، محاولا استجلاء الأمر، هام جدا له أن يفهم ما يفعله مساعده، وأن يعرف المبرر، وراء هذا الفعل الطائش ودون الرجوع إليه:

– ماذا أنت فاعل بحق السماء ؟

رد جمال دونما النظر ناحية كابتن حسان، بكلمات متفرقة كرسائل قصيرة، لكنها تشي بخطورة الموقف، وهو يواصل محاولة الهروب من تصادم وشيك، قال كلماته:

– هروب... كارثة.. تصادم محقق ! ادفع معي يا كابتن ادفع.. شوف الرادار، مصيبة ! استر يا ستار.

عندئذ كانت الطائرة قد أخذت في الهبوط، لكنه هبوط كان أقرب للسقوط، جاء بأسلوب مفاجئ حاد غير متوقع، وكأنها طائر غواص ينقض متهافتا على سطح الماء ليلتقط صيده الثمين. حدث كل ذلك في زمن، ثوان معدودات، لكنها كانت كالدهر، تمر بحساب الدقائق سريعة جدا، لكنها بحساب من

يعيش اللحظة، فقد كانت بطيئة جدا، تسربت منهما دونما انتباه، كماء جمع في غربال...!

أدرك كابتن حسان المأزق، بعد أن لمح بطرف عينه شاشة الرادار، ورأى تلك النقطة المشئومة التي يقصدها مساعده، جسما غريبا مجهولا لهم، يتبع طائرتهم بإصرار في محاولة أصبح في حكم المؤكد، أنها ستؤدي إلى تصادم بات وشيكا، واقع لا محالة..! بين ذلك الجسم الملعون وبين طائرتهم !!

صرخة مدوية، زعقت شاقة فراغ مقصورة القيادة، في طريقها إلى أذانهم، صرخة لم يعرفا مصدرها جاءت عبر الفضاء، وصلت إليهم خلال سماعات الاتصال التي تركب رؤوسهم، صوت مجهول المصدر غير معروف، لكنه واضح جدا.. ربما جاء من نقطة مراقبة أرضية، ربما من طائرة تحلق بالقرب منهم ورأت ذلك الخطر المحدق بهم، ربما تكون صرخة مخلوق فضائي مجهول الكينونة، ربما مخلوق نوراني، ملاك من السماء حارس، وقد يكون شيطان مارق يتجول في فضاء الدنيا، منتشيا يقهقه لفعل بشر أبالسة، سعيد يراقب مأساة على وشك الوقوع أراد أن يزيد رعبهم، في تلك اللحظة الفاصلة الحاسمة، في تلك اللحظة الفارقة.. فالطائرة أصبحت كأنها تسير على شفا جرف، ينتظر أن ينهار ويسقط بين لحظة وأخرى، قال الصوت الخارق مخاطبا من في الطائرة:

– انتبهوا يا من أنتم هناك؛ انتبهوا يا أصحاب الطائرة.. كرة لهب تتعقبكم.. كرة من جهنم وراءكم..!! انتبهوا.. إنه تنين من نار يقذف حمما تجاهكم، الجحيم آت إليكم؛ سيأخذكم وطائرتكم إلى موت محقق.

« 35 »

فجأة.. دون مقدمات منبئة حدث انهيار رائع، غير متوقع في ارتفاع الطائرة، انزلاق إلى أسفل بشكل حاد جدا، سريع كأنها تغوص في الفضاء غوصا شديدا ! انقلب حال الطائرة من وضع موازي لسطح الأرض، إلى آخر منحدر بميل كبير للأمام.

هبوط بشكل صادم، ظنه البعض للوهلة الأولى، ما يعرف بمطب هوائي عميق، سقطت فيه الطائرة، لكن ما حدث آنذاك اتخذ شكلا أعظم كثيرا من مجرد مطب ! لم تكن الكابينة بأي من الجالسين فيها أو العاملين بها، على استعداد لمثل هذه السقطة المفاجئة، كانت سقطة عنيفة بشكل جعلهم جميعا يشهقون بصوت عال، شهقة قوية صدرت عن جميع حناجر من في الطائرة، مع التشبث بأذرع المقاعد، اهتز بدن الطائرة بشدة كأنها تنتفض من الخوف ! وهنا وفي تلك اللحظة؛ انقلبت الكابينة رأسا على عقب، طار وسقط وتخبط كل من فيها، من إنسان وجماد.

ما يحدث أمر نادر غير شائع الحدوث لطائرة ركاب مدنية، فالشركات المتنافسة في هذا المضمار، تبني سمعتها المتميزة على عدة عوامل، من أهمها آمان ونعومة الحركة، والحرص على راحة وسلامة الركاب، وهو على العكس تماما مما يحدث هنا والآن من فعل غير متوقع، فهذا فعل قد يليق بطائرة عسكرية، صممت للفعل الخشن! انزعج الجميع بلا استثناء، بما فيهم هؤلاء الذين يحترفون العمل على ظهر الطائرات، ربما لم يصادفهم وضع بمثل هذا السوء من قبل، وإن قابلوه، فهو لم يكن إلا كابوسا مرعبا؛ مروا به وهم أمينين في فراشهم، أما أن يكون حقيقة ملموسة يعيشونها لحظ بلحظة، فالطائرة التي هم عليها تسقط لا جدال في هاوية غير منظورة، تعالت صرخات

وأنات، كلمات متطايرة تملأ سماء الكابينة، بالضراعة والاستعاذة من موت وشيك.

ثقل كتلة الطائرة مع عجلة الجاذبية، ولدت سرعة متعاظمة في الانجراف سقوطا إلى أسفل، السرعة تتعاظم باطراد متزايد هائل؛ تحولت الطائرة لكتلة معدنية ثقيلة جدا، كقطعة من جرم سماوي، دخلت نطاق جاذبية الأرض، السقوط إذن مصيرها المحتوم !

لم يخطر ببال من تسابقوا للحصول على مقعد على الطائرة، أنهم سيقابلون مثل هذا الهلع المميت ! إحساس تملك جميع من كانوا على الطائرة بلا استثناء، كالواقف على شفا سطح برج هائل الارتفاع، ست وعشرين ناطحة سحاب عملاقة، رصت رأسيا بعضها فوق البعض ! حتى خرقت السحاب و زاحمت الفراغ في أرضه.. ! ثم فجأة يسقط سقوطا لا ينتهي، هواء في هواء.

انتزعت المفاجأة القلوب من مكمنها، فتركت صدورا فارغة وراءها، قافزة متسارعة باحثة عن مخرج للهروب، أرادت الفرار من أفواه فغرتها الدهشة إلى حد بعيد، فتعثرت ملتصقة بالحلقوم. أما الدماء آنذاك فكانت في العروق أقرب إلى حليب في قرب الخض، مندفعة تريد الانبثاق من محاجر العيون التي انقلب بياضها إلى لون أحمر عكر، فسحبت على الرؤوس ملاءة سوداء، فغمت عيون مبحلقة برعب مندهش باتساع شديد في شيء غير مرئي إلا منهم. تلاحقت الأنفاس لاهثة...متزاحمة، متخبطة... مرتبكة !

فغر كل منهم فاه إلى أقصاه، شهق الجميع بلا استثناء شهقة عظيمة، كحوت يود ابتلاع كل المحيط، وأن يأتي على كل قطرة من مائه، حتى يترك خارجه لا شيء، جاء شهيقهم موحدا كأنهم شخص واحد يسحب نفسه الأخير، يود لو أنه استحوذ على كل ذرة هواء في ذلك الفراغ الذي يلفهم بعباءة سرابية. شهقة كانت وليدة رعب...خوف وهلع، شهقة بصوت وصدى جوقة مكلومة، كأنها آهة فخمة..ضخمة..عالية، زاعقة متحشرجة في الحناجر،

شهقة كما لو أنها صادرة عن رهط يجلس مكبل فوق الصراط المستقيم، ويستشعر من تحته رؤوس الجحيم اللاسعة، فندت عنه شهقة ربما للاستغاثة، وربما استجداء الرحمة، ممن يمتلك القدرة عليها، وربما شهقة الخوف من مجهول رهيب، يستشعرونه محلقا فوق رؤوسهم، مجهول يتحين الفرصة لخطف رؤوس وقطع أعناق، تكاد تكون قد انخلعت بؤسا وهلعا.

وَحّدَ الرعب بين الجميع في أحاسيسهم وأفعالهم، فالكل يجأر في نفس واحد، لا فرق بين رجل قوي أو امرأة ضعيفة، لا فرق بين كبير حكيم، وطفل ساذج عديم الخبرة؛ البشر يجمعهم تكوين نفسي واحد، فالإنسان كائن جذوع هلوع، يخاف المجهول، فأول ما يأتي به من فعل في الملمات، وتحديدا عندما يشعر بعجزه أمام هول ما يخاف منه، هو أن يبدأ في الصراخ والبكاء، وهذا هو حاله منذ أول مواجهة له في الحياة !

تلونت مقصورة الركاب بلون الوجع الكابي، صبغت السحن بآهات مشروخة، بللت الوجوه بمزيج من دموع عيون ملتاعة ومخاط أنوف هائجة، ملابس لطخت بنزيف أنوف فاصدة، ودمعة طبيخ حار، تهدجت الأنفاس وتقطعت، اختلط ما لا يختلط، وامتزج ما لا يمتزج..! حالة من انعدام الوزن والثقة؛ تشكك في واقع ما يدور حولهم، أحقيقة أم كابوس سيأخذ وقته، وسريعا ما يفيقون منه مستعيذين بالله. كان بدن الطائرة في ذلك الوقت بجميع من على متنه من بشر، و بكل ما في باطنه من أشياء يغوص في فراغ من فضاء، سرعة عظيمة تتجاوز عجلة الهبوط إلى السقوط، تخطت آنذاك حاجز الهبوط المتعارف عليه، مئات الكيلومترات في الساعة الواحدة، فخبا أثر الجاذبية على الأجسام كنتيجة منطقية لنظرية القصور الذاتي، وطفت الأجسام – إلا من ثبت مكانه بحزام المقعد – كقصاصات ورق في مهب ريح، مع صوت كورال لألم خارج عن أرواح تحس نفسها على عتبة الرحيل، تحولت صورة كابينة الركاب بمن فيها، إلى مشهد لقطع من فلين ممزقة على سطح ماء فائر، تطفو في أماكنها !

« 36 »

مقعد اختير بعناية شديدة، يقع على الحد الفاصل بين درجتي الكابينة، نقطة مميزة جدا، يمكن للجالس فيها أن يرى ويلاحظ ما يدور في الكابينة من أقصى المقدمة حيث مقصورة القيادة، إلى أقصى منطقة عمل نهاية الكابينة. أراني جالسا في ذلك المقعد، مربوطا إليه بشكل محكم، عيناي غائمتان، أشعر بدوار وغثيان من تأرجح وتذبذب أصاب الطائرة، كقارب صغير بظهر يم هائج، كاد يقربني من حد الاختناق، خلال ذلك الوقت اللا نهائي المرتبك، التي كانت دقائقه حبلى بكل مستنسخات التوتر، مشحونة بزخم أحداث مأساوية متلاحقة مطردة.

حينذاك ظهر شبح شخص يتحرك في تؤدة بين طيات ضباب غشى الكابينة بكاملها ! فركت عيني لأتأكد مما أراه، كان الشبح أو الشخص يتحسس رؤوس المقاعد ويتكئ عليها، بشكل يؤكد أنه أعمى ! لكن كان به إصرار غريب على المواصلة، لم توقفه أصوات صارخة متناثرة، ورجاءات ضارعة، لم يمنعه موت، يراه الجميع يحوم محلقا، بل حاملا للطائرة على أجنحته الحاسمة الباترة، متحينا لحظة الإذن بالانقضاض، لجلب النهاية.

حَافظ الشبح على تقدمه، رغم غوص الطائرة الحاد في الفراغ المحيط آنذاك، بدا كما لو أنه منفصل عن واقع اللحظة تماما، أو أنه يعيش واقعا آخر مغاير، اقترب...انتبهت؛ الرجل يحاول في دأب وإصرار التقدم ناحيتي – عجيب أمره – كأنه يراني، أو كأنه على أقل تقدير.. يعلم مكاني، استمر تقدمه كمن أصابه الصمم، لا يسمع ولا يأبه بأي فرقعات حادثة، ولا بصرخات محذرة ! أدركت أن الرجل يتحرك تحت تأثير أمر خارج عن إرادته؛ فهو مسير

إلي..!

جاءني وقف تحديدا أمامي، رأيته شيخا ضريرا لكنه متحفز... تساءلت في نفسي، هل أعرفه..؟ أيعرفني..؟ ظننت أن الأمور قد اختلطت عليه ! لكن زعق في وجهي بطريقة مفاجئة، صوته كان هادرا عجيبا كأنه رجع لصوت قادم من فضاء بعيد آخر، صوت خارج عن المألوف لنا، بعيد عن المحسوس والمدرك، قال في صيغة غاضبة، مستنكرة: ماذا تظن نفسك فاعلا ؟ أتبحث عن الحقيقة، كما ادعيت سلفا ! أتظن أنك الوحيد القادر على الحصول على ما فشل غيرك في الوصول إليه ؟ لقد سبق أن حذرتك، فلم يوجد بين البشر من امتلكها كاملة ! ربما الأنبياء، وأنت لست بنبي، إذن أنت تكتب ما لا تعرف، وتدعي معرفة ما خفي عن الناس، أنت كاذب مدع !

استنكرت أن يكون هذا الخطاب الانفعالي، والسؤال التهكمي موجها لي ! تلفت حولي مندهشا علِّي أجد آخر جواري أو خلفي يخاطبه ! لكن الرجل عاود مواصلا هجومه علي، مؤكدا معنى حديثه ! تساءلت بيني وبين نفسي.. هل التقيته قبل ؟ ولم أجد إجابة حاسمة، ربما لكني لا أذكر؟ أكمل الشيخ متهكما:

– لماذا تتلفت حولك..! أنت المقصود حصريا بكل حرف أقوله .

رددت متلعثما، مندهشا من شخص لا يبصر، لكنه استطاع الوصول إلي، أن يجدني من بين كل هذا الحشد الموجود ! ووسط هذه المعمعة الملتهبة، ركبت رأسي علامات تعجب واستنكار ! لم أفهم عن ماذا يتحدث، ولا المقصود من سؤاله الاستنكاري، فكيف تأتى للرجل معرفتي..؟ ثم ادعاؤه بأنه قد حذرني سابقا، لكن من ماذا ؟ ومتى كان ذلك وأين ؟ قلت مستفسرا متعجبا:

– أتعرفني، أتقصدني أنا.. ! وما هذا الذي أدعيه ؟

ارتسمت على ملامح الرجل الغائمة علامة استهجان وامتعاض، وعندئذ قفزت إلى رأسي صورة الذي جاءني زائرا، في غرفتي بعد

منتصف ليلة سماعي خبر الحادثة، إنه نفسه ذو الوجه الغائبة ملامحه ! الضائع عن أي علامة تميزه ! اللهم تلك اللحية الكثة بسواد ليل يمحوه ضياء. نظر الرجل بلا أعين، في عيني ! استأنف كلامه مؤكدا:

– نعم.. أنت..! من غيرك هنا يشتغل بالكتابة ؟ مَن مِن بين هؤلاء معني بتسجيل خيالات وهراء لا أصلَ لها ولا منطق فيها، تختلق من عندك قصصا، مدعيا المعرفة بها ! قُل لي من يجلس ساعات يوميا إلى جهاز « اللاب توب » ليسجل من الذاكرة أحداثا لا يعلم صحتها إلا الله ؟ صفحات وصفحات سجلتها تأسيسا على ادعاء باطل..إنك عليم مطلع ببواطن الأمور! من أين جئت بحق ادعاء المعرفة ؟ أمور وأحداث انغلقت عليها صدور، وأخفتها قلوب ! ثم أتيت أنت مدعيا المعرفة، فمن أنت لتعرف خبايا صناديق تكمن في جوف هؤلاء الذي كانوا، بكل ما فيها من تفاصيل شخصية ومفردات عامة ! ألا تعلم يا هذا أنك بذلك تكون قد انتحلت شخصية الراوي العليم بالغيب وخبايا الصدور، والحقيقة أن الراوي أيًا كان شخصه، فربما هو يعلم أفعالا منظورة محسوسة، أم ادعاؤكم أنه يعلم النوايا وخفايا الصدور، فهذا شطط غير مقبول، فلا راو هناك عليم يا «مسيلمة» غير الله.

صدمتني كلمات الشيخ الكفيف، فلم أنطق، ربما أصبت حينها بخرس وقتي، أو ربما لم أجد كلمة مناسبة لأرد بها. استطرد الشيخ، قائلا:

– إن كل ما كتبته يقول بالضرورة، إنك كنت معهم حتى اللحظات الحرجة، وكل ما ذكرته يؤكد أنك الراوي لقصتهم، العالم بدقائق أمور كانت تدور وقت اقتراب كلمة النهاية ! ثم جاءت الصورة النهائية المعلنة، تقول إن الطائرة، بمن عليها قد اختفت في مكان ما ! لكن بما أنك أحدهم، وبما أنك ما زلت تكتب، فهذا يعني أنهم جميعا أحياء، لكنهم – فقط – في مكان غير معلوم.

دهشت لقوله، ومن قدرته العجيبة على اكتشاف أمر كتابة أمارسها بعيدا عن الأعين..! لكن ما أذهلني حقا، هو معرفته تحديدا بأمر الرواية التي بين

أيديكم الآن، وتحديده لمحور الحكي فيها عن تلك الطائرة المختفية ! وقت أن كانت مشروعا روائيا مازال في طور البناء، ولم تمنحني نهايتها بعد.

ألح عليّ سؤال حائر:

– من يكون هذا الشيخ الضرير؟ كيف استطاع أن يجدني بين كل من كانوا هناك، وسط هذا الضباب الكثيف..؟ كيف اكتشف أمر الرواية ؟ كيف عَلم بموضوع النص على وجه التحديد ؟ رواية مبتسرة.. نص لم يكتمل بعد، مازال تحت سطوة الحذف والإضافة..!!

لكن العجيب في الأمر، بين كل ما حدث.. أنني ومن خلال مقعدي المتميز – الراصد لكل من يدخل إلى كابينة الركاب– لم أر وجها لكفيف ! أو أي من ذوي الاحتياجات الخاصة، بل لم ألمح طيفا لشخص يساعد أو يقود كفيفا ! رجل مجهول الملامح و الهوية.. من أين جاء، و إلى أين ذهب؟ كيف حصل على تلك المعلومات ؟ هل هو بالفعل أعمى – كما أظن– أم أني أنا الأعمى ؟ انتفضت مكاني غاضبا، كلماته أثارت أعصابي؛ انتفضت من مكاني واقفا زاعقا عابس الوجه، عاقد الجبين:

– لماذا تتهمني بالكذب، يا أيها الأعمى المضل، من ذا الذي أعطاك الحق أن ترمي الناس بالتهم جزافا، دونما بينة أنت لا تعرفني، ولا تعرف عني شيئا..!

حسبت أني أوجعته، عندما نعته بالأعمى، نافيا عنه المعرفة، متهما إياه بالضلال، لكن رد فعله كان غريبا غير متوقع ! ضحك الرجل على طريقة الكوميديا السوداء، ومسرح رمسيس، قائلا:

– إن كنت فاقدا للبصر.. فأنا أمتلك البصيرة، لكن أنت فاقد للبصر وللبصيرة.

كان لضحكه رنة البكاء وأنة الألم، تبعها بصمت زاعق.. ثم ضحك ثانية لكن بشكل مختلف..! نصف ضحكة فقط، لكنها تنضح بسخرية ناقعة

موجعة.. أكمل بعدها قائلا كلمات جاءت كطلق ناري وجه إلى صدري، وهو يسألني مستنكرا:

– هل لديك مبرر واحد لفعلك المكتوب هذا ؟ ألديك دافع منطقي لنكأ الجراح بحروفك وكلماتك.. ؟

غضبت من اتهامات كالها الرجل لي، ناعتا شخصي بكل قبيح ! فقلت منفعلا:

– اتهمتني بانعدام البصيرة، وتعمدي الإساءة للغير، ومن قبل بالكذب، و الإفك..! كل ذلك دون بينة، أيها الأعمى الحقود، ومَا الإفك إلا مَا يسكن رأسك الخرب، وأفكارك المريضة يا مختل العقل و الرؤية ! وهل من الحكمة إن كانت لديك– أن تتهم الناس جزافا، وتقذفهم بأحقادك السوداء. أنا لا أنكر فعل الكتابة، لأني بالفعل أمارسه ومازالت، ليس إلا بحثا عن حقيقة غائبة، عل كلماتي تكون شموعا تضيء دروب مظلمة، أو حجارة تحرك مياه راكدة، أو ربما تكون موجة تعصف بقلب بحيرة الصمت، التي ترقد في بطنها الحقيقة. حان الوقت لأحقق طلب(أصحاب الطائرة) فهم من سألوني الكتابة، لأرفع صوتهم الذي خبا، يطالبون بحقهم من جلادين سرقوا منهم حق الحياة، دون وجه حق ! هم من جاءوني بالحقيقة كاملة كما عاشوها، ووضعوها بين يدي، لأكتبها لأظهرها من خلال كتابة قصتهم للعالم، أنا أكتب وهم يراقبونني.

- إنه ضميري..!

عند هذه العبارة، تحديدا عندما تفوهت بلفظة الضمير..! فاجأني الأعمى، وانفجر ضاحكا، كان فاه كفوهة بركان تضحك، ضحك الشيخ الكفيف في وقت عصيب مربك، ضحك في وقت تباينت فيه مشاعر الناس، فمنهم الصامت ومنهم الصارخ ومنهم من يبتهل، منهم من رسمت على وجهه علامات الرضا والسكينة، وآخرون ارتسمت على وجوههم علامات الهلع و الخوف المبين.. ! وهناك من ابتلت ملابسه، ربما عرقا ..! الجميع يعاني سَكرات،

تجتاحنا قبيل نهاية الرواية، كما أحسها. يضحك الشيخ بعنف، حتى اهتز منه كامل الجسد بشكل فاق اهتزازات الطائرة ذاتها، ضحك حتى دمعت منه عينان لا وجود لهما، لكني رأيته بظهر يده يمسح دمعا سال على وجنتيه، وهو يستمر في الضحك، اعتبرت أن ما به هو حالة مرضية، ربما نوعا من الهستيريا ! واصلت كلامي غير عابئ بضحكه، قائلا:

– أسجل وقائع الحدث كما عايشتها، كما رأيتها وقرأتها، كما سمعتها وكما قالوها هم لي. أكتب لقادمين من بعدنا ليعرفوا حقيقة زمن عشناه، أكتب لأقول أن أهل الطائرة، لم يموتوا، لكن من ماتوا هم من أسقطوهم وطائرتهم.

رد الشيخ الكفيف، قائلا:

– تقول ضمير.. ! وهل عاد في الأرض ما يسمى ضمير ؟ أنت ذاتك بشخصك، وبدنك هل تمتلك ضميرا.. ؟ ! وإن سلمت جدلا أن لديك بعض منه مازال ينبض داخلك، فقل لي و أصدقني القول.. لماذا تكتب ؟ لماذا تخيرت هذا الموضوع، ما الذي ترجوه من وراء كتابتك هذه ؟ شهرة..مال.. ؟ تريد أن تصنع من دموع الآخرين بحيرة من شجن تلهو أنت على سطحها مضطجعا على وسائد حشيت بآهاتهم وآلامهم، غير مبال بأوجاع إنسانية صنعت منها بحيرة نرجسيتك وغرورك الأعمى ! ربما تظن أنك مستنطق ألسنة الناس بشهادة لصالحك وقلمك، تود لو تسمعهم يقولون إنك بارع.. مبدع.. لك قلم عبقري أتيت به من أشجار وادي خيالك الخصب الرائع، الذي هو وليد عالم ما وراء الطبيعة و الخيال ؟ !

بهتُّ من كلام الشيخ الضرير الغريب، دهشت من تماس حديثه مع ذاتي، فقد اكتشفت أن في بعضه صحة لا أستطيع إنكارها أو نفيها تماما..! بل إن بعضا آخر من تلك المزاعم يراود النفس أحيانا. قلت وأنا أتشبث بمكاني بشدة خشية الانزلاق، والسقوط:

– إليك عني أيها الرجل، دعني أنهي ما بدأت، قبل ضياع الوقت !

قال الرجل في إصرار غريب منه على مواصلة جدله المميت الذي بدأه، رغم أن صوته في العبارة الأخيرة، جاء كما لو أن الرجل ينسحب عني مبتعدا:

– ثم ماذا ... ؟

قلت بعد أن أشحت بوجهي عن صوت بقى، برغم تلاشي صورة الشيخ الضرير من أمام عيني، بين طيات الضباب الذي خرج إلي سابقا من خلاله، مركزا عينيّ على « اللاب توب »:

– دعني يا رجل لما أنا فيه.. واذهب من حيث أتيت، فلقد اقتربنا من النهاية، فدعني وشأني وِما أكتب؛ فلم يبق أمامي إلا عدد من سطور قليلة، وبعض المفردات البسيطة، لأسجل كلمة.... !

لم أكد أنتهي من النطق بكلمتي، حتى سمعت دوي انفجار عظيم، اصطدام مزلزل، انتفض له بدن الطائرة كمن أصابته صدمة كهربائية عالية الجهد، أحدثت فجوة كبيرة قرب مؤخرة الطائرة، أخذت تمتص مبتلعة بشدة كل ما في قلب كابينة الركاب، كثقب فضائي أسود يكنس كل ما يصادفه في طريقه دون تميز، إلى بطن حوت أسطوري بضخامة حجم الفضاء الخارجي...! واكب ذلك وفي زمن لم يتعد ثوان قليلة، وبشكل أوتوماتيكي ارتفاع إضاءة بقايا كابينة الطائرة إلى حدها الأقصى، مع انخفاض سريع مفاجئ في درجة الحرارة إلى ما دون الصفر، هاجت له ذرات تراب يسكن سجاد أرضية الكابينة، صانعا دوامة هوائية شديدة سريعة، على هيئة ضباب كثيف غشي أجواء المكان كله، حتى حجبت الرؤيا أو كادت. وفي نفس اللحظة اخترق الفراغ دوي رنات متتالية لأجراس كهربائية، وصوت آلي صارخ (شريط مسجل) يطالب الجميع بارتداء أقنعة سقطت فوق الرؤوس ذات خراطيم شفافة، ورؤوس صفراء فاقع لونها، تدلت متأرجحة أمام الوجوه للتنفس، لكن حينئذ لم تكن هناك أيدٍ لتمتد بأي فعل، سقطت الطائرة، واستمرت بقاياها في غوص لا نهائي.

سمعت بخبر وقوع ذلك الحادث في صباح يوم كان أقرب ما يكون للشتاء،

لكن بالرغم من ذلك فوجئت بحبات رمال خماسينية تتساقط في صمت من عينيي ! عشت آنذاك حالة من ذهول أفقدتني الإحساس بما يدور، وعندما أفقت كنت أهذي كمن به مس من جنون، كلمات غير مترابطة، رافضة للخبر.

قبل ظهر ذاك اليوم، كنت اشتريت كل ما وصلت إليه يدي من صحف، وجلست متحفزا متنقلا بين الإذاعات الإخبارية، المسموعة والمرئية، العربية والأجنبية مقتفيا متسقطا أي خبر عن كارثة – يراودني على استحياء أمل العثور على أحياء – السقوط المروع غير المتوقع للطائرة...اختفاء مفاجئ، لم تسبقه أي استغاثة – هكذا قالوا– بدا الأمر دون أي معطيات، كلغز مبهم شديد التعقيد والغرابة، لكن ما بدا حينها أكثر غرابة، هو استباق البعض لكل شيء أو أي شيء يعتد به كمعلومة عن سبب السقوط. بعض أصحاب المصالح المشبوهة، راحوا يروجون لفكرة إسقاط الطائرة، لمحو الآحتمال الذي يقول... إن أحد أفراد طاقم القيادة، تعمد الفعل ! عند ذلك رأيت علامة تعجب سوداء كبيرة تتلوى أمامي كحية رقطاء، لا أحد يعلم من أين جاؤوا بهذه الاحتمالية، وإلى أين ستذهب بنا ؟ عندئذ امتلأ الفضاء بلغط: ماذا حدث.. وكيف ؟

كان من الضروري جدا وجود من يمتلك الإجابة على تلك الأحجية، لكن من يكون هذا المالك ؟

ظهر اسم الصندوق البرتقالي، الذي يصمونه بالأسود.. ظهر ممتطيا صهوة موجة عالية من اللغط إلى سطح الحدث، أصبح اسمه يتردد بقوة على كل لسان وكأنه المصباح السحري، الذي سيرفع أي ظلام يكتنف الحدث، يفك شفرة السقوط المبهم، لكن السؤال عندئذ كان:

أين اختفى ذلك الصندوق، ذلك القلب الحافظ للأسرار، القلب العجائبي، الذي يبقى نابضًا بعد الانتهاء، ليكون هو شاهد العيان الباقي القادر على قصه:

حكاية ما قبل الموت.

النهاية

محسن الغمري

- تخرج من كلية الزراعة جامعة اسيوط وعمل بشركة طيران مصرية لمدة ٣٤ عاما وتدرج فى الوظيفة حتى عين مديرا عاما بالضيافة
- صدرت له أول مجموعة قصصية بعنوان (القفذ فوق السحاب) عام ٢٠٠٥ عن الدار المصرية السعودية
- صدر له المجموعه الثانية (فاطمة وبلانش) عن دار الدار . وحصلت على جائزة اتحاد الكتاب عام ٢٠١٢.
- له رواية (ربما ذات يوم) صدرت عن دار إيزيس للفنون والنشر - ثم صدرت طبعتها الثانية عن دار أروقه عام ٢٠١٣ .
- نشرت أعماله فى الصحف والمجلات المصريهوالعربيه
- عضو اتحاد كتاب مصر

دلتا للنشر والتوزيع

obeikan.com